صُورة غِلَاف كِتَاب "هَل مَا زَالت المَارَكْسِيَة صَالِحَة بعد انهيَّار الاتحاد السُوفْيَاتِي؟" :

مَعلومات حول كتاب: "هَلْ ما زالَت المَاركْسِيَة صَالِحَة بعد انْهِيار الاتحاد السّوفْيَاتِي"؟

- ***الكاتب:*** رَحْمَان النُوضَة.
- ***عنوان الكتاب:*** "هَلْ مَا زَالت الماركسية صَالِحَة بَعد انهيَّار الاتحاد السُوفْيَاتِي؟".
- ***الصّنف:*** مقالة نظرية سياسية (Essai).
- ***الغلاف:*** من إِبْدَاع الكاتب.
- ***تاريخ النَشْر الأول على الأنترنيت:*** يُولْيُوز 2015.
- ***رقم آخر صِيغَة*** (أي رقم آخر مُراجعة وَتَحْيِين للكتاب) : 17.
- ***الناشر:*** نشره الكاتب رحمان النوضة على الأنترنيت.
- ***لِلْوُصُول*** إلى هذا الكتاب على مدوّنة الكاتب :

https://LivresChauds.Wordpress.Com

- ***الرقم الدولي المعياري للكتاب (ردمك)*** (ISBN): 978-9920-32-298-0.

- ***عُنْوَان الكاتب:*** nouda.abderrahman@gmail.com

إعلان عن رُخصة بالمَجّان إلى النّاشرين

يَمنح رحمان النوضة، مؤلّف هذا الكتاب، لأي ناشر يهتم بهذا الكتاب، أينما كان في العالم، ترخيصًا مجانيًا، وغيرَ حصري (non exclusif). ومعنى عبارة "غير حصري"، أنه يُمْنَعُ أن يكون هذا الترخيص خَاصًّا بناشر واحد. وهذا الترخيص غير قابل للنقل (non transférable) من ناشر إلى آخر. ويسمح هذا الترخيص للناشر أن ينشر هذا الكتاب، وأن يترجمه، وأن يوزّع نُسَخَه. ولا يسمح للنّاشر بِبَيْع نُسَخ هذا الكتاب، إلّا في حالة إذا كانت هذه النُسخ مَطبوعة على الورق. ولا يؤدي الناشر الذي ينشر هذا الكاتب أية واجبات مالية للكاتب. لكن هذا الترخيص مشروط باحترام الشّروط التّالية: 1) ألّا يُغَيّر النّاشر مضمون الكتاب إذا لم يَحْصُل مُسْبَقًا على موافقة مكتوبة من طرف الكاتب تُحدّد هذه التغييرات المرجوّة. 2) أن يبقى هذا الترخيص مُتاحًا، في نفس الوقت، لجميع الناشرين في العالم، [أي أنه يُمْنَعُ كُلِّيًا تحويل هذا التّرخيص للنشر إلى حقّ مَقْصُور (exclusif)، خاص بناشر واحد محدّد]. 3) أن يكون سعر بيع هذا الكتاب المطبوع على الورق منخفضًا إلى أدنى مستوى مُمكن. 4) في حالة عرض هذا الكتاب على الأنترنيت، يجب أن يكون تحميله متاحًا بالمجّان للعموم. 5) في بداية كل نسخة مَنْشُورة من هذا الكتاب (سواءً كانت على الورق، أم على الأنترنيت)، يجب إعادة نَشْر هذه الفقرة الحالية حول الترخيص للنشر. 6) هدف هذا التّرخيص هو نشر الثقافة، وليس كسب الأرباح التجارية. 7) لا يعني هذا الترخيص للنّشر تنازل المؤلف عن أيّ حقّ من حقوقه كمؤلّف، أو عن حقوق المِلْكِيَة الفكرية. 8) يحتفظ المؤلف، في نفس الوقت، بكل حقوقه كاملة (بما فيها إعادة إنتاج، وتغيير، ونقل، ونشر، وتوزيع، وبيع، وتسويق، هذا الكتاب، في أي شكل كان، وعلى أي سَنَد، وبأية وسيلة). وَخَسِئَ الّذين يَقْتَبِسُون أفكارًا، دون ذِكْر المَصَادِر التي أَلْهَمَتْهُم هذه الأفكار.

كُتُب أُخرى نَشَرَهَا رَحْمَان النُّوضَة

1- Le Sociétal, Version 8, pdf.
2- Le Politique, Version 9, pdf.
3- L'éthique politique, Version 11.3, pdf.
4- Impossible de sortir du sous-développement par le capitalisme, 2020, pages 140, Version 18,

5 ـ نَقْد الشّعب (حوار حول مُعيقَات إصلاح المُجتمع)، الصيغة 56، منشور على الورق.

6 ـ نَقْد أحزاب اليسار بالمغرب، الصيغة 55، pdf.

7 ـ هل ما زالت الماركسية صالحة بعد انهيّار الاتحاد السوفياتي؟ الصيغة 13، pdf.

8 ـ نَقد تعاون اليساريين مع الإسلاميين، الصيغة 8، pdf.

9 ـ طبقات المُجتمع، صيغة سنة 1983، pdf.

10 ـ نَقْد النظام السياسي بالمغرب، الصيغة 56، pdf.

11 ـ نقد الصهيونية، الصيغة 14، pdf.

12 ـ نَقد النُخَب، الصيغة 8، pdf.

13 ـ أيّة علاقة بين الدّين والقانون، الصيغة 24، pdf.

14 ـ الجنس والدّين (من الإرشاد إلى الفضيحة)، pdf.

15 ـ كَيف نُسقط الاستبداد (في فنون النضال الجماهيري السّلمي المُشترك)، pdf.

16 ـ مشروع الرّبط القَار بين المغرب واسبانيا، دراسة جيو استراتيجية، صيغة سنة 1988، pdf.

17 ـ كَيْف؟ (في فنون النضال السياسي الثوري)، صيغة سنة 1982، pdf.

18 ـ كيف نتجاوز القمع، صيغة سنة 1973، pdf.

ـ ونشر مقالات ودراسات متنوّعة على جرائد ومجلات مغربية، وعلى الإنترنيت.

ـ يمكن تنزيل هذه الكتب مجانًا من مَوقع مُدَوَّنَة الكاتب التَّالِية :
http://LivresChauds.Wordpress.Com

فِـهْـــرِس الكتـاب

الكلمات المَفَاتِيح (mots clefs):.....8

ملخّص الكتاب (Résumé du livre) :.....8

Keywords:.....8

Article Summary:.....8

1) تَقديم وتَنبيه.....10

2) هَلْ كُلّ نَقْد لِاسْطَالِين هو دعَايَة إِمْبِرْيَالِيَة ؟.....15

3) لِمَاذا اِنْهَارَ الْإِتحَادُ السُّوفْيَاتِي؟.....19

3.1 – هل انهيار الاتحاد السُّوفياتي يُبَرِّر الشَكِّ في الماركسية؟.....22

3.2– هل تُوجَدُ دراسات باللغة العربية تُفَسِّر انهيار الاتحاد السوفياتي؟.....26

3.3– هل تُشَكِّلُ سياسات اسْطَالِين اسْتِمْرَارِيَة أم قَطِيعَة مع الماركسية؟.....30

3.4 – أليس التَسَرُّع، وحرق المراحل، في إنجاز مهام الثورة، خطأً فَادِحًا؟....44

4) هل النُّمُو الاقتصادي شَرط لِنَجَاح الثورة الاشتراكيةَ؟....56

5) لِمَاذا تَحَوَّلت ديكْتَاتُورِيَة الْبْرُولِيتَارْيَا إلى نَقِيضِهَا؟.....65

6) إِنْ اِنْهَارَ الاتحاد السُّوفْيَاتِي، لماذا تَعَاظَمَت الصّين؟.....95

7) هل يَحِقُّ اختصار الاشتراكية في تَأْمِيم وَسَائِل الانتاج؟ 112

8) هل الطبقة العاملة دائمًا ثورية؟.....116

9) لِمَاذا الثورة الثقافية السِّلْمِيَة المُتَوَاصِلَة ضَرورية؟.....124

10) هل تُجُووِزَت الماركسية؟.....130

11) من هو مُؤَهَّل للحُكْم على الماركسية؟.....143

12) هل الماركسية أيديولوجية؟.....145

13) هَل الماركسية عِلمٌ دَقِيقٌ؟.....149
14) مَن يَقْدِرُ على تَطْوِير الماركسية؟.....154
15) أَلَمْ يَتَّضِحْ بعدُ أن الاستمرار في الرأسمالية هو انتحار جماعي بَطِيء؟.....158
16) هَل أَغْفَلَ مَاركس بعض القضايا؟.....168
17) هَلْ يُوجَد نَقْصٌ مُحَدَّد في النَظَرِيَة المَارْكسية ؟.....177
18) لماذا بعض الأحزاب "الاشتراكية" تُعَادِي الاشتراكية؟ 183
19) مُلَاحظات في مَجَال تَهْيِيء الاشتراكية.....187
20) الماركسية التي حَرَّرَتْ عَقْلِي.....190

الكلمات المَفَاتِيح (*mots clefs*):

الماركسية، الرأسمالية، الاشتراكية، الاتحاد السوفياتي، الصين، الطبقة العاملة، ديكتاتورية البروليتاريا، مراحل الثورة، ماركس، لينين، اسْطَالِين، مَاوُو تْسِي تُونْغ.

ملخّص الكتاب (*Résumé du livre*) :

في جوهرها، الماركسية هي نقد شُمُولِي ودَقيق للرأسمالية، وللمجتمع الرأسمالي. وعلى خلاف بعض الآراء، ليست الماركسيةَ نظرية مُكْتَمِلَة، أو نهائية. وإنما هي اجتهاد عِلْمِي، ونِسْبِيّ، وَمُتَطَوّر، وَمَوسُوم بِزَمَانه التاريخي. وتبقى الماركسية، مثل كل نظرية عِلمية أو فلسفية، في حاجة إلى مُراجَعَات، لِتقْوِيمِهَا، وَلِإِغْنَائها. ولَا تتوفّر الماركسية على نظرية جاهزة لِبِنَاء الاشتراكية. لأن نظرية بناء الاشتراكية (من منظور ماركسي) تُكْتَسَبُ من خلال تجارب بنائها. ولا يُشكّل انهيار الاتحاد السوفياتي حُجَّة على خطأ الماركسية. وتُوجَدُ أسباب انهيار الاتحاد السوفياتي، على الخُصوص، في تفاصيل تاريخ الصّرِاع الطبقي في الاتحاد السوفياتي، وليس في نقَائِصَ مُفْتَرَضَة في النظرية الماركسية. الشيء الذي لَا يُلْغِي احتياج الماركسية إلى مُرَاجَعَة، ونقد، وتطوير، وإغناء، وإبداع. والماركسية (بأدواتها النظرية) هي مُؤَهَّلة أكثر من غيرها لِتفسير هذه التطوّرات بمنهج عقلاني. وتُشَكِّل مناهج وسُلُوكِيَّات جُوزِيفْ اسْطَالِين قَطِيعَة جذرية مع فِكر كَارْل مَارْكِس، وافْلَادِيمِيرْ لِينِين. وَلَمْ يكن ضُعْفُ ثقافة اسْطَالِين يسمح له بِاسْتِيعَاب الماركسية، فبالأحرى أن يسمح له بتطويرها. وقد فرض اسْطَالِين استبداده الشخصي المُطلق، على الحزب الشيوعي، وعلى المجتمع. ومارس الكثير من الأخطاء والجرائم. وحَرَّف أطروحة «ديكتاتورية البروليتاريا». وحوّل الحزب الشيوعي إلى نقيضه. الشيء الذي هَيَّأَ شروط انهيار الاتحاد السوفياتي.

Keywords:

Marxism, capitalism, socialism, the Soviet Union, China, the working class, the dictatorship of the proletariat, stages of revolution, Marx, Lenin, Stalin, Mao Ze Toung.

Article Summary:

In its essence, Marxism is an inclusif and meticulous critique of capitalism and capitalist society. Unlike some opinions, Marxism is not complete or definitive. Rather, it is scientific studiousness, relative, progressive, and marked by its historical time. Marxism, like any scientific or

philosophical theory, needs to be reviewed, rectified, or enriched. Marxism does not exist on a ready-made theory of socialism. Because the theory of building socialism (from a Marxist perspective) is gained through the experiences of its construction. The collapse of the Soviet Union does not prove the error of Marxism. The reasons for the collapse of the Soviet Union in particular lie in the details of the history of class struggle in it, and not in the supposed shortcomings of Marxist theory. Which does not eliminate the need for Marxism to review, critique, develop, enrich, and create. Marxism (with its theoretical tools) is more qualified than others to interpret these developments in a rational manner. The methods and behavior of Joseph Stalin constitute a radical break with the thought of Karl Marx and Vladimir Lenin. The weakness of the culture of Stalin did not allow him to assimilate Marxism, rather it allowed him to develop it. Stalin imposed his personal despotism, on the Communist Party, and on society. He practiced many mistakes and crimes. He falsified the thesis of the dictatorship of the proletariat. And he transformed the Communist Party into its contrary. Which created conditions for the collapse of the Soviet Union.

رَحْمَان النُّوضَة

هَلْ مَا زَالَت المَارْكْسِيَّة صَالِحَة بَعْدَ إِنْهِيَار الإِتِّحَاد السُّوفْيَاتِي ؟

الصِّيغَة رقم 17

1) تَـقْـدِيـم وتَـنْـبِـيـه

تُوجد ارتباطات عميقة بين «***الماركسية***»، و«***الرَّأْسَمَالِيَة***»، و«***الاشتراكية***»، إلى درجة أنه، لَا يُمكننا الحديث عن واحدة منها، دون الكلام، بشكل أو بآخر، عن البَاقِيَة منها. ولا يمكن نقاش مدى سَدَاد النَّظرية الماركسية دون تقْيِيم تجارب الثورات "الاشتراكية" عبر العالم، وخاصة منها تجربتي الاتحاد السوفياتي والصّين.

ومِن خلال تجاربي النضالية، لاحظتُ أن نسبة هامّة من المناضلين يتصارعون، داخل ذهنهم، تارةً بشكل صريح، وتارةً بشكل غامض، مع تَسَاؤُلَات نظرية كبرى. أبرزها التساؤل التَّالي: «***هل اِنْهِيَار تجربة بناء الاشتراكية في الاتحاد السوفياتي يَعْنِي أن النظرية الماركسية نَاقِصَة، أو خاطئة، أو مُتَجاوزة***»؟

وقبل عرض ما أعرفه، ينبغي أن أبدأ بالاعتراف بما أجهله. واعترافي بعدّة قضايا أجهلها، ليس استقالة من المُباراة، بل قد يكون إشارة إلى صِدْق كلامي، أو ضمانة على جودة معارفي. فَأعترفُ أن محدودية تجاربي، ومعارفي، لا تسمح لِي بتناول مجمل إشكالات ***النظرية الماركسية***، وَخاصّةً منها الإِشْكَالَات المُتَعَدّدَة الموجودة في مجال ***بناء الاشتراكية***. ولَا أقدر على مُعَالَجَتِها بِوَحْدِي. ومن المُسْتَبْعَد أن يقدر نقاش أوّلي على دراسة مُجْمَل قضايا هذا الموضوع بدقّة عِلمية ومُرْضِيَة. لكن المهم هو أن نَتَجَرَّأَ على بَدْءِ الاجتهاد العِلْمِيّ، ولو

بقدر مُتواضع، والشُرُوع في التعاون، والتكامل، بأكبر قدر ممكن من المناهج العِلْمِية، والنقْدِية. ولو أن هذه المُساهمات الحالية تبقى، بالضّرورة، أَوَّلِيَة، أي في حاجة إلى مُراجَعَات نقدية، لِتقْوِيمِهَا، أو لإغنائها، أو لِتَطويرها.

ولَا أُقَدِّسُ جُوزيف اسْطَالِين، ولَا افْلَادِيمِيرً لِينِينً، ولَا كَارْلْ مَارْكِسْ. وهدفي ليس هو الدّفاع عن الماركسية أو الاشتراكية، وإنما هو ***ردّ الاعتبار إلى العَقْل النقْدِي*** في كل شيء، بما فيه السياسة، والنضال، والحزب، والنظرية، وبناء الاشتراكية، إلى آخره. فمرجعنا الأساسي، ليس هو نصوص ماركس، وإنما هو العقل النقدي. وكلّما ضَعُفَ، أو غَابَ، ***العقل النقدي***، أصبح الانحراف وَارِدًا، أو الاِسْتِلَاب (aliénation) مُحْتَمَلًا. لكن العقل النقدي لا يكفي وحده. إِذْ الْعَقْل بدون استيعاب عُلُوم زَمَانِنَا التاريخي، أو بدون التَشَبُّع بالتُرَاث الثقافي لِمُجْمَل الإنسانية، سَيَبْقَى هذا العَقْل مثل طاحونة تدور في فراغ، ولَا تُنْتِج سوى غُبَارًا غير مُفيد.

أُسَاهِمُ في هذا الحوار حول *"الماركسية"*، و*"الاشتراكية"*، وأعترف، في نفس الوقت، أنني ***أجهل أشياء كثيرة عنهما***. فَلَا أعرف بالتَدْقِيق كيف تُبْنَى *الاشتراكية*. وَأَحْمِلُ في ذهني تساؤلات كثيرة حول مضمونها، وشكلها، وأساليبها، وطُرُق تَشْيِيدِها. ***والهدف من مساهمتي هاته، ليس هو تَرْدِيدُ مَقُولَات النظرية الماركسية (أو الماركسية اللّينِينِيَّة) المَعْرُوفَة، والمُكَرَّرَة، مِثلما يَكْتفِي به البعض. وإنما هدفي هو اِقْتِسَام بعض التساؤلات النظرية النَقْدِيَة.*** وأستغلّ مناسبة هذا الحوار لِمُحَاوَلَة فَحْصِ بعض مناهجنا كَمُنَاضِلِين، و***مراجعة طُرُقِنَا في التفكير***. وقد كتب كَارْل مَارْكِس: «يحتاج المُرَبِّي هو نفسه إلى إعادة التربية»[1]. ومن بين أَهَمّ مَهامِّنَا، مُراجعة

(1) كارك ماركس، في أطروحته رقم 3 حول فُويِرْبَاخْ (Feuerbach) (K. Marx

وتدقيق بعض المناهج التي نفكّر بها. هل هي سَلِيمة؟ هل هي أَيْدِيُولُوجية؟ هل هي مُجرّد آراء شَائِعة، أو مبادئ مُكَرَّرَة، أو قَوَالِب جَامِدَة (stéréotypes)؟ هل هي أفكار مُسْبَقَة؟ هل هي مُعتقدات غير مُثْبَتَة؟ إلى آخره. ***وغَايَتُنَا هي إعادة الاعتبار إلى العَقْل، وإلى الحِسّ النقْدِي، وإلى العُلُوم الدَّقِيقة.***

وفي عصرنا الحديث، يتواجد ***الصِّرَاع الطَّبَقِي*** في كلّ مجالات المُجتمع. لكن وسائل دِعَايَة النظام الرأسمالي القائم تُخْفِي (masquer) مُعْظَم مظاهر الصِّراع الطبقي، أو تُمَوِّهُهَا (camoufler)، أو تَنْكَرُها (nier)، أو تُؤَوِّلُها (interpréter). ولَا تقُوم قِوَى اليسار بما فيه الكفاية بِتحليل الأحداث المُجتمعية، بِهدف إِبْرَاز مظاهر الصراع الطبقي فيها. وهذا نَقْصٌ جَسِيم.

ومن زاوية ***المُعتقدات،*** ينقسم ***الفكر البشري*** إلى نوعين: ***نوع أوّل مُعَوَّق،*** يعجز على رؤية الواقع كما هو. وَيُضْفِي ***معتقداته*** الخَيالية المُسْبَقَة على الواقع. فلا يرى في الواقع سوى ***مُعتقداته*** الخيالية المُسْبَقَة، التي تُهَيْمِنُ على عقله. فَتَتَأَكَّدُ وتَتَرَسَّخ لَدَيْه ***معتقداته*** الخيالية. فَيُصْبِحُ هذا العقلُ يدور في «حَلْقَة مُفْرَغَة» (cercle vicieux). ويعجز هذا النوع الأوّل من الفِكْر على التقدّم. ***ونوع ثان من الفِكْر، سَلِيم نِسْبِيًّا،*** يَنطلق من الواقع المَلْمُوس، وَيُحَلِّله، ويَنْتَقِدُه، ويجتهد باستمرار لِكَيْ يُحَرِّر نفسه من المُعتقدات الخيالية المُسبقة. ويجتهد لكي يرى الواقع كما هو. أي ***بدون مُعتقدات مُسبقة.*** فَيَغْدُو هذا الفكر قادرًا على التقدم.

ومن زاوية التعامل مع ***الرأسمالية،*** ينقسم أيضًا الفكر البشري إلى نوعين: ***نوع أوّل مُعَوَّق،*** يخضع للرأسمالية، ويُنَاصِرُها، رغم مَا يَرَى

et F. Engels, Œuvres Choisies en trois volumes, Tome 1, Editions de Progrès, Moscou, URSS, 1976, p.9).

فيها من جَرائم نَسَقِيَة (systémique)، أو مُجتمعية، أو مُمَوَّهَة (camouflés). ***ونوع ثان سليم نِسْبِيًّا***، يَتَجَرَّأُ على نقد الرأسمالية، وعلى فضح جَرائمها المُجتمعية، وعلى الطُموح إلى التحرر منها.

والفكر الماركسي هو من أَهَمّ المدارس الفكرية، النَّادِرَة جِدًّا، التي تنتقد الرأسمالية، وَتُقَدِّم نَقْدًا شَاملا لِمُجمل المُجتمع الرأسمالي (الوطني، والعالمي). لذلك نُلاحظ أن مُجمل أنصار الرأسمالية يَتَوَاطَؤُون على محاربة الفكر الماركسي.

وفي مجال نِقَاش "الماركسية"، أو "الاشتراكية"، يبقى الحِيَّادُ شبه مُستحيل. فكل موقف سياسي يناصر بالضَّرورة مصالح طَبقة مُجتمعية مُحَدَّدة. والعُنْصُر الأساسي الذي يُحَدِّدُ مَوْقِفَ أيّ شخص، في أية قضية، هو خُصُوصًا مَوْقِعُه في البِنْيَة الطَبَقِيَة للمُجتمع. (الشيء الذي لا ينفي وجود حالات نادرة مُخالفة، أو استثنائية، أو مُنَاقِضَة).

والعامل السياسي الأساسي الذي يُمَيِّز أيّ شخص عن شخص آخر، ليس هو لِبَاسُه، أو شَواهده، أو مِهنته، أو رَصيده المالي، أو ما شابه ذلك، وإنما هو **نَوْعِيَةُ المَنَاهِج التي يُفكّر بها، وَنَوْعِيَة المَنَاهج التي يَشْتَغِلُ بها.**

وهدفي في الكتاب الحالي، ليس هو عرض مواقفي الشخصية، أو كسب أَنْصَار سيَّاسيِّين. وإنما هدفي، هو الاقتراب أكثر ما يمكن من الحقيقة، وعرض أهمّ المُعْطَيَات، وطرح الأسئلة الضرورية، ولو كانت مُحْرِجَة، وترك المجال للقارئ لكي يتساءل هو نفسه، ولكي يُحاول القارئ، بِحُرِّيَة، بَلْوَرَةَ مواقفه الشخصية. وبعد ذلك، إن اِتَّحَدْنَا على أساس حقائق عقلانية، فسيكون اِتِّحَادُنا أكثر صَلَابة، وَفَعَالِيَة.

والغاية من المقال الحالي، ليست هي التعريف بالماركسية. بَلْ يَفْتَرِضُ المقال الحالي أن القارئ يَعْرِف حَدًّا أَدْنَى من الأطروحات الأساسية في النظرية الماركسيةَ. وهدف المقال الحالي هُو نِقَاش

التساؤلات التّالية : «لِمَاذَا اِنْهَار الْاِتِّحَاد السُّوفْيَاتِي» ؟ وَ«هل مَا زَالت الماركسية صالحة بعد انْهِيَار الاتحاد السُّوفياتي؟». وَيَفْتَرِضُ المقال الحالي في القَارِئ أنه يُدْرِكُ نِسْبِيًّا بعض المَحَطَّات في تاريخ الثَوَرَات، في كلّ من رُوسيا والصّين. وَأُنَبِّه إلى أن الأفكار المعروضة في المقال الحالي ليست كلّها من ابتكاري. وأكتفي بالإشارة، في بعض المواقع من المقال، إلى مصادر بعض هذه الأفكار. وفي مواقع أخرى كثيرة، استعمل تِلْقَائِيًّا أفكارا ماركسية، دون أن أشعر بالحاجة إلى التذكير بمصادرها، لأنها أصبحت جزءًا عضويًّا مِن مَنَاهِجِي الشخصية التي أفكّر بها. ودون أن أنسى أنه بإمكاني، أنا أيضًا، أن أُسِيءَ فهم بعض الأطروحات الماركسية، فأظنّ أن فكرة مُحَدَّدَة ماركسية بينما هي مخالفة لِمَارْكِسِيَة مَارْكس.

وجرت العادة، في بعض البلدان، وفي بعض أوساط المناضلين الماركسيين، بِاتِّهَام كل مناضل يراجع بعض المُعتقدات "الاشتراكية"، أو "الماركسية"، بِتُهْمَة «التَحْرِيفِيَة»، أو «الرِّدَة»، أو «التَرَاجُع»، أو «اليَمِينِيَة»، أو «التْرُوتْسْكِيَة»، إلى آخره. ورغم ذلك، سأحاول مراجعة بعض الأفكار أو المبادئ الماركسية، دون مُبَالَاة بمثل هذه الاتهامات. ***والمُهم هو البَحْثُ الجَمَاعِي عن الحقيقة الثَوْرِيَة***، دون الاكتراث بما يقوله المُعَلِّقُون. وما يظهر اليومَ "تَحْرِيفِيًّا"، أو خَاطِئًا، يمكن فعلاً أن يبقى خاطئا، كما يمكن أن يصبح غداً صَحِيحًا، وَمَقْبُولاً، أو بديهيا للجميع. بالإضافة إلى أنه لَا يُعقل تجريم الآراء المخالفة. وشعارنا المُمَيِّز هو : ***حَيْثُمَا كُنَّا، نقوم دائمًا بواجباتنا كاملة، ولو تَهَرَّبَ الآخرون من القيام بواجباتهم.***

2) هَلْ كُلّ نَـقْد لِاسْطالِين هو دِعَايَة إِمْبِرْيالِيَة ؟

يَرْفُضُ بعض المناضلين أَيَّ نَقْد مُوَجَّه لِلْقائد جُوزِيف اسْطَالِين (J. Staline). وَرَغْم أن هؤلاء المناضلين هم معروفون بِكَوْنِهِم ثوريّين، وَصَادِقِين، أو مُخلصين، فإنهم يُدَافِعون بشكل مُطلق عن اسطالين، وَعن مُجمل سِيَّاسَاتِه، وَفِي مُختلف الميادين. وَرَغم أننا نَخْشَى أن تُؤَدّيَ إِثَارَة هذا الخِلَاف السياسي حول تَقْيِيم اسْطَالِين إلى خِصَام، أو إلى فِرَاق، مع هؤلاء المناضلين المُنَاصِرِين لِاسْطَالِين، فإن الواجب الثوري يَفْرِضُ علينا أن نَبُوحَ بِمَا نَعْتَبِرُه هو «الحقيقة الثورية». وَلَوْ أن هؤلاء المناضلين المُنَاصِرِين لِاسْطَالِين قَدْ يَغْضِبُون، أو قَدْ يَصِفُونَنَا بِالتَحْرِيفِيَة، أو بِاليَمِينِية، أو بِالتَبَعِيَة لِلدّعَايَات الْإِمْبِرْيَالِيَة.

وَيُفَسِّر هؤلاء المناضلين كلّ نَقْد مُوَجَّه إلى ج. اسْطَالِين بِـ «نَظَرِيَّة المُؤَامَرَة». وَيَظُنُّ هؤلاء المناضلين أن «كلّ شخص يَنْتَقِدُ اسْطَالِين هو ضَحِيَة لِتَأْثِير الدعَايَات المُخْتَلَقَة، وَالمُرَوَّجَة، من طَرَف "وَكَالَة المُخَابَرَات الأَمْرِيكِيَّة (CIA)"، ومن طرف أَبْوَاق الدعَايَات الْإِمْبِرْيَالِيَات الغَربية».

وَتَجْدُرُ الإشارة إلى أن جزءًا هامًّا من وثائق الأرشيف القديم للاتحاد السّوفياتي قَد رُفِعَت عنها السِرِّيَة منذ سنوات 2000، وأصبح الوصول إليها مُتَاحًا لِلمؤرّخين، وللباحثين. وَبعض هته الوثائق السِرِّيَة الدّاخلية المُحَرَّرَة، تُؤَكّد عَدَدًا من الْاِتِهَامَات المُوَجَّهَة إلى ج. اسْطَالِين، وَإلى تِيَّاره السياسي.

لكن المُدَافِعِين بشكل مُطلق عن اسْطَالِين، يَظُنُّون أن «كل الوَثَائِق التي تَصِلْنَا (عن الاتحاد السُّوفياتي)، والتي تَصُبُّ في اِتِّجَاه نَقْد اسْطَالِين، هي وَثَائِق مُزَوَّرَة، وَمَخْدُومة مِن طرف أجهزة الدعَايَة الْإِمْبِرْيَالِيَة». وَيَعْتَقِد أنصار اسْطَالِين، أن «هدف كل الوثائق النَّاقِدَة لِاسْطَالِين، هو تَحْرِيف التَجَارِب الاشتراكية، وَتَشْوِيه حَقَائِقِهَا الثورية، ومحاربة الفِكْر الشِيُوعِي».

وحسب تجربتي، لاحظتُ، في كثير مِن الحَالَات، أنه مِن شِبْه المُسْتَحِيل إِقْنَاع هؤلاء المناضلين الذين يُفَسِّرُون كلّ نَقْد لِـ اسْطَالِين بِـ «نَظَرِيَة المُؤَامَرَة». وَمَهْمَا تَعَدَّدَت وَتَنَوَّعَت الكُتُب، والدرَاسَات، والمَقَالَات، والمَرَاجِع، والحِوَارَات، التي تَنْتَقِد اسْطَالِين، أو تُدينُه، فإن هؤلاء المناضلين المُنَاصِرِين لِـ اسْطَالِين، غَالِبًا مَا لَا يَقْرَأُون هذه الوَثَائِق، وَلَا يُمْعِنُون النَظَرَ في تَفَاصِيلِهَا، وَلَا يُفَكِّرُون في تَحَالِيلِهَا، وَلَا يَفْحَصُون حُجَجَهَا. بَلْ يَرْفُضُ هؤلاء المُناصرين لِاسْطَالِين كلّ مَضَامِين هذه الوثائق النَاقِدَة، وذلك بِشكل شَامِل، وَتَامّ، وَجَازِم، وَمُطْلَق، وَنِهَائِي.

وَمِن بين أهمّ نُقَط الضُّعْف في تَفْكِير أَنْصَار اسْطَالِين، أنهم يَحْمِلُون تَصَوُّرًا مِثَالِيًّا عن اسْطَالِين، وَعَن تِيَّارِه السياسي. حيثُ يَظُنُّون أن اسْطَالِين هو قائد ثوري عَظِيم، وَأَنَّ جميع أُطْرُوحاته، وَقَرَارَاتِه، وَسُلُوكِيَّاتِه، طِوَال حُكْمِه لِلْإِتِّحَاد السُوفْيَاتِي بين سنتي 1922 و 1953، كانت كلّها سَلِيمَة، وَثَوْرِيَة، وَرَائِعَة، وفي مصلحة الشّعب، وفي خِدمة الثورة الاشتراكية. وهذا التَصَوُّر يَتَنَاقَض مع نَظَرِيَة الماركسية هي نفسها في مَجَال المَادّيَة الجَدَلِيَة، وَالمَادّيَة التاريخية. وَيَتَنَاقَض أنصار اسطالين مع المبدأ الجَدَلِي القَائِل بِأن «كلّ شيء يَتَضَمَّن تَنَاقَضَات دَاخِلِيَة»؛ وأن «كلّ شيء يُمكن أن يَتَحَوَّل إلى نَقِيضِه، في ظُرُوف خَاصَّة». وَلَا يَفْهَم أنصار اسْطَالِين إِمْكَانِيَة تَحَوُّل اسْطَالِين

الثوري المُخْلِص إلى مُسْتَبِدّ، أو إلى مُسْتَلَب، أو رَأْسَمَالِي، أو مُفْرِط في القَمْع، أو حتّى قَاتِل، الخ. وَلَا يُدْرِكُ كَثِيرُون من بَيْن أنصار اسْطَالِين أن ***صَيْرُورة بِنَاء الْاِشْتِرَاكِيَة، وَعَمَلِيَة إلغاء أُسُس وُجُود الْاِسْتِغْلَال الطَبَقِي***، أو عَملية اِنْقِرَاض الدولة، سَتَتَطَلَّبُ بِالضَّرُورَة وَقْتًا طَوِيلًا، وَسَتَخْتَرِقُهَا صِرَاعَات سيّاسية مُعَقَّدَة، وَسَتَتَخَلَّلُهَا حَتْمًا أَخْطَاء سِيَاسِيَة، أو اِنْتِكَاسَات جُزْئِيَة، أو رُجُوع مُؤَقَّت إلى الوَرَاء، وذلك حَسب الظُرُوف المُجتمعية، وَالجُغْرَافِيَة، والتَاريخية، لكلّ مُجتمع مُحدّد.

وَكُلُّ شَخْص يُؤْمِن بِأَنّ اسطالين كان دَائِمًا على صَوَاب، وَكُلُّ شَخص يَرْفُضُ نَقْد جُوزِيف اسْطَالِين وَتِيَّارِه السِيَاسِي، سَيَظَلُّ عَاجِزًا على فَهْم أَسْبَاب اِنْهِيَّار الْإِتِّحَاد السُّوفْيَاتِي.

وَأُقَدِّمُ فيما يَلِي بعض الأَمْثِلَة على النَقَائِص المَوْجُودَة في تَفْكِير أَنْصَار اسْطَالِين :

ـ يَنْكُرُ أنصار اسْطَالِين أن اسطالين مارس دِيكْتَاتُورِيَّتَه الشخصية، وليس «دِيكْتَاتُورِيَة البْرُولِيتَارِية».

ـ أَثْنَاء عَهْد اسْطَالِين، كانت الطبقة العاملة مَسُودَة، بَدَلًا مِن أن تَكُون سَائِدَة، عبر مَجَالِس سُوفْيِيتَات العُمَّال والفَلَّاحِين المُسَلَّحِين.

ـ يُكَذِّبُ أنصار اسْطَالِين أن لِينِين كَان يَتَحَفَّظ على وُصُول اسْطَالِين إلى مَوْقِع المَسْؤُولِية الرَّئِيسَة في الحزب.

ـ يَنْفِي أنصار اسطالين أن اسطالين أَمَرَ بِقَتْل لِيُّون اطْرُوتْسْكِي (Léon Trotski)، وَأَمَرَ بِتَصْفِيَة جُزْء هَامّ مِن أعضاء اللَّجْنَة المركزية لِلْحِزب الشيوعي التي تَرَكَهَا افْلَادِيمير لِينِين.

ـ يُكَذِّبُ أنصار اسطالين، أن اسطالين وأنصاره، كانوا يَفْرِضُون الْإِجْمَاع السياسي القَسْرِي داخل الحِزب، وَداخل الشّعب. وَأنهم لم يَكُونُوا يَسْمَحُون بِوُجُود تَفَاوُتَات في الآرَاء السياسية داخل الحزب، وداخل الشّعب.

ـ يَنْكُرُ أنصار اسطالين أن هذا الأخير كان يَقْمَع المُعَارِضِين السياسيّين، سواءً كانوا مُعَارِضِين حَقِيقِيّين، أم مُفْتَرَضِين حَسب اِتّهَامَات المُخابرات.

ـ يَنْكُرُ أنصار اسطالين، أن اسْطَالِين وَأَنْصَارُه، مَارَسُوا الاعتقالات الجماعية، والمحاكمات السياسية المَغْشُوشَة، والاضطهاد في مُعسكرات «الجُولَاجْ (Goulag)».

ـ يَنْفُون أن اسطالين فَرَّطَ في التَحَالُف الطَبَقِي الْاِسْتْرَاتِيجِي بين البْرُولِيتَارْيَا والفَلَّحِين.

ـ لَا يَعْتَرِف أنصار اسْطَالِين بِأن تِيَّار اسطالين شَيَّد الرَّأْسَمَالِيَة الْاِحْتِكَارِية لِلدّولة، وليس الاشتراكية.

ـ لَا يَقْبَل أنصار اسطالين أن هذا الأخير قَوَّى بِيرُوقْرَاطِيَة الحزب، وَمَنَحَهَا اِمْتِيَّازَات، وَحَوَّلَهَا إلى صِنْف مِن البُورْجْوَازِيَات الصغيرة والمُتَوَسِّطَة، تَسْتَفِيد من اِسْتِغْلَال العُمّال والفَلَّاحِين، وَتُسَانِد اِسْتِبْدَاد الزَّعِيم اسْطَالِين.

وَلَائِحَة الانتقادات المُوَجَّهَة إلى اسْطَالِين طَوِيلَة جِدًّا. وَتَوْضِيح كلّ واحدة من بين هذه الانتقادات، يتطلّب العَشَرات من الصّفحات. فَهَلْ يُعْقَل أن تَكُون كلّ هذه الانتقادات مِن اِخْتِرَاع "وكالة المُخابَرَات الأمريكية CIA" ؟ وهل يُعْقَل أن يكُون أساس الْاِتّهَامَات المُوجَّهَة مِن طرف "الدعَايَات" الْإِمْبِرْيَالِيَات الغَرْبِيَة إلى اسْطَالِين هو مُطَالَبَتُه بأن يكون ثوريًّا أَكْثَرَ مِمَّا كان، وَأن يكون شِيُّوعِيًّا أكثر مِمَّا كان ؟ هذا مُسْتَبْعَد. وَلَا يُحْتَمَلُ وُجوده سِوَى في إطار التَصَوُّرَات التي تَعْمَل بِـ «نَظَرِيَة المُؤَامَرَة».

3) لِمَاذا انْهَارَ الإِتِحَادَ السُّوفْيَاتِي؟

خلال قرابة سنة 1991، ***انهارت فجأةً منظومة "الاتحاد السوفياتي"*** (أو اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية) (URSS). ولم يسبق لأي أحد أن توقّع تَوْقِيت وَكَيْفِيَّة هذا الانهيار. ثمّ انهارت الأنظمة السياسية الجَارَة التي كانت حَلِيفَة له في إطار "حِلْف وَارْسُو" (Pacte de Varsovie). ثم الْتَحَقَ بعض هذه الأنظمة بالحِلْف العَدُوّ، الذي هو الحِلْفُ العَسْكَري للإِمْبِرْيَالِيَات الغربية، أي "حِلْف النَاتُو" (Otan, ou Nato). وذلك لأسباب مُزمنة ومُعقّدة، داخلية وخارجية. وحتى ***يُوغُوسْلَافْيَا الاشتراكية*** التي كانت نموذجا عَالَمِيًّا لِتَعَايُش وتَضَامن شُعوب مختلفة، تَشَتَّتَت، وسَقَطَت شعوبُها في حروب طَائِفِيَة مُدَمِّرَة، أساسها الفكر اليَمِينِي المُتطرّف، أو الغَرَائِز الرَّأْسَمَالِيَة المُفْتَرِسَة، أو المُعْتَقَدَات القَوْمِيَة المُتَعَصِّبَة، أو النَزْعَة الوطنية الضَيِّقَة، أو الكراهية العُنْصُرِيَة الدَّفينة. واعتبرَ كثير من الكُتَّاب فجأةً ***«انهيار الاتحاد السُّوفياتي» بمثابة امتحان لِفَحص مَدَى صِحَّة نظرية الماركسية.*** واسْتَنْتَجَ البعض أن «انهيار الاتحاد السوفياتي يُثْبِتُ خطأ النظرية الماركسية». وأن «الطموح إلى الاشتراكية هو مجرد حُلْم طُوبَاوِي (utopique)». بينما هذا الانهيار للاتحاد السوفياتي هو في العُمق امتحانٌ لسلامة عُقُول كل الفاعلين السياسيين.

وقد طرح بعض المثقفين (مثل فؤاد النمري)، ***ضِمْنَ الأسباب المُفَسِّرَة لانهيّار الاتحاد السوفياتي، أن «جوزيف اسطالين، مَات***

ضحيّةً لِتَسَمُّمِه من طرف بعض رفاقه». ويَفْتَرِضُ هؤلاء المثقفين أن «اِغْتِيَّال جوزيف اسطالين حَرَمَه مِن إمكانية اِسْتِكْمَال إنجاز مهام الثورة الاشتراكية بالمَنْهَج الصَحِيح». وأن «تصفيّة جوزيف اسطالين، وَبِاعْتِبَارِه أكبر ماركسي لِينِينِي في عصره، وَغِيَّابُه من قيادة الحزب الشيوعي السوفياتي، ترك فراغًا كبيرًا في قِيّادة الثورة، وَفتح إمكانيات كبيرة لانحراف الثورة الاشتراكية». وهذا الطَرْح، يُثِير الملاحظات التالية: أ) لا أتوفَّرُ على حُجَج كافية تُثْبِتُ حقيقةَ تَسَمُّم جوزيف اسطالين. ب) هذا التَسَمُّم مُسْتَبْعَد. لأن هَيْمَنَة جوزيف اسطالين، واستبداده، وَعُنْفُه، كان يُثِير ما يكْفِي من الرُّعْب، لَدَى المُعارضين، ولَدَى المُخَالِفِين، لِكَي لَا يَجْرُأَ أحدٌ من الأشخاص المُقَرَّبِين مِن اسطالين على التفكير في مُحاولة اغتيّاله. ت) إذا لَجَأَ بعض رفاق اسطالين إلى تَسْمِيمه لِلتَخَلُّص منه، فهذا يُؤكّد أن أسلوب الاغتيالات، والتصفيّات، كان أسلوبًا مَعْمُولًا به، كَمَنْهَج لِمُعَالَجَة التناقضات، سواء داخل المُجتمع، أم داخل الحزب الشيوعي البلشفي. ث) يُؤَكِّد هذا الطَرْح المذكور أن جوزيف اسطالين كان يستعمل تصفية المعارضين السياسيّين. وَيُؤَكِّد أن مَنْهَج اللُّجُوء إلى مُمَارسة الصراعات السياسية، والفِكْرِيَة، والأيديولوجية، وحسمها بانتخابات ديموقراطية داخل الحزب الشيوعي الحاكم كان أمرًا غير مَعْمُول به، وغير مَوْثُوق فيه. ج) ووُجود مَنهج مُعالجة التناقضات الداخلية بِالتَصْفِيَّات الجسدية داخل الحزب الشيوعي الحاكم في الاتحاد السوفياتي يُؤكِّد أن هذا الحزب كان بعيداً جدًّا عن المناهج الماركسية الثورية، وعن الأساليب الاشتراكية، وذلك سواءً قَبْل مَوت جوزيف اسطالين، أم بعد تَسْمِيمِه المُفْتَرَض، أو بَعد قَتْلِه. ح) أطروحة تَسْمِيم، أو قتل، جوزيف اسطالين، لا تُفسّر انهيّار الاتحاد السوفياتي، وإنما هذا الاغتيّال المُفترض يَحتاج هو نفسه لِمَا يُفَسِّرِه.

3.1 - هل انهيار الاتحاد السُّوفياتي يُبَرِّر الشَكَّ في الماركسية؟

بعد الانهيار المفاجئ للاتحاد السوفيتي في عام 1991، لم يَعُد أحد قادرًا على مُقاومة هَيْمَنَة الولايات المتحدة الأمريكية، وتحالفها العسكري في "الناتو" (NATO). ولم يَعُد مجال تدخل "الناتو" هو فقط منطقة شمال المُحِيط الأطلسي، بل إمْتَدّ إلى العالم كله. وكل نظام سياسي ذي تَطَلُّعَات تَحَرُّرِيَة أو اشتراكية، تَتِمُّ محاربته بكل الوسائل، القانونية وغير القانونية. بِمَا فيها سِلَاح «العُقُوبَات الاقتصادية»، وَافْتِعَال الحُرُوب بِالوَكَالَة، وَتَحْرِيك المِيلِيشْيَات الإسلامية الإرهابية، التي تُرِيد الإمبرياليات الغربية من خلالها سَحْق البَلَد المُقَاوِم، أو الثَّائِر. وتَفْرِضُ وسائل الإعلام الرأسمالية، المُهيمنة عَالَمِيًّا الحقائقَ الجديدة المنتصرة: «الماركسية خاطئة»، و«الاشتراكية هي مُجرّد يُوتُوبْيَا»، و «الرأسمالية هي النموذج الاجتماعي الوحيد والأَبَدِي القابل للحياة»!

وبعد «انهيّار الاتحاد السُّوفياتي»، بدأ بعض "المُتَكَلِّمِين" يُبَشِّرُون بِـ «نِهَايَة التاريخ». وأغلبية المواطنين، والنشطاء، والاقتصاديين، والأحزاب السياسية، وحتى بعض الدول، أذهلتهم هذه الأحداث المُحيّرة، وفقدوا بُوصَلَاتِهم النَظَرية. فَضَعُفَ التفكير النقدي، و أصبحت البدائل هَزِيلة، أَو نَادرة. وأصبحتْ النقاشاتُ المتناقضةُ قَليلة، أو مُنعدمة. وتَضَائَلَت كذلك أشكال المقاومة، وحريات التَعْبِير. إلى درجة أن بعض الأحزاب السياسية (مثل حزب الاتحاد الاشتراكي للقوات الشعبية، وحزب التقدّم والاشتراكية، وحزب الاشتراكي المُوَحَّد)، وحتى بعض الدول (مثل الجزائر، ومصر)، الذين

كانت أسماءهم الرَّسْمِيَة تحمل في الماضي صِفَة «الاشتراكي»، تَحَوَّلُوا، وَدُونَ سابق إنذار، إلى مُؤيدين للرأسمالية، أو مُعادين للماركسية، أو مُعارضين للاشتراكية، أو غَدَوْا مُحافظين، وأحيانًا حتّى رجعيين. واليوم، لم تَعُد الحقائق القديمة واضحة. بَلْ تَجب إعادة النظر في كل شيء. كما تَجب مُرَاجَعة كل شيء، وإِعَادَة التفكير في كل الأُمُور، عَبْرَ مِصْفَاة النَقْد الثوري.

فورًا بعد انهيار الاتحاد السوفياتي، ظهرت لدى بعض المناضلين "الاشتراكيين"، المُنتشِرين عبر العالم، تساؤلاتٌ، ثم شُكوكٌ، ثم حِيرَة نظرية: هل انهيار الاتحاد السوفياتي يعني خطأ الماركسية؟ هل فَشِلت الاشتراكية؟ هل الاشتراكية هي حُلم مُستحيل؟ وإن كان الطموح إلى الاشتراكية مجرّد حُلْم طُوبَاوِي، فَهَل ستبقى الرأسمالية هي قَدَرُنَا الأَبَدِي؟ هل انهيار الاتحاد السوفياتي هو نتيجة فقط لارتكاب بعض الأخطاء على مستوى التطبيق، أو التَدْبِير؟ لماذا لم يَبْقَ في العالم كله ولو نموذج واحد مُرْض لِنظام الاشتراكية؟ هل ما يجري في بعض البلدان مثل الصّين، أو كُوبَا، أو كُورْيَا الشمالية، هل هو اشتراكية حقيقيّة ؟ لماذا لم تَنْجَح بما فيه الكفاية حتّى تجارب بناء «الاشتراكية الديمقراطية» (la sociale démocratie) البرجوازية في بلدان أوروبا الغربية المتقدّمة ؟ هل أحزاب اليسار تفهم اليومَ لماذا انهارت تجربة بناء الاشتراكية في الاتحاد السوفياتي؟ هل مَا زَال مُعظم مناضلي أحزاب اليسار يُؤْمِنُون حقيقةً بالثورة المُجتمعية، وبالماركسية، وبالاشتراكية؟ هل توجد كِتَابَات ومراجع نظرية (باللغة العربية) تقدّم ما يكفي من الشُّرُوح لِتفسير أسباب انهيار "الاتحاد السّوفياتي"؟ هل القِوَى السياسية التي تُدافع عن مشروع تشييد «الاشتراكية» تَتَوَفَّرُ على ضَمَانَات لِتَلَافِي تِكْرَار الأخطاء، أو الانحرافات، التي وقعت في الاتحاد السوفياتي، أو في الصّين، أو في غيرهما؟

والمثير للانتباه أننا لَاحَظْنَا بِسرعة في ميدان النضال الثوري، أن المناضلين الاشتراكيين القُدامَى، الذي استنتجوا من "انهيّار الاتحاد السوفياتي" أن النظرية الماركسية أصبحت "مُتَجَاوَزَة"، تحوّلوا (بدون وَعْي ولَا تخطيط) إلى مناصرين للرأسمالية، ثم أصبحوا هم أنفسهم "مُتَجَاوَزِين"، على كُلّ المُستويات النضالية والحزبية والسياسية والنظرية. بِمَعْنَى أنه، حتّى وَلَو اِفْتَرَضْنَا وُجود بعض النَقَائِص في النظرية الماركسية، فإنه في حالة تَغْيِيب النظرية الماركسية، لَا تَبْقَى سوى الرأسمالية الفَجَّة كَمنظومة مُطلقة تُسيطر على كلّ شيء.

يتطلَّب تفْسِير انهيار الاتحاد السُّوفْيَاتِي تَظَافُرُ جُهُود عِدّة عُلَمَاء بَاحِثين. ويحتاج إلى كِتابة عدّة كتب مُعَمَّقَة عن تطوّر الصراع الطبقي في الاتحاد السُّوفياتي. لأن ***الأسباب التي تُفسّر انهيار الاتحاد السوفياتي، لَا تُوجد في تفاصيل النظرية الماركسية، وإنما تُجود في تفاصيل المُمَارَسَة، أي في تفاصيل تَطَوُّر الصراع الطبقي في الاتحاد السوفياتي.*** بل يمكن أن نجد في النظرية الماركسية، هي نفسها، ما يكفي من ***الأدوات النظرية*** لتقْيِيم وَنقْد تجارب الاتحاد السوفياتي والصّين.

وكانت ***كُتب ودراسات شَارْل بِيطَلْهَايِمْ*** (Charles Bettelheim)[2]، حول الاتحاد السوفياتي [وكذلك حول الصّين]، مُعمّقة، ومُفيدة. وقد دَرَس شَارْل بِيطَلْهَايْم فيها إشكالات بناء الاشتراكية، ومظاهر ***الصراع الطبقي،*** وتفاصيل تطوّر قضية التحالف بين العمال والفلاحين، إلى آخره. لكن دراسات شَارْلْ بِيطَلْهَايْمْ حَدَثَت قُبَيْلَ انهيار الاتحاد

(2) Parmi les ouvrages (en français) de Charles Bettelheim: La planification soviétique; L'économie soviétique; La construction du socialisme en Chine; Révolution culturelle et organisation industrielle en Chine; Les luttes de classes en URSS (en 3 grands tomes); L'industrialisation de l'URSS dans les années 1930; Questions sur la Chine après la mort de Mao Tsé-toung.

السوفياتي بِبِضْعَة سنوات. وبالتالي، فإشكالية احتمال انهيار الاتحاد السوفياتي (وَلَوْ كَفَرَضِيَة نظرية) لم تكن حاضرة بما فيه الكفاية في أبحاث شَارْلْ بِيطَلْهَايْمْ. لأن هَمَّ بِيطَلْهَايم كان هو دراسة الماضي والحاضر، وليس التَنَبُّؤْ بِالمُستقبل. ورغم أنني لم أستطع الوصول سوى إلى جزء قليل من أعمال بِيطَلْهَايْم، فَقَد لَاحظتُ فيما تَوَصَّلْتُ إليه من بين أبحاث بِيطَلْهَايْم، أنها تحتوي على تفاصيل مُعمَّقة. وقد غَدَت كُتب شَارل بِيطَلهَايْم مَرْجِعًا أَسَاسِيًّا لِفَهم تفاصيل ما جَرى في الاتحاد السوفياتي.

وفي المقال الحالي، لا أقدر على تناول تفاصيل التَطَوُّر التاريخي لِلصِرَاع الطبقي في الاتحاد السوفياتي. فَأَكْتفِي بالإشارة إلى بعض العَنَاوِين الكبيرة، أو إلى بعض الأفكار الرئيسية. وفي العُمق، فإن ***موضوع الخلاف***، والذي هو مسألة «كيف نتحرّر من الرأسمالية؟»، أو «كيف نُشَيِّدُ الاشتراكية؟»، ليس موضوعًا مُحَايِدًا (neutre)، بل يبقى هو نفسه مَجَالًا للصراع الفكري، ***ومجالًا للصراع الطبقي***. وعليه، فَمُعْظَم الاحتمالات النظرية (حول إشكالية بناء الاشتراكية)، بما فيها احتمال الفشل، أو النجاح، تبقى وَارِدَة.

3.2 - هل تُوجَدُ دراسات باللغة العربية تُفَسِّر انهيار الاتحاد السوفياتي؟

قبل سنة 2012، لم نَعْثُر في ***البلدان الناطقة باللغة العربية*** على دراسات تفسّر ***"انهيار الاتحاد السوفياتي"***. وبعد مجيء المناضل

رِزْكَارْ عَقْرَاوِي[3] (وهو من مناضلي اليسار في كُرْدِسْتَان العراق)، أَقْدَمَ مع بعض أصدقاءه على تشييد الموقع الإلكتروني المُسَمَّى: ***"الحِوَار المُتَمَدّن"*** (http://www.ahewar.org/debat/nr.asp)[4]. وتطوّر هذا الموقع الإلكتروني بسرعة. وأصبح العَدَد الْإِجْمَالي لِزُوَّارُه يُعَدُّون بالملايين. وغدى أكبر موقع إلكتروني ثقافي في العالم يستعمل اللغة العربية. وبِمُنَاسَبة الذكرى المِئَوِيَة لانطلاق ثورة أكتوبر 1917 في رُوسْيَا، نشر هذا الموقع عددا مُهِمًّا من مَقالات ودراسات مُناضلين مُختلفين، شَارَكَت في محاولة تحليل ***"ثورة أكتوبر 1917"***. ومن بين الأسماء التي ساهمت في هذه المجهودات: سمير الخطيب، وفلاح أمين الرهيمي، وماهر الشريف، وسلامة كيلة، وأحمد الليثي، وملهم الملائكة، وجيلبر الأشقر، وجمال البزويقي، وسعيد قبيلات، ***ومئات الكُتّاب الآخرين***. وفاق عدد المقالات (حول ثورة أكتوبر 1917) ***300 مقال***. وَقَدَّمَ جيلْبِير الأشقر ملخّصا لأهم كتاب حديث، صَادِر ***بالإنجليزية***، عن الثورة الروسية، كَتبه المُؤَرِّخ الانجليزي استِيفَنْ أَنْتُونِي اسْمِيثْ[5].

---

(3) رِزْكَارْ عَقْرَاوِي هو أوّل من طرح فكرة "اليسار الإلكتروني" (E-Left). وسَانَدَ "عدم التمسك الحرفي بالنصوص الماركسية". ونَادَى بإحداث: "يسار يستند إلى التطور المعرفي والعلمي العقلاني، وإلى الفكر اليساري والإنساني، وقادر على الاستفادة، واستخدام التطور العلمي، والتكنولوجي، في عمله النظري، والسياسي، والتنظيمي، والإعلامي، والثقافي، والجماهيري. ويطرح سياسات واقعية، وينطلق من قدراته، ومن قدرات الفئات التي يدافع عنها، ومن درجة تطور المجتمعات".

(4) يُعَدُّ مُجْمَل زُوَّار مَوْقِع "الحِوَار المُتَمَدِّن" بالملايين. ويبلغ العدد الإجمالي للمواضيع المَقْرُوءة في "الحوار المُتمدّن" أكثر من 3 مِلْيَارَات. ويَفُوقُ عدد المواضيع المُرسلة إلى "الحوار المُتمدّن" 750 ألفً موضوع. ويبلغ عدد كَاتِبَات وكُتَّاب "الحوار المُتمدّن" 623 32 كاتبة وكاتب.

(5) كِتَاب: اسْتِيفَنْ أَنْتُونِي اسْمِيثْ، "رُوسْيَا في ثورة: إِمْبْرَاطُورِيَة في أزمة، 1890-1928"، باللغة الإنجليزية.

وبفضل هذه الاجتهادات، أصبح موقع "الحوار المتمدّن" يوفّر لِزُوّاره، ولقرّائه، مجموعة غَنِية نِسْبِيًّا من المقالات أو الدراسات الهامّة، باللُّغَة العربية، حول ثورة أكتوبر 1917. (ولَوْ أن نسبة المقالات التي تَطَرَّقَت للموضوع الأكثر صُعُوبَةً، والذي هو ***أسباب "انهيار الاتحاد السوفياتي"***، بَقِيَت قليلة جدًّا).

ومِمَّا شرحه مثلًا سعيد قبيلات في موقع "الحوار المتمدن"، أن الماركسية لَا تتوفّر على نظرية جاهزة لِبِنَاء الاشتراكية. وأن ***ماركس لم يضع تصوّرًا لِبِنَاء الاشتراكية.*** لأن معرفة بناء الاشتراكية (من منظور ماركسي)، لَا تُخْتَرَعُ في الخيال، وإنّما تُكْتَسَبُ من خلال تجارب بنائها. الشيء الذي يُبرز أهمية الانطلاق من الواقع، ومِن المُمَارَسَة، وليس من الخَيَال. وكان ماركس قد ركّز مُجمل جُهوده على نقد الرأسمالية. وكان البرنامج العام في "الاتحاد السُّوفياتي" هو «إنجاز الثورة الديموقراطية البورجوازية، ثم الانتقال إلى الثورة الاشتراكية البْرُولِيتَارِيَة» (لِينِين). لكن المنتوج التاريخي الذي حصل عَمَلِيًّا (في الاتحاد السُّوفياتي) هو «رأسمالية الدولة الوطنية لِذَاتِهَا، (...) خاضعة للضّرورة التاريخية» (سعيد قبيلات).

وَعلى خِلَاف بعض التَصَوُّرات المُبَسَّطَة، فإن تجربة الاتحاد السُوفْيَاتِي بعيدة عن أن تَكُون مُجَرَّد فَشَل مُطْلَق. حيثُ أنها أَثَّرَت، وَمَا زَالَت تُؤَثِّر، في الكِفَاح التَحَرُّرِي لِمُجمل شُعُوب العَالَم. وَقَد صَمَدَت رُوسْيَا ضِدَّ الحِصَار الاقتصادي الشَّامِل الذي فَرَضَتْه عليها الدُوَل الإمبريالية، خلال عُقُود مُتَوَالِيَة. كَمَا أَنَّ الحُرُوب المُتَنَوّعَة، والمناورات العَنِيفَة وَالمُتَعَدّدَة، التي ظَلَّت مُخْتَلَف تَحَالُفَات الدوّل الْإِمْبِرْيَالِيَة الغَرْبِيَة تَشُنُّهَا ضِدَّ رُوسْيَا، بِهَدَف تَخْرِيبِهَا، أَجْبَرَتْ رُوسْيَا على أن تَتَحَوَّل في ظَرْف وَجِيز، وَبِسُرْعَة نِسْبِيَّة لَا تُصَدّق، إلى قُوَّة عَسْكَرِيَة عُظْمَى، تَتَمَوْقَع في المرتبة الأولى على سُلَّم القِوَى العَسْكَرِيَة العالمية.

وَبَعْدَ قُرابة 40 سنة، أَخْرَجَت الثورة الاشتراكية روسيا من التَخَلُّف، والفَقْر، والْأُمِيَة. وحوّلت الاشتراكيةُ رُوسيا إلى دولة عُظْمَى في العالم، تَتَمَوْقَعُ في المَرْتَبَة الثانية من سُلَّم اِقْتِصَادَات العالم (بعد أمريكا). وَقَاوَمَت رُوسْيَا، وَكَافَحَت، وَأَفْشلَت، مُجمل الهَجَمَات العَسْكَرِيَة، أو العُدْوَانِيَة، أو التَخْرِيبِيَة، التي تَعَرَّضَت لها بين سنتي 1917 و 1985[6]. وَرَغْمَ كلّ تلك المُناورات التي شَنَّتْهَا الإمبرياليات الغَرْبِيَة ضِدَّ رُوسيا، أَثَّرَت الثورة الاشتراكية في رُوسْيَا على مَصِير مُعْظَم شُعُوب العالم المُسْتَعْمَرَة، وَالمُسْتَغَلَّة، والمَسُودَة مِن طَرَف الدُوَل الْإِمْبِرْيَالِيَة القَوِيَة. وحتّى بعد اِنهيَّار الاتحاد السُوفياتي، وحتّى بعد رُجُوع رُوسيا إلى الرّأْسَمَالِية، فقد ظَلَّت رُوسيا مُخْتَلِفَة نِسْبِيًّا عن مُعظم البلدان الرَّأْسَمَالِيَة.

3.3 - هل تُشَكِّلُ سياسات اسْطَالِين اسْتِمْرَارِيَة أم قَطِيعَة مع الماركسية؟

لِتَسْهِيل مُحاربة كلّ مِن الماركسية والشيوعية والاشتراكية، رَوَّجَت وسائل إعلام الدول الغربية الإمبريالية، في إطار "حربها البَارِدَة" ضِدَّ المُعَسْكَر الشَرْقِي "الاشتراكي"، أن ما جرى في الاتحاد السُّوفْيَاتِي، وفي الصّين، خلال قرابة السِتّين سنة الماضية، هو التطبيق الوَفِيّ

(6) عن مقال مُتَرْجَم مِن طَرف "دلير زنكنة"، منشور على موقع "الحوار المتمدّن"، العدد: 7654، بتاريخ: 26 يونيو 2023. وهذا المقال هو نفسه في الأصل مقال لِـ : هيرويغ ليروج، محرر "دراسات ماركسية"، وعضو اللجنة الوطنية لحزب العمال البلجيكي (PTB).

لنظريات كارل ماركس. وعلى عكس ذلك، يَقْدِر كل شخص مَوْضُوعي أن يُلاحظ بسهولة، عبر الرُّجُوع إلى التفاصيل وتعميقها، أن ما طُبِّقَ في الاتحاد السوفياتي، وفي الصين، هو نَوْع من رَأْسَمَالِيَة الدولة، أو من الاستبداد الشُمُولِي، أو من النَّزْعَة الاشتراكية البِدَائِية المُحَافِظَة، المُتَمَيِّزَة بكونها غير ديموقراطية، وبكونها غير نَقْدِيَة، وغير جَدَلِيَة. حيث اِكْتَفى الاتحاد السوفياتي، والصين، على استبدال الملكية الخَاصّة بالملكية العُمُومِيَة، دون تغيير الإنسان، وَتَشْوِيرِه، وتحريره من "الاِسْتِلَاب" (aliénation). فَمَا طُبِّقَ في الاتحاد السوفياتي، وفي الصّين، خلال قرابة السِتّين سنة الماضية، هو مُجَرّد تأويل مُغْرِض، أو تحريف سافر، لنظريات كارل ماركس. وقد شرح إِرِيكْ فْرُوم (Eric From) أنه «بينما كانت نظرية ماركس تمثّل نقداً للرأسمالية، كان كثيرٌ من أنصار مَاركس مُتَشَرِّبين، بِعُمق، بروح الرأسمالية، إلى درجة أنهم فسّروا فكر ماركس على ضوء التصنيفات المادّية والاقتصادية، السّائدة في الرأسمالية المعاصرة. وظنُّوا أن الاشتراكية ليست مجتمعًا مختلفًا إنسانيًا عن الرأسمالية، بل شَكْلًا من الرأسمالية الذي تحصل فيه الطبقة العاملة على مكانة اِجتماعية أرقى»[7].

أَتَّفِقُ مع المُفكّرين الذين أَكَّدُوا على وُجُود فَرق كَيْفِي بين فَتْرَة قِيَّادَة افْلَادِيمِير لِينِين، وفترة قِيَّادَة جُوزِيفْ اسْطَالِين. ***فَلَمْ يُطَبِّق تِيَار جُوزِيفْ اسْطَالِين فِكر كَارْل مَارْكِس، ولَمْ يُوَاصِلْ مَنَاهِجَ افْلَادِيمِيرْ لِينِين. بل تُشَكِّلُ مَنَاهِج اسْطَالِين وسُلُوكِيَّاتِه قَطِيعَة تَامَّة مع مَاركس، ومع لِينِين.***

وكثير من المُنَاضِلِين اليساريّين ظَنُّوا أن ما قام به جوزيف اسطالين هو تَنْفِيذٌ أَمِينٌ لِفِكْر افْلَادِيمِير لِينِين. وأن ***اللّينِينِيَة تُؤَدِّي بالضرورة***

(7) إيريك فروم، مفهوم الإنسان عند ماركس، نشر 1998، دار الحصاد، الصفحة 21.

إلى السْطَالِينِيَة. وهذا اعتقاد خاطئ. وفي تَقْرِيرٍ عن قراءته لِكِتَاب لَارْسْ لِيهْ (Lars T. Lih)[8]، أشار بُولْ بْلَاكْلِيدْجْ (Paul Blackledge) إلى أن العَامَّة مِن الناس تَحْمِلُ تَصَوُّرًا مُبَسَّطًا، وَمُبْتَذَلًا، عن إِلِيتْشْ لِينِين، وَعَن اللِّينِينِيَة. وَتَظُنُّ العَامَّة أن «لِينِين كان يَحْتَقِرُ القُدُرَات الفِكرية لِأَفْرَاد الطبقة العاملة»، و«أنه كان يُصِرُّ على بِنَاء حِزب مُكَوَّن مِن الثَّوْريين المُحْتَرِفِين»، و«أن هذا الحزب هو الذي سَيَجْلُبُ الأفكار الاشتراكية مِن خَارِج، إلى داخل، الطبقة العاملة»، و«أنه سَيَقُودُ هذه الطبقة العاملة مِن القِمَّة نَحْوَ الأسفل»[9]. وَزَعَمَت العَامَّة أن لِينِين دَافَعَ على تَصَوُّر لِلحزب على شكل «بِنْيَة هَرَمِيَة»، وعلى شكل «مَجموعة من "العُلماء" الذين ينشرون معارفهم العلمية، من الأَعْلَى إلى الأَسْفَل، في اِتِّجَاه العُمال». وهذه التَصَوُّرَات النُخْبَوية، وغير الديموقراطية، تَرْجِع إلى الأُسْطُورة التي رَوَّجَهَا أَلِيكْسَنْدَرْ زِينُوفْيِيف (Alexandre Zinoviev)، واسْطَالِين (J. Staline)، وكذلك بعض المُثَقَّفِين اللِّيبِيرَالِيِّين الغَرْبِيِّين، عن إِلِيتْشْ لِينِين، وعن اللِّينِينِيَة. وهذه التَصَوُّرَات لَا تَنْبَنِي على أساس مَرَاجِع لِينِينِيَة مُوَثَّقَة بِدِقَّة. بَلْ تَنْسَجِمُ هذه التَصَوُّرات أكثر مع النزعة السطالينية، وليس مع فِكْر لِينِين. وهذه التَصَوُّرَات السْطَالِينِيَة لِلحزب تَتَنَاقَضُ مع المَضْمُون اللِّينِينِي الثَوْرِي لِلحزب. وأفكار لِينِين هي أكثر تَعْقِيداً، وَدِقَّة، وَجَدَلِيَّةْ، وَمُرُونَةً، وَثَرَاءً، بِالمُقَارَنة مع الأفكار المُبَسَّطَة، والمُطْلَقَة، لَدَى جُوزِيف اسْطَالِين. وَتَتَنَافَى تلك التَصَوُّرَات السَّابِقَة مع الأطروحة الماركسية التي تَعْنِي أنه ***لَا يُمكن أن تَتَحَقَّقَ الاشتراكية إلا إذا سَهَرَت الطبقة العاملة على تَحْرِير نَفْسِهَا بِنَفْسِهَا***، بِدُون زَعِيم، وَلَا نِيَّابَة، وَلَا وَسَاطَة.

---

(8) Lars T. Lih, Lenin Rediscovered :What Is To Be Done ?, Leiden, 2006.

(9) Paul Blackledge, Une relecture de 'Que faire?' de Lenine, Édition 2007, p. 3 de 27 pages. Source : https://www.cairn.info/revue-nouvelles-fondations-2007-3-page-219.htm

وَفي رَدِّه على بعض الاشتراكيين الذين يَرْغَبُون في القَطْعِ مع كلّ أَنْمَاط «القِيَادة السُّلْطَوِيَة»، أو «النُخْبَوِيَة»، أَشَارَ لَارْسْ لِيهْ (Lars T. Lih)[10] إلى أن الأُطْرُوحَة القائلة «إن الاشتراكية هي التحرير الذَّاتِي لِلطبقة العاملة»[11]، لَا تَتَنَاقَضُ بِالضَّرُورة مع «الطَلِيعِيَة» (leadership)، أو مع وُجُود «نُخْبَة» (élite). وَقد أَوْضَح أَنْطُونْيُو غْرَامْشِي (Antonio Gramsci) أن «القِيَادِيّين يَنْقَسِمُون إلى قَادَة دِيمُوقراطيّين، وقَادَة غير دِيموقراطِيّين. وفي مَيْدَان تَكْوِين القَادَة، تُوجَد فَرَضِيَة أساسية، وهي : هل النِيَة هي أنه يجب أن يُوجَدَ دائمًا قَادَة وَمَقُودين، أم أن الهدف هو خَلْق الظُّرُوف التي تَجْعَلُ هذا التَقْسِيم بين القَادَة والمَقُودين غَيْر ضَروريّ؟»[12]. وما دُمْنَا نُدرك مُسْبَقًا أن بعض الانحرافات السياسية سَتَظْهَرُ حَتْمًا خلال مُختلف تجارب بِنَاء الاشتراكية، فإن الحَلّ هو أن نكون مُنْتَبِهين، وَمُستعدّين لِمُلَاحَظَة هذه الانحرافات في حِينِ ظُهُورِهَا، وَالوَعْي بها، وَنَقْدِهَا، وَتَقْوِيمِهَا، بِجُرْأَة، وَبِإِصْرَار. وفي نفس الوقت، يجب علينا أن نَحْرُصَ على أن نَظَلَّ لَبِقِين، وَمَرِنِين، وبدون أَيِّ تَطَرُّف مُسْتَلَب. والمَطْلُوب مِنَّا هو عدم التَفْرِيط في المَضْمُون الثوري وَالتَحَرُّري. لِذَا كان لينين حَرِيصًا على احترام الديموقراطية داخل الحزب.

وكانت فترة قيادة لِينين تَتَمَيَّزُ بِهَيْمَنَة طبقة البروليتاريا على المُجتمع، وبالدّور الأيديولوجي القيادي للبروليتاريا، وبالدور السياسي

---

(10) لَارْسْ لِيهْ، المصدر السابق، الصفحة 556. Lars T. Lih, Lenin Rediscovered :What Is To Be Done ?, Leiden, 2006.

(11) "Le socialisme est l'auto-émancipation de la classe ouvrière".

(12) Cité par Paul Blackledge : Gramsci in A. Shandro, «Lenin and Hegemony : the Soviets, the Working Class and the Party in the Revolution of 1905», in C. Barker et al., «Leadership Matters», in C. Barker et al. (éds), Leadership and Social Movements, Manchester, 2001.

القيادي لحزب البروليتاريا، وَبِتَمَرْكُز تَوَاجُد القِوَى الثورية والمُبادرة داخل حزب البروليتاريا([13]). وكان أفراد الجيش والبوليس، نتيجةً للعمل السياسي الثوري الطويل، يرفضون توجيه فَوْهَات أسلحتهم نحو صُدور الكادحين والثوريّين. أما خِلَال فَتْرة قِيّادة جُوزيف اسطالين وأنصاره، فكانت تَتَمَيَّزُ بِعكس ذلك. حيثُ كانت فَتْرَة قِيَّادة اسْطَالِين تَتَّسِمُ بِتَهْمِيش طبقة البروليتاريا، وَبِإِخْضَاعِهَا. وكانت فَتْرَة قِيَّادة اسْطَالِين تَتَّصِفُ بِتَعْوِيض قِيَّادَة الطبقة العَامِلة بِهَيمنة فئة بِيرُوقْرَاطِيَة الحِزب الحَاكم (Nomenklatura). وَأَصْبَحَت في عَهْد اسْطَالِين أيديولوجية جديدة وغريبة هي التي تُهَيْمِنُ عن البروليتاريا. وَتَصَاعَدَت ظَاهِرَة هُرُوب المناضلين الثوريّين من الحزب الحاكم. وفي عهد اسطالين، اِنْتَفَى الدّور القيّادي لطبقة البروليتاريا. وحتّى الدَّوْر القِيَادِي لحزب البْرُولِيتَارْيَا تَمَّ تَعْوِيضُه بِزَعَامَة رَئِيس الحِزْب الشِيُوعِي. وأصبح أفراد الأجهزة القمعية يُوجّهون أسلحتهم، وبدون حرج، ضدّ الكادحين، وضدّ المناضلين الثوريين. فَعَمَّ المُجتمعَ إرهابٌ من نوع جديد، هو إرهاب الدولة.

ونلاحظ أن مُجمل ***القادة السياسيين الذين أَغْنَوْا «الماركسية»، بِالنَظَرِيَة أو بِالمُمَارَسَة، كانوا، في نفس الوقت، مناضلين، ومُثَقَّفين، وَفَلَاسِفَة، وعُلَمَاء*** (مثل مَارْكِس، إِنْجَلْس، لِينِين، مَاوُو، هُو شِيمِينْ، إلى آخره). أمَّا جُوزِيفْ اسْطَالِينْ، فَلَمْ يكن ضُعْفُ ثقافته() يسمح له بِاسْتِيعَاب الجوهر الثوري، والتحرّري، والإنساني، الموجود في الماركسية، فبالأحرى أن يسمح له بتطويرها. ولم يكن اسْطَالِين مُثقّفا مُعَمَّقًا، ولَا فيلسوفًا ثَاقِبًا. ولم يكن اسْطَالِين يَتفَوَّقُ لَا بالثقافة الواسعة، ولَا بالوُضُوح النظري. بل كان اسْطَالِين يَتَطَفَّلُ على العُلُوم

(13) Charles Bettelheim, Les luttes de classes en URSS, 1ière période 1917-1923, Éditions Seuil-Maspero, Paris, 1974, p. 79.

(حَدَثَ ذلك مثلًا عبر تدخّله الفَجّ في الصّراع فيما بين أطروحات عِلْمية في ميدان البَيُولُوجيَة). وقد نُشِرَت قرابة 13 كتابا[14] مَنْسُوبَة إلى جُوزِيف اسْطَالِين، في مجالات الفلسفة، والاقتصاد السياسي، والتاريخ، والاستراتيجية، واللّسَانِيَّات، إلى آخره. وأشكُّ شَخْصِيًّا في أن تكون هذه الكتب حقيقةً من إنتاج جوزيف اسطالين. لأن هذه الثقافة المُتَضَمَّنَة في هذه الكتب، لم تكن ظاهرة في سُلُوكِيَّات اسْطَالِين. ولأن تاريخ النقاشات السياسية، والصراعات الفِكرية، التي دَارَتْ في روسيا قَبْل وصول اسطالين إلى مَوْقِع السّلطة السياسية، لم يُسَجّل أن اسْطَالِين كان حقيقةً من بين المُفَكّرين أو المُثقّفين المرموقين. ولأنه لَا يُعقل أن شَخصًا مثل اسْطَالِين، قبل وُصُوله إلى السُّلطة، لم يسبق له أن نشر مقالات أو دراسات نظرية، مَشْهُود بجودتها لدى مُنَافِسِيه المفكّرين، أن يتحوّل فجأةً، بعد فرض سيطرته المُطلقة على الحزب الحَاكِم، إلى أَرْقَى أو أعظم كَاتب في مُجمل الاتحاد السُّوفْيَاتِي. ولا يُعْقَل مثلًا أن يكون الشخص الذي أَلَّفَ كتابًا يحمل عنوان «الإنسان هو الرأسمال الأكثر قِيمَةً»، وكتاب «من أجل حياة جميلة وسعيدة»، هو نفس الشخص الذي أمر بِاضْطِهَاد وبِسَحْق ملايين البشر، وحتى بسجن أو بإعدام غالبية النُخَب السياسية والمثقّفة في حِزبه، وفي رُوسْيَا. والاحتمال الأكبر هو أن اسْطَالِين كان يَأمُر خُدَّامه المُثقّفِين بأن يكتبوا

---

(14) الكتب المنسوبة لِجُوزِيف اسْطَالِين: «الفوضوية أو الاشتراكية؟»؛ «الماركسية والمسألة الوطنية والاستعمارية»؛ «مبادئ اللينينية»؛ «قضايا اللّينِينِية»؛ «الإنسان هو الرأسمال الأكثر قيمة»؛ «تاريخ الحزب الشيوعي البَلْشفِي»؛ «المادية الجدلية والمادية التاريخية»؛ «بعد الانتصار، السِّلْم الدَّائِم»؛ «الماركسية ومشاكل عِلْم اللّسَانِيَات»؛ «المشاكل الاقتصادية في الاشتراكية في الاتحاد السُّوفياتي»؛ «كُتَيِّب الاقتصاد السياسي»؛ «حول الحرب الكبرى للاتحاد السوفياتي»؛ «تاريخ الثورة الروسية» في أربعة أجزاء؛ «الشبيبة الشيوعية»؛ «لِينِين»؛ إلى آخره.

له الكتب التي كان يحلمُ بها، مُقَابل أجرة، ثم يَنْسُبُهَا بدون حَرَج إلى نفسه. خاصَّةً وأن غُرُور اسْطَالِين كان بِلَا حدود.

وكان اسْطَالِين عُضوًا في حزب البَلَاشِفَة الروسي منذ سنة 1903. لكن دوره في ثورة أكتوبر 1917 كان هَامِشِيًّا، إلى حدّ أنه لم يكن يُذْكَر. ولم تَكُن قُوّة اسْطَالِين تأتي من ثقافته، ولَا من عُلُومِه، ولَا من اسْتِيعَابِه للفلسفة الماركسية، ولَا من سِعَة وَعْيِه، ولَا من قُدرته على التَنْظِير، وَلَا من اِبْدَاعِه لِأَفكار أو مفاهيم أو تصوّرات جديدة، وَلَا من خِبْرَته في اِسْتِشْرَاف المُستقبل. وإنما كانت تأتي من سَيْطَرَتِه على جِهَاز التَنْظِيم الحِزْبِي، وَمِن دهائه السياسي الخَفِيّ، ومن تَحَايُلِه المُسْتَتِر، ومن براعته في اكتساب عَطْف أو مُسَانَدَة الأطراف القوية في الحزب. ولَمَّا اِنْتَبَه لِينِين (في آخر حياته) إلى خُطورة تَسَلُّق جُوزِيف اسْطَالِين للأجهزة القيادية في الحزب الشيوعي، ***اِعترض لِينِين*** على وُصُوله إلى المسئوليّات الرئيسية في الحزب، وفي الدولة. لكن الْأَوَانَ كَان قَدْ فَاتَ. حيث أن مرض الدّمَاغ الذي أصاب لِينِين فَرَضَ عليه التَنَحّي من الحزب. وكان اسْطَالِين يعرف أن لِينِين يعارض وصول اسْطَالِين إلى أعلى سلطة في الحزب. لكن اسْطَالِين استطاع جمع الأصوات اللَّازِمَة لكي يَغْدُوَ، في سنة 1922، هو الكاتب العام لِلَّجْنَة المركزية للحزب الشيوعي. وبِدَعْوَى تَوفير ظُروف الرَّاحة والاِسْتِشْفَاء إلى لِينِين، وَضَعَ اسْطَالِينُ لِينِينَ في عُزْلَة تَامَّة. وكانت عُزْلَة لِينِين بمثابة تَصْفِيَة مُبْكِرَة ومُسْتَتِر له. ثم تُوفِّيَ لِينِين في سنة 1924. وكان اسْطَالِين مُتفَوّقًا في مجالات عَزْل مُعَارضيه، وتهميش مُنَافسيه، وحتّى تصفية خُصومه السياسيين. واستطاع اسْطَالِين أن يفرض ***سَيْطَرَةً شخصيةً مُطلقةً*** على الحزب الشيوعي.

وكُلّ حزب شيوعي، أو اشتراكي، يقبل بأن يكون المسؤول الرئيسي فيه شخص من صِنف جُوزِيف اسْطَالِين، بِمَعْنَى شَخْص يَفْتَقِرُ إلى

الثقافة، والعَقْلَانية، والعُلُوم، والأخلاق، سيكون حزبًا غير مُنْتَبِه، بل مُتَخَلِّف. ومَآل هذا الحزب سيكون هو الإفلاس السياسي.

وهذا الحدث يُذَكِّرُنَا بِإِشْكَالِيَة عَتِيقَة تناولها مثلًا حُكَمَاء اليُونَان القَدِيمَة. وهي: ما الذي ينبغي القيام به لِكَي يكون الحُكَّامُ فَلَاسِفَةً، والفلاسفةُ حُكَّامًا؟ فإلى حَدِّ اليوم، لَا نعرف بِدِقَّة كيف نمنعُ الأشخاص الجُهَّال، أو المُسْتَلَبين (aliénés)، أو الانتهازيّين، من الوصُول إلى مناصب القرار، أو السُّلطة، أو الحُكم؟ وكيف نُشَجِّع العُلَمَاء، والفَلَاسِفَة، والحُكَمَاء، على تحمّل مسؤوليّات سياسية مركزية؟

ونتذكَّر أن مَارْكِسْ، أو لِينِين، حينما كانا يُلاحظان أن جزءًا من المناضلين يَخْتَلِفُ معهما في الرَّأي، في قضية سياسية مُحدّدة، كَانَا يَلْجَآن إلى إِعْدَاد ***دِرَاسَة مُعَمَّقَة***، تحتوي على حُجَج عِلْمِيَة، أو عَقْلَانِيَة. وتستطيع هذه الدّراسة أن تُقْنِعَ حتى الأشخاص الذين يرفضون أن يَقْتَنِعُوا. بَيْنَمَا كان مَنْهَجُ جُوزِيفْ اسْطَالِين يعتمد على مَنْهَج مُعَاكِس. حيث كان اسْطَالِين يَعْزِلُ مُنْتقِديه، ويُهَمِّشُ مُعارضيه، ثم يَتَّهِمُهم بِتُهَم جِنَائِيَة خطيرة، ويَحكم عليهم بالإعدام، عبر استغلال ***بِيرُوقْرَاطِيَة الحزب، وعبر استعمال الأجهزة المُخَابَرَاتِيَة، والفِرَق البُولِيسِية***[15]، ***وجهاز القضاء المُنْحَاز، والمُحاكمات المَغْشُوشَة.***

وفي جوهره، لم يكن جُوزِيف اسْطَالِين لَا مَاركسيًّا، ولَا اشتراكيًّا، وإنما كان مَاكْيَافِيلِيًّا (machiavélique). وكانت غايته الأساسية هي غَزْوُ السُّلطة السياسية. وكان اسْطَالِين مَهْوُوسًا بشكل مَرَضِي باكتساب السلطة واحتكارها. وهذه المسألة تطرح إشكالية ***العلاقة بين السياسة والأخلاق***[16]. وعلى عكس الكثير من الظُّنُون، ***لا يمكن لأي عمل***

---

(15) الأجهزة البُوليسية المشهورة المُتَعَاقِبَة هي: اتْشِيكَا (Tcheka)، الجِيبِيأُو (Guépéou)، إِنْكَافِيدِي (NKVD).

(16) تناول رحمان النوضة موضوع العلاقة بين الأخلاق والسياسة في عدّة

سياسي، أو نضالي، أو ثوري، أن يكون نَبيلًا، ومقبولًا، إلَّا إذا كان مُلْتَزِمًا بالأخلاق، وبالعَدْل، وبالقِيَم الإنسانية. أما سُلُوكِيَّات الغِشِّ، أو التَحَايُل، أو الخِدَاع، أو النفَاق، أو الانتهازية، أو الظُّلم، أو الإجرام، فكلّها تتناقض مع الماركسية، ومع الاشتراكية. ومآلها النهائي هو الفشل.

وفي الاتحاد السوفياتي، تحت حُكْم جُوزِيف اسْطَالِين (بين سنتي 1924 و 1953)، حَدَثَت الكثيرُ من المُمَارسَات السياسية المُنْحَرِفَة. وبعد موت جُوزِيف اسْطَالِين في سنة 1953، خَلَفَهُ أَحَدُ تَلَامِذَته: ***نِيكِيتَا اخْرُوشْتْشُوفْ.*** ودام حُكْمُ اخْرُوشْتْشُوفْ من 1953 إلى 1964. وفي المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السُّوفْيَاتِي في سنة 1956، فَضَحَ اخْرُوشْتْشُوفْ أساليب اسْطَالِين القَمعية، وَانْتقَدَ سُلُوكِيَّاته الاستبدادية، ونَدَّدَ بِجَرَائمه التي لَا تُعَدُّ. لكن ذلك التَنْدِيد لم يكن كَافِيًّا. واعترفَ اخْرُوشْتْشُوف أنه هو نفسه، كان مِن قَبل يُساند القَمْعَ الذي كان يُمارسه اسْطَالِين، وكان يشارك في تنفيذه، وذلك خوفًا من عُنف اسطالين. وفي المؤتمر 22 للحزب الشيوعي السوفياتي، قرّر المؤتمر إعادة الاعتبار لبعض الضحايا البارزين الذين أُعْدِمُوا ظُلْمًا تحت حُكم اسْطَالِين. وحاوَل اخْرُوشْتْشُوف تَمْرِير بعض الإصلاحات الاقتصادية اللِّيبيرالية، للتَّخْفِيف من الأزمة الاقتصادية. لكن بيروقراطية الحزب أفشلتها [مثلما أن بعض البَلَاشِفَة، نَاهَضُوا «السياسة الاقتصادية الجديدة» (NEP) اللِّيبِيرَالِيَة التي وضعها لِينِين في سنة 1921]. ثمّ تآمرت بيروقراطية الحزب الشيوعي ضدّ اخْرُوشْتْشُوف، ونَحَّتْه من السلطة في سنة 1964. وَتَدَلّ تَنْحِيَّة اخْرُوشْتْشُوف دون قتله (من

وثـائق. أبرزها: كتاباه باللغة الفرنسـية (Le Politique)، و (L'Éthique politique)، وكـذلك في مقالـه المُـعَنْوَن بِـ : "العلاقة بين الأخلاق والسياسـة". ويمكن تنزيـل هذه الوثائق من مدوّنة الكاتب (https://LivresChauds.Wordpress.Com).

طرف بيروقراطية الحزب) على أن المناهج السْطَالِينية قد تَقَلَّصَت، أو زَالت نسبيًّا، من الحزب. ولو كان اخْرُوشْتْشُوفُ اسْطَالِينيًّا مثل اسْطَالِين، لَمَا تجرَّأ أحد على مُخالفته. فكان اخْرُوشْتْشُوف هو أوّل من ناضل من أجل التخلّص من المناهج السْطَالِينية (déstalinisation)، وكان أيضًا هو أوّل "ضَحِيَّة" لِمَا قام به. الشيء الذي يُؤَكِّد أنه نجح نسبيًّا في مهمّته. ولو أن ذلك التنديد بالسْطَالِينية في الاتحاد السُّوفياتي بَقِيَ غير كَاف.

وفي سنة 1985، حاول من جديد ***مِيخَائِيل غُرْبَاتْشُوفْ*** تَصْحِيح امْتِدَادَات ومُخَلَّفَات السِّيَاسات "السْطَالِينِيَة" (stalinisme). وحاول إصلاح الاقتصاد السُّوفْيَاتِي المُتَهَالِك عبر سَنّ "سياسة اقتصادية جديدة" (NEP). ثمّ بَادَرَ إلى إطْلَاق سياسة "الشَّفَافِيَة" (الجْلَاسْنُوسْتْ، Glasnost). ودَافَع عن سياسة "إِعَادَة الهَيْكَلَة" (البِيرِيسْتْرُويْكَا، Perestroï ka). لكن أجهزة الحزب الشيوعي لم تكن ناضجة لِفَهْمِ، أو لِإِنْجَاح، أو لِتَطْوِير، أو لِإِغْنَاء، هذه الإصلاحات. بل سَاهمت في إفشالها. فكان مصير الاتحاد السوفياتي هو السَّيْرُ نحو ***الانهيار الشَّامِل***، بين قرابة سنتي 1989 و 1991. ورغم ذلك، مَا زال الانْبِهَارُ بِجُوزِيفْ اسْطَالِين، أو تَمْجِيد شخصيته، قويًّيْن إلى حدّ اليوم، لدى بعض مُنَاضِلِي اليسار. وربَّما لو كان شَخص آخر مِثل تَرُوتْسْكِي، أو كَامِينْيِيفْ، أو زِينُوفْيِيفْ، أو بُوخَارِين، أو غيرهم من بين أطر الحزب المُحَنَّكَة، هو الذي خَلَفَ لِينين، بدلًا من اسْطَالِين، لَمَا حدثت بعض الحَمَاقَات، أو الجرائم القمعية، التي أَشْرَفَ عليها اسْطَالِين ومُنَاصِرُوه. لكن التاريخ غالبًا ما يُفاجئنا بتطوّرات لا يقدر خيالنا البشري على تَوَقُّعِهَا.

وقد نَمَت داخل الاتحاد السوفياتي فئات طبقية مُسْتَغِلَّة، وسائدة، من صنف جديد. وَفَرَضَت هذه الفِئَات الابتعاد عن مناهج الثورة الاشتراكية، والرجوعَ إلى الوراء، مِن "رأسمالية الدولة الوطنية لِذَاتِهَا"

إلى صِنف مُسْتَتِر من الرأسمالية. ***وتُوجَدُ أسباب انهيار الاتحاد السوفياتي على الخُصوص في تفاصيل تاريخ الصّرِاع الطبقي الذي جَرَى داخل هذا الاتحاد السُّوفْيَاتِي. وَلَا تَعُود أسباب انهيّار الاتحاد السُّوفْيَاتِي إلى نقَائِصَ مُفْتَرَضَة في النظرية الماركسية.*** الشيء الذي لَا يُلْغِي احتياج الماركسية إلى مُرَاجَعَة، ونقد، وتطوير، وإغناء، وإبداع.

وقد طرح بعض الباحثين في الغرب أن ***الأسباب*** الرئيسية لانهيار الاتحاد السوفياتي تَكْمُنُ في مُغَامَرة احتلال ـــــــه لِأَفْغَانِسْتَان، أو في محاولة منافسة الولايات المتحدة الأمريكية في مجال سِبَاق "حرب النُجُوم". وفي رأيِي، حتى لَوْ لَمْ يدخل الاتحاد السوفياتي إلى أفغانِستان، وحتى لو لم يدخل في سِبَاق "حرب النجوم"، فإن التناقضات الداخلية في نظام الاتحاد السوفياتي بَلَغَتْ حَدًّا كافيًا وحَاسِمًا من الاِخْتِمَار لكي تُؤَدّيَ به إلى الانهيار، سَوَاءً في سنة 1991، أو في وقت لَاحق.

ولمّا اِحْتَدَّ الصراع الأيديولوجي بين الصين والاتحاد السوفياتي، خلال سنوات 1970، بدأنا (في "تنظيمات الحركة الماركسية اللّيِنِينية" بالمغرب) نَشُكُّ، أو بدأنا نفهم، أن ***الاش ـــــــتراكية فيها دَرَجَات، أو أنواع، أو مَرَاحِل.*** وبدأ بعضنا يَظُنّ أن بناء الاشتراكية يَفْتَرِضُ نوعا من التلاؤم مع واقع المجتمع المعني، ومع مُستوى تقدّمه. وبدأنا نُدْرِك أن تشييد الاشتراكية يمكن أن ينحرف بسهولة عن الطريق السليم. الشيء الذي لم نكن نعرفه من قبل. وبدأنا نفهم أن الحزب الشيوعي، أو ***حزب الطبقة العاملة، لا يتطابق، أو لا ينسجم، بالضرورة، مع هذه الطبقة العاملة.*** ولاحظنا أن كثيرًا من الأحزاب تدّعي أنها هي «حزب الطبقة العاملة»، دون أن تكون هي فعلاً الحزب الحقيقي لهذه الطبقة. وتعلّمنا أن بعض الأحزاب الشيوعية تستطيع أن تَتَصَرَّف كَوَصِيٍّ على الطبقة العاملة، بينما مُمارستها تَضُرُّ بِـ، أو تتعارض مع، المصالح الاستراتيجية للطبقة العاملة. وحتى إذا

كان الحزب الشيوعي هو حزب الطبقة العاملة (من حيث انتماء جزء من أعضائه إلى العُمَّال)، ***فَمِنْ الممكن أن يتحوّل هذا الحزب إلى نقيضِهِ***، أو إلى شيء آخر. وبدأنا نَسْتَوْعِبُ أنه ***بالإمكان أن ينحرف حزب الطبقة العاملة، أو أن ينهج سياسة غير ثورية، أو غير اشتراكية، أو غير ديمقراطية، إلى آخره.***

وبعد انهيار الاتحاد السّوفياتي من جهة أولى، ومن جهة ثانية بَعْدَ تَنَامِي قوة الصّين، اِتّضَح أكثر مِمَّا كان في السَّابق، أنه ***خلال مرحلة الانتقال من "الثورة الديموقراطية البرجوازية" إلى "الثورة الاشتراكية"، لَا بُدَّ من المُزَاوَجَة، في نفس البلد الاشتراكي، بين اقتصاد اشتراكي واقتصاد رأسمالي مُتَحكَّم فيه.*** (وسنعود فيما بعد لِهذه الإِشْكَالِيَة، في الجزء الخاص بِتجربة الصّين).

ومن مِنْظَار نظرية ***المادية الجدلية، يمكن لأي فاعل سياسي أن يتحول إلى نقيضِهِ.*** ويمكن للدولة، أو للطبقة العاملة، أو للحزب الشيوعي، أو لحزب البروليتاريَا (في حالة وجوده)، أو للقيادة، أو للزّعيم، يمكن لأي واحد من هؤلاء الفاعلين السياسيين أن يتطوّر إلى نقِيضِه، على مستوى الفِكر، أو الوَعي، أو السُّلوك. ويمكن حتى لِلسُّوفْيِيتَات (soviets) (أي لِجَان الكادحين) أن تتحوّل إلى نقِيضِهَا.

ورغم كل السَّلْبِيَات التي كانت موجودة في تجربة الاتحاد السوفياتي، والتي نقِرُّ بها، ولا نُخْفِيهَا، فإن هذه التجربة ستظلّ غنية بالدروس لكل البشرية. وعوض أن نقول: «انهار الاتحاد السوفياتي، ومَاتَتْ معه الاشتراكية، والماركسية»، وانتهى الموضوع، على عكس ذلك، يلزم أن نُفَكِّر أن الماركسية أَلْهَمَت تجارب "اشتراكية" تاريخية، أَوَّلِيَة، ومُعقّدة، وغَنية. ومن واجب العُلَمَاء (الماركسيين) أن يدرسوا كلّ هذه التجارب التاريخية، بِدِقَّة عِلْمِيَة، لكي يستخلصوا منها كلّ الدروس الحَاسِمَة في مصير البشرية.

ولَوْلَا قوّة النظرية الماركسية، لما حدثت بعض التحوّلات الجذرية في العالم. ومن أبرزها ظُهور مَوْجَات طُمُوح جَماهير وشُعُوب عريضة إلى الانعتاق من أشكال مختلفة من الاضطهاد، كالاستعمار، وهيمنة الإمبريالية، والاستغلال الرأسمالي، إلى آخره. وحتّى جزء من الحقوق الديمقراطية التي انتزعها الكادحون في البلدان الرأسمالية الغربية، كان انتزاعها في إطار «الحرب الباردة» بين المعسكرين الاشتراكي والرأسمالي، وتحت تأثير وضغط المُكتسبات المُحَقَّقَة في بعض البلدان الاشتراكية (كمشاركة النساء في الانتخابات، والعُطلة السَّنوية، والتَغْطِيَة الصِّحِيَة، إلى آخره). وقد كان الاتحاد السُّوفياتي بمثابة مُخْتَبَر لكل البشرية. وقد لعب الاتحاد السوفياتي دورًا حَاسِمًا في هزم النظام الألماني النَّازِي، والتوسّعِي، لِأَدُلْفْ هِتْلَرْ، إبَّان «الحرب العالمية الثانية». وسَاهَمَت الماركسية في ظهور، وفي تحرّر، وفي تقدّم، بَلَدَين عُظْمَيَيْن (هُمَا رُوسيا والصّين)، كانتا قبل سنة 1917 في تخلّف يُذَكِّرُ بِالإِقْطَاعِيَة، وَبِالقُرُون الوُسْطَى. وأصبح هذان البلدان يُحْسَبَان اليومَ ضِمْنَ القِوَى العالمية العُظمى، وذلك لعدّة أسباب، من ضمنها الاستفادة من النظرية الماركسية.

3.4 - أليس التَسَرُّع، وحرق المراحل، في إنجاز مهام الثورة، خطأً فَادِحًا ؟

في 25 أكتوبر 1917، اِسْتَوْلَت مجالس السُّوفْيِيتَات (soviets) على السُّلطة السياسية في رُوسْيَا. وحاولت قيادة الثورة أن تسْتَرْشِدَ بِمَبَادِئ الثورة الماركسية. لكن هذه الثورة لم تكن مُجرّد تطبيق آلِي لِنَظَرِيَّة، أو

لِبَرْنَامَج، مُحَدَّدَيْن بِشكل مُسْبَق. بل كانت قيادة الحزب الشيوعي البَلْشَفِي مُجبرة بِاستمرار على التفكير، والبحث، والتَجْرِيب، والتَكَيُّف، مع تطوّرات الأوضاع المُتَلَاحِقَة. وَلم تكن قيادة الثورة دَائِمًا مُحِقَّة، بَل أخطأت في الكثير مِن القضايا. ومعنى ذلك أن النظام السياسي السُّوفْيَاتِي في روسيا، لم يستطع أن يكون هو التطبيق الصَّحِيح والكَامِل لِنظام سياسي اشتراكي مِثالي. وكان لِينِين حَذِرًا في مُبادراته، ونَاقِدًا في مُلاحظاته. وبدأت الثورة بِإِقَامَة نوع مِن "رأسمالية الدولة". ومع أحداث الحرب الأهلية، وبعد الهُجومات الحربية التي كانت تَشُنُّهَا الدول الإمبريالية على الثورة، دخلت رُوسْيَا في «شِيُوعِيَة حَرْبِيَة» (communisme de guerre). وحاولت رُوسيا أن تُنْجِزَ «نظامًا جماعيا متكاملًا» (régime collectiviste intégral). وأمام الصُّعُوبَات أو الإِخْفَاقَات، اِضْطَرَّ لِينِين، في سنة 1921، إلى الرُّجوع بالحزب الشيوعي إلى «السياسة الاقتصادية الجديدة» (NEP). وهي نوع مِن الرُّجُوع الجُزْئِي الحَذِر إلى بعض الإجراءات الاِقْتِصَادية الرأسمالية. وتُوفِّيَ لِينِين في سنة 1924. وفي نهاية سنة 1927، لاحظ الحزب الشيوعي أن التوازنات الاقتصادية ليست جَيِّدة. وفي مُؤْتَمَره الخامس، قرّر الحزب الشيوعي العَمَل بالمُخَطَّطَات الخُمَاسِيَة (plans quinquennaux)[17].

بعدما انهار الاتحاد السوفياتي في قُرَابَة سنة 1989، يَتَبَادَر إلى الذهن هذا التَسَاؤُل الأول: لماذا حدث هذا الانهيار؟ ولَمَّا نُحِسُّ بصعوبة الجواب على هذا التساؤُل، يَتَرَاءَى في ذهننا تَساؤل ثان هو أقل صُعوبة: ***من أين أتى الاتحادُ السوفياتي، وأين وَصَلَ قُبَيْلَ انهياره، وإلى أين كان يَطْمَحُ الذهابَ إليه؟*** ولم يسبق لي أن قرأتُ جوابًا واضحًا ومُرْضِيًّا عن هذا التساؤل. وبِالصُّدفة، قرأتُ مقتطفًا من

(17) Henri Guitton, Économie Politique, Édition Dalloz, 1971, p. 64.

مقال[18] كان لِينِين قد نشره قُبَيْلَ مرضه، في سنة 1921، بمناسبة الذكرى الرابعة لثورة 25 أكتوبر 1917. وكما عَهِدْنَاه، كان لِينِين في مقاله هذا وَاضحًا، جَدَلِيًّا، وشُمُولِيًّا. وبتلخيص كَبِير (وَلَوْ أن التَلْخِيصَ يُفْقِدُ الدِقَّة) عن التساؤل الأوّل الذي هو: (من أين أتى الاتحاد السوفياتي؟)، أجاب لِينِين: «كانت المظاهر الأساسية في مُجتمع رُوسْيَا، قبل ثورة أكتوبر 1917، هي بَقَايَا وآثَار القِنَانَة (عُبُودِيَة الأرض) (servage)، واستبداد المَلَكِية، والطَّوَائف (castes) الاجتماعية، ومِلْكِيَة الأرض، والتَمَتُّع بالأرض، ونُكْرَان حقوق المرأة، وهَيمنة الدِّين، واضطهاد القَوْمِيَات غير الرُّوسية، إلى آخره»[19].

وعن السؤال الثاني الذي هو: (أين وصلت الثورة في رُوسْيَا في سنة 1921؟)، أجاب لِينِين: «لقد خَلَقَ الفَوْضَوِيُّون، والديموقراطيون البُورجوازيُّون الصغار، أَيْ المَنَاشِفَة، والاشتراكيون الثوريون، خلقوا غُموضًا كبيرا حول العلاقة بين "الثورة الديمقراطية البورجوازية" و"الثورة الاشتراكية"، أي "الثورة البْرُولِيتَارِيَة"... ومضمون "الثورة الديمقرطية البرجوازية" هو التَحَرُّر من تقَالِيد القرون الوُسْطَى، ومن القِنَانَة، ومن الإِقْطَاعِيَة (féodalisme) في العلاقات المُجتمعية (كَنِظَام، وكُمُؤَسَّسَات)... لقد خُضْنَا "الثورة الديمقراطية البرجوازية" حتى نِهَايَتِهَا القُصْوَى، وأكملنا مهامّها أكثر من أية ثورة أخرى في العالم.

---

(18) افْلَادِيمِير لِينِين، في مقاله "من أجل الذكري الرابعة لثورة أكتوبر"، نُشِرَ في جريدة "البرافدا" في 18 أكتوبر 1921، وَوَرَدَ ضمن كتاب (يحتوي على مقتطفات من أعمال لِينِين) تحت عنوان: "الثقافة والثورة الثقافية"، منشورات التقدم مسكو، الاتحاد السوفياتي، السنة 1977، من الصفحة 177 إلى الصفحة 192، (باللغة الفرنسية).

(19) أُتَرْجِمُ مقتطفات (بِتَصَرُّف شخصي)، من الفرنسية إلى العربية، مأخوذة من المرجع المذكور في الحاشية السابقة، الصفحات 177، 179.

حيث قُمْنَا بِحَذْف بَقَايَا القُرون الوُسْطَى بشكل جذري ونهائي، وكَنَسْنَا مَلَّاكِي الأراضي الكِبَار، وأنجزنا الإصلاحات الزراعية، وقُمْنَا بِتَنقِية رُوسْيَا من هذه البربرية، ومن هذه الفضائح، التي كانت تُعِيقُ كل تَنْوِير، وتفَرْمِلُ كل تَقَدُّم في بلادنا»[20].

وعن السؤال الثالث الذي هو: (إلى أين كانت الثورةُ تُريدُ الذهابَ إليه؟)، أجاب لِينِين: «بِوَعي كامل، وبِخُطَى ثابتة، وبدون أيّ انحراف، نَسِيرُ إلى الأمام نحو "الثورة الاشتراكية البْرُولِيتَارِيَة"، مع العِلم أن "الثورة الديمقراطية البرجوازية" ليست مَفْصُولة عن "الثورة الاشتراكية" بحائط الصين العظيم، ومع العلم أن الكفاح وحده سَيُحَدِّدُ مِقْدَار الخَطَوَات التي سَنَنْجَحُ في إحرازها، كما سَيُحَدِّد الجزء من مُهِمَّتنا الذي سَنُنْجِزُهُ، وسَيُحَدِّد الجزءَ من انتصاراتنا التي سَنقَوِّيها. وهي مهام أكبر بكثير من المهام القديمة. ومن سَيَعِيش، سَوْفَ يَرَى»[21].

ومن معاني مقتطفات مقال لِينِين السابق، أوّلًا، أن مَا كان يُنْجَزُ في رُوسْيَا خلال سنوات 1921 هو مهام "الثورة الديمقراطية البرجوازية"، وليس مهام "الثورة الاشتراكية البروليتارية". وثانيًّا، أن التَوَجُّه العام للنضال الثوري في رُوسْيَا، كان هو تَهْيِئ شُروط إنجاز وإنجاح مهام الثورة المُقبلة، والتي هي "الثورة الاشتراكية البروليتَارية". حيث كتب لِينِين: كُنَّا «***نَسِيرُ*** إلى الأمام ***نحو*** "الثورة الاشتراكية البْرُولِيتَارِيَة"». بِمَعْنَى كُنَّا نطمح إلى "الثورة الاشتراكية البروليتارية"، لكننا لم نَدْخُلْ مَرْحَلَتَهَا بعدُ، ولم نَبْدَأْ بعدُ في إنجاز مهام هذه "الثورة الاشتراكية".

واستفادةً من كوننا نتكلّم مِنْ بَعد حُدُوث "انهيّار الاتحاد السُّوفياتي" في سنة 1991، يمكننا أن نَنْتقِد لِينِين ورفاقه (وكذلك

(20) نفس المرجع السَّابِق، الصفحات 178، 179.

(21) نفس المرجع السابق، الصفحة 178.

خَلَفَه اسْطَالِين)، على ***سياسة حَرْق المَرَاحِل، والتَسَرُّع*** في اعتبار مهام "الثورة الديمقراطية البرجوازية" مُنْجَزَة بالكامل، في ظرف زمني وجيز نسبيًّا. ونحن نَتفَهَّم أن تهديد استمرارية الثورة من طرف أعداء كثيرين، من الداخل ومن الخارج، يَضْغَطُ في اِتّجاه تَسريع وثيرة إنجاز مهام الثورة. لكن هذا الضغط لَا يُبَرِّر سياسة التَسَرُّع، أو حَرْق المراحل، في مجال إنجاز الثورة. وقد كتب لِينِينُ: «لقد خُضْنَا "الثورة الديمقراطية البرجوازية" حتى ***نهايتها القصوى، وأكملنا مهامّها***...». بل أَكَّدَ لِينِين أن «***قُرَابَة عشرة أسابيع،*** من 25 أكتوبر 1917، إلى تاريخ حلّ الهيئة التَّأْسِيسِيَة (Constituante) في 5 يناير 1918»[22]

كانت كافية لإنجاز مهام "الثورة الديمقراطية البرجوازية". وكان هذا التَقْدِير السياسي يَتَضَمَّنُ، في (سنة 1921)، قَدْرًا من التَسَرّع. لأنه، إذا كانت السلطة السياسية الجديدة في رُوسْيَا قد قَرَّرَت عدّة إجراءات ثورية، وَسَنَّتْ عدّة قوانين (تدخل ضمن مهام "الثورة الديمقراطية البرجوازية")، فإن مُرُور، ليس فقط 10 أسابيع، بَلْ حتّى أربعة سنوات، على بداية ثورة أكتوبر 1917، لَم يكن كافيًّا لِكي تتحوّل هذه القرارات، أو الإجراءات الثورية، إلى واقع مُجتمعي عَمِيق، ورَاسِخ. لأن ***زَمَان تطوّر المُجتمع، هو أَبْطَأُ بكثير من زَمَان قرارات السلطة السياسية.***

ومن المُسْتَبْعَد أن المهام التي حدّدها لِينِين، مثل «التخلّص من تقاليد القرون الوسطى»، ومن «عُبُودِيَة الأرض» (servage)، ومن «تأثير الإقطاعية في العلاقات المُجتمعية»، ومُخَلَّفَات «المَلَكِية المُستبدة»، و«الطَوَائِف» (castes)، و«وضعية المرأة»، و«هيمنة الدّين»، و«اضطهاد القوميات»[23]، من المُسْتَبْعَد أن يكْتَمِل إنجاز هذه المهام خلال «عشرة أسابيع». هذا غير واقعي. بل قد تحتاج مُعالجة هذه المهام على الأقل

(22) نفس المرجع السّابق، الصفحة 179.

(23) نفس المرجع السابق، الصفحة 179.

إلى 10 أو 20 سنة. لأنه يَصْعُب محو تقاليد مُجتمعية سلبية، تَعُودُ لِقُرُون، خلال فقط بضعة شهور، أو بضعة سنوات. ***ولكي يستوعب المُجتمعُ القرارات الثورية الجديدة، ولكي يَتَشَبَّعَ بها، ولكي يُحَوّلَها إلى واقع مَلْمُوس ومُعَاش، يحتاج المُجتمع إلى قُرَابَة 15 أو 30 سنة، وليس إلى بضعة شهور، أو بضعة سنوات.***

ولَمَّا تقَلَّد اسْطَالِين (وأنصاره) السلطةَ السياسةَ (في سنة 1922)، سَايَرَ هذا التقْدِير المُتَسَرّع الذي يعتبر مرحة "الثورة الديمقراطية البرجوازية" مُنْتَهِيَة. بل زَادَ اسْطَالِينُ في المُبَالَغَة في هذا التَقْدِير المُتَسَرّع. وغَدَى الحزب الشيوعي يعمل كأنه بَلَغ وَسَطَ مرحلة "الثورة الاشتراكية البروليتارية"، بينما كانت البلاد تعيش، بعد ثورة 1917، وبَعد الحرب الأهلية، وبَعد الهجمات العسكرية الإمبريالية الخارجية، في تَصَدُّع، وخراب، وتخلّف نسبي.

ومِمَّا زاد المُشكلَ تعقيداً، أنه بعدما خَلَفَ اسْطَالِينُ لِينِينَ، لم يكُن اسْطَالِين (وأنصاره) في مستوى الإِدْرَاك الشُمُولِي، والجَدَلِي، الذي كان يُمَيّزُ لِينِين. ولم يكن اسْطَالِين (وأنصاره) في مُستوى استيعاب عُمْق الخَطّ السياسي اللّيْنِينِي. وقد استفاد اسْطَالِين فقط من رُكُوب الموجة الثورية الهائلة التي تركها لِينِين. ثم ارتكب اسْطَالِين سلسلة لَا تُصَدَّق من الأخطاء، والحماقات، والجرائم.

ومن بين ***الفُرُوقَات*** المُعَبّرَة الموجودة بين لِينِين واسْطَالِين، أن لِينِين كان يُلِحُّ على أن ***التَخَلُّف الكبير الحاصل في رُوسْيَا في المجال الاقتصادي (أي في مستوى نمو قِوَى الإِنْتَاج)، يفرض المُزَاوَجَة بين اقتصاد «مُؤَمَّم» [أو «اشتراكي»] واقتصاد رأسمالي.*** لأنه كان يَغْلُبُ على رُوسْيَا الطابع الفلاحي، ومُخَلَّفَات شِبْه إِقْطَاعِيَة، وكانت الصناعة فيها ضعيفة. فأطلق لِينِين ***«السياسة الاقتصادية الجديدة» (NEP)*** (في مارس 1921). والمقصود بهذه السياسة هو

تنشيط قطاع اقتصادي رأسمالي مُوَاز (parallèle). وكان لِينِين يُريد إنعاش نشاط اقتصادي رأسمالي في المُجتمع، ***يَتَمَيَّزُ بكونه جزئيًا، ومُتَحَكَّم فيه، ويَدُوم خلال فترة زمنية محدودة.*** وإلى حِين وفاته (في سنة 1924)، لم يُعْلِن لِينِين السَنَةَ التي ستنتهي فيها هذه «السياسة الاقتصادية الجديدة» الرأسمالية. وكان لِينِين يقول أنه ينبغي الاستمرار بجدِّيَة في تنفيذ هذه «السياسة الاقتصادي الجديدة» ***خلال فترة لَا تقِلُّ عن عشرة سنوات، ولَا تتجاوز مدّة 25 سنة***[24]. لكن اسْطَالِين لم يكن يَعِي الأهمية الإستراتيجية لِهذه الإشكالية. ولم يؤطّر اسْطَالِين الحزبَ الشيوعيَ الحاكمَ لكي يُعَمِّقْهَا بما فيه الكفاية. وبعد موت لِينِين، تلاشت مُقَوِّمَات «السياسة الاقتصادية الجديدة» إلى أن زَالَت، دون أن تُحَقِّقَ كل أهدافها المرجُوّة. ***وهذا الخطأ السياسي الاستراتيجي، اِنْضَافَ إلى أخطاء أخرى، وساهم في إضعاف الاتحاد السوفياتي، وفي تهيئ شروط انهياره في ظروف لَاحِقَة.***

وأُنَبِّهُ هنا إلى أن الرُّتْبَة التي عَرضتُها سابقًا حول «***مَرَاحِل***» الثَّوَرَات، والتي دَعَوْتُ فيها إلى عدم التَسَرُّع في "حَرْقِ" مَرَاحِل الثورات، هي رُؤية نِسْبِيَة، وليست مُطلقة. حيث إذا نحن بَالَغْنَا في الفَصْل المُطلق بين «مَرَاحِل» الثورات، فإننا سَنَفْقِدُ الفهم الجَدَلِي لهذه «المَرَاحِل»، وسَنَسْقُط في تصوّرات مِيكَانِيكِيَة، قد تَكُون مُبَالغ فيها، أو خاطئة. وقد رأينا في مقولة سابقة أن لِينين كتب: «بِوَعي كامل، وبِخُطَى ثابتة، وبدون أيّ انحراف، نَسِيرُ إلى الأمام نحو "الثورة الاشتراكية البْرُولِيتَارِيَة"، ***مع العلم أن "الثورة الديموقراطية البرجوازية" ليست مَفْصُولة عن "الثورة الاشتراكية" بحائط الصّين***

---

(24) Martin Edward Malia, "La Tragédie soviétique", p. 218.
.https://fr.wikipedia.org/wiki/Nouvelle_politique_%C3%A9conomique

العظيم»[25]. ومعنى هذه المَقُولة أن لِينِين لا يُقِيمُ فَصْلًا تَامًّا ومُطْلَقًا بين «مرحلة الثورة الديموقراطية البرجوازية»، و«مرحلة الثورة الاشتراكية البروليتارية». بل يعتبر لينين أن بعض مهام «الثورة الاشتراكية البروليتارية» يُمكن أن تُنجز أثناء «الثورة الديموقراطية البرجوازية». كما أن بعض مهام «الثورة الديموقراطية البورجوازية» يُمكن أن تُنجز أثناء «الثورة الاشتراكية البروليتارية». ونجد رُؤْيَة جَدَلِيَة مُشابهة لدى مَاوُو اتْسِي-تُونْغْ. حيث اِنْتقَد مَاوُو التصوّر المُبَسَّط، أو المُبالغ فيه، الوارد في «كتاب الاقتصاد السياسي للإتّحاد السُّوفْيَاتِي» (المنشور في سنة 1959)[26]، حول تَعَاقُب «مراحل الثورات» في الصّين. وكتب مَاوُو: «إنه لَمِن الخاطئ إذن أن نفَكّر [مثلما جاء في «كتاب الاقتصاد السياسي للإتّحاد السُّوفْيَاتِي»] أنه "بعد التحرير في الصّين، كانت الثورة الصّينية، في مرحلتها الأولى، تَنْتَمِي أساسًا إلى الثورة الديموقراطية؛ وأن الثورة لم تتحوّل إلَّا فيما بعد إلى ثورة اشتراكية"»[27]. وأضاف مَاوُو اتْسِي-تُونْغْ: «أثناء مرحلة حرب التحرير في الصّين، أَطْلَقْنَا نِدَاءَات للكفاح، ليس فقط ***ضدّ الإمبريالية وضدّ الإقطاعية***، ولكن أيضًا ***ضد الرأسمالية البيروقراطية***. ويكتسي الصراع ***ضدّ الرأسمالية البيروقراطية*** خاصّيَتَيْن مُزدوجتين: من جهة أولى النضال ***ضدّ الرأسمال الكُومْبْرَادُورِي*** (comprador)، وهو كفاح يدخل في إطار ***الثورة الديموقراطية***، ومن جهة ثانية، النضال ***ضدّ***

---

(25) نفس المرجع السابق، الصفحة 178.

(26) Manuel d'économie politique de l'Union Soviétique, Éditions du Progrès, Troisième édition.

(27) Mao Tsé-toung et la construction du socialisme, Édition Seuil, Paris, 1975, p.68.

البورجوازية الكبيرة، وهو كفاح يدخل في إطار ***الثورة الاشتراكية***»[28]. [التشديد من عند النوضة]. وتُؤَكِّد هذه الرُّؤْيَة الجَدَلِيَة لدى مَاوُو اتْسِي-تُونْغْ أنه كان من الضروري، في بعض الفترات، ***أن تُخَاض بشكل مُتَزَامِن*** بعض مهام «الثورة الديموقراطية البورجوازية»، وبعض مهام «الثورة الاشتراكية البروليتارية».

ومن بين القضايا التي لم يكن تِيَار اسْطَالِين يفهمها، أن ***ميزة كل مرحلة تاريخية انتقالية هي أنها تَتَضَمَّن عناصر من الماضي، وعناصر من المستقبل المُرَاد الوصول إليه.*** ولم يكن أيضًا تِيَار اسْطَالِين يفهم أن ***وجود اقتصاد رأسمالي، جُزْئِي وَمُتَحَكَّم فيه، خلال الفترة الانتقالية من «الثورة الديمقراطية البرجوازية» إلى «الثورة البْرُولِيتَارِيَة الاشتراكية»، هو وُجود ضروري.*** والغَايَة هي أن يتعلّم الاقتصاد الاشتراكي من الاقتصاد الرأسمالي كلّ المَزَايَا الإجابية، أو المُبْدِعَة، أو الفَعَّالة. كما أن المنافسة المُتَهَيِّجَة بين الاقتصادَيْنِ الرأسمالي والاشتراكي تَحُثُّ الدولةَ "الاشتراكية" القائمة على أن تَسْهَرَ على تقْوِيم الاقتصاد الاشتراكي، وتَحْفِيزِه، وتَغْلِيبِه، وتطويره، لكي يستفيد هذا الاقتصادُ الاشتراكيُّ من إيجابيات الاقتصاد الرأسمالي، ولكي يتجاوز سلبيَّاته، حتى يصبح أكثر تقدّمًا من نقِيضِه الاقتصاد الرأسمالي. ولِتَعْمِيق وعيهَا الطبقي، ولِصَقْلِ حِسِّها النقْدِي، ***تحتاج طبقة الكادحين (أو البْرُولِيتَارِيا) هي نفسها إلى التَعَلُّم مِن خلال الصِّدَام المُباشر، ومن خلال المُنافسة المَلموسة، بين علاقات الإنتاج الرأسمالية وعلاقات الإنتاج الاشتراكية.*** فمن الممكن أن يوجد اقتصاد اشتراكي جزئي داخل الاقتصاد الرأسمالي، كما يمكن أن يُوجد اقتصاد رأسمالي جُزئي داخل الاقتصاد الاشتراكي. وَبَدَلًا من

(28) Mao Tsé-toung et la construction du socialisme, Édition Seuil, Paris, 1975, p.68,

التسرّع في إلغاء التناقض بين الاقتصادين الرأسمالي والاشتراكي، عبر إلغاء وجود أحد طَرَفَيْه (أي عبر إلغاء الاقتصاد الرأسمالي)، مثلما فعل اسْطَالِين، كان ينبغي إيجاد هذا التناقض (بين الاقتصادين الرأسمالي والاشتراكي)، والتحكُّم فيه، والاستفادة منه، خلال المرحلة الانتقالية، بهدف تَغْلِيب الاقتصاد الاشتراكي، وتقوية علاقات الإنتاج الاشتراكية. ***وهو المَزْجُ الانتقالي الذي اِنْتَبَهَت الصّين إلى ضرورته،*** ونجحت في تنظيمه. [وبهذه المناسبة، أُنَبِّه إلى أن ***أحد أخطاء الحُكم القائم حاليا في الصّين (في 2019)***، هو أنه يَستعمل الاقتصاد الرأسمالي المُوَازِي فقط لتَضْخِيم حجم التنمية الاقتصادية، لكنه لَا يستغل هذا الاقتصاد الرأسمالي لِتحفيز الاقتصاد الاشتراكي، ولِتقْوِيَتِه، ولِتَغْلِيبِه. وإذا اِسْتَمَرَّ هذا الخطأ طَوِيلًا، يُمكن أن يَنْتُجُ عنه، على المدى المتوسّط أو البعيد، اضْمِحْلَال، ثم زوال، الاقتصاد الاشتراكي من الصّين]. وبعد انتهاء مرحلة المُوَازَاة بين الاقتصاد الرأسمالي والاقتصاد الاشتراكي، وبعد اكتمال استفادة الاقتصاد الاشتراكي من الاقتصاد الرأسمالي، آنذاك يمكن اللجوء إلى التدمير النهائي لعلاقات الإنتاج الرأسمالية في المُجتمع.

وَطَرح سَمِير أَمِين أن السلطة السياسية في الاتحاد السوفياتي كانت مجبرة على اختيار أحد الخيارين التاليَّين المتناقضين: «إمّا التركيز على التحالف بين الطبقة العاملة والفلاحين، أي إشراك المجتمع القروي في المشروع الاشتراكي من جانب»، و«إمَّا مُواجهة عداء وهجومات الغرب الامبريالي من الجانب الآخر». وكل خيّار كانت له نتائج ثقيلة، ومُكلّفة، وطويلة الأمد. وصعوبة حسم هذا الاختيار تَسَبَّب في «تَرَدُّدَات لدى لِينِين، وَبُوخَارِين، ثم اسْطَالِين». واتخذوا مواقف تميل أحياناً الى إعطاء الأولوية إلى "المشكلة القروية"، وتميل تارة أخرى الى التركيز على معالجة "عداء الغرب الامبريالي".

و«يقتضي خيار التركيز على التحالف العمالي الفلاحي السير بِبُطء نحو الاشتراكية؛ بينما يقتضي خيار التركيز على مواجهة الإمبريالية استعجال التصنيع، والتسليح». وقد انتقل أحيانًا الموقف بشكل مُفاجئ ومتطرّف مِن خيّار إلى نقيضه. وتجلت فُجائية الانقلاب بين هذه الخيارات في «لجوء القيادات تارةً إلى نظرية خَطِّيَة حَتْمِيَة تدعو الى احترام التتابع التاريخي الذي لا مفر منه (وبالتالي ضرورة إتمام أهداف الثورة البرجوازية، قبل الدخول في مرحلة الثورة الاشتراكية)، وتارة أخرى تَلْجَأ القيادات الى نظرية إرادوية عكسية، تقول: إن القفز فوق مرحلة الثورة البورجوازية أصبح ممكناً بفضل حكم "ديكتاتورية البرولتياريا"». و«استمر هذا التردد خلال عقد العشرينات إلى أن فرض اسْطالين خيار استعجال التصنيع والتسليح في الثلاثينيات». وأدّى هذا الخيار إلى «تصفية المجتمع القروي لصالح إقامة نظام الكُولْخُوز». وأدى «قرار تصفية المجتمع القروي الى تحطيم تحالف العمال والفلاحين، وشجّع بالتالى على الانحراف إلى ممارسة الأتوقراطية في إدارة السياسة»[29].

وفي مقال آخر لِسَمِير أَمِين، نُشِرَ تحت عُنوان : «التحدّي الذي واجهته قيادات الدول الاشتراكية»[30]، حَاوَل سمير أمين أن يشرح أن التحدّي الذي تَصَدَّت له الثورة في كُلّ مِن رُوسيا والصّين، هو «***إشراك المجتمع القروي في المشروع الاشتراكي من جانب، ومواجهة***

(29) سمير أمين، "قراءات نقدية في إخفاق الاشتراكية الفعلية". أنظر أيضا كتاب سمير أمين تحت عنوان "ثورة مصر بعد 30 يونيو"، الصادر عام 2014، وخاصة منه الفصل الثاني بعنوان "الصعود الناجح للصين".

(30) مقال سمير أمين، تحت عنوان "التحدّي الذي واجهته قيادات الدول الاشتراكية" مأخوذ من كتابه : Samir Amine, Only People make their own history, november 2018, New York, environ 240 p., extrait publiés dan Monthly Review.

عجرفة وعداء الغرب الإمبريالي من الجانب الآخر». وأضاف سمير أمين أن هذا التحدّي هو الذي يُفسّر أسباب تَرَدُّدَات لِينِين، وبُوخَارِين، ثمّ اسْطَالِين، بين إعطاء الأولوية إلى الجانب الأوّل (المشكلة القَرَوِيَة) تارةً، وتارةً أخرى إلى الجانب الثاني مِن هذا التحدّي (مُواجهة الغَرب الإمبريالي). وقال سمير أمين «***يقتضي الخيار الأول السَّيْر ببطء نحو الاشتراكية، بينما يقتضي الخيار الثاني استعجال التصنيع والتسليح***». وكانت القِيَادات السياسية تنتقل بشكل مُفاجئ من روية مُتطرّفة لهذا التناقض، إلى رؤية مُضادّة لَمْ تَقل تَطرّفًا. وأضاف سمير أمين: «لجأت القيادات تارة إلى نظرية خطّية حتمية، تَدعو الى احترام التتابع التاريخي [لِمَرَاحِل الثورة] الذي لَا مَفَرَّ منه – وبالتالي ضرورة إتمام أهداف الثورة البرجوازية قبل الدخول في مرحلة الثورة الاشتراكية – وتارة أخرى لجأت إلى نظرية إِرَادَوِيَة عَكْسِيَة تَقول إن القَفْزَ فوق مرحلة الثورة البورجوازية أصبح ممكناً بفضل حُكم "ديكتاتورية البرولتياريا"». واستمرَّ هذا التَذَبْذُب خلال سنوات 1920 إلى أن فرض سطالين خيار استعجال التصنيع والتسليح في سنوات 1930. وتَمَّت تَصْفِيَة المجتمع القروي لِصالح إقامة نظام الكُولْخُوز. وهكذا تَمَّ تحطيم التحالف الطبقي بين العُمّال والفلاحين. وتَرافَقَ ذلك مع انتشار الأساليب الاستبدادية.

وقد أوضح شَارْل بِيطَلْهَايْم رأيًا مُشابهًا لِرَأْي سمير أمين المذكور أعلاه، وَبِتَفَاصيل دقيقة، في كتابه الصخم "تاريخ الصراع الطبقي في الاتحاد السوفياتي" (في ثلاثة أجزاء). لكن شارل بيطلهايم هو الذي سَبَقَ (من الناحية الزمانية) إلى نشر هذه الأطروحة. وجزء هام من الجزء الثاني (من كتاب بيطلهايم) يحلّل تفاصيل هذه القضية.

ومُشكلنا ليس هو الخوف من التناقض. وهدفنا ليس هو نكران وجود التناقض، أو إخفاءه. وإنما غايتنا هي الاستفادة من التناقض

الموجود، والعمل على تغيير الواقع المُتَنَاقِض، وخلق صيرورة تقَدُّمية، أو ثورية، بهدف مُعالجة ذلك التناقض، ثم تجاوزه، للانتقال نحو واقع مُجتمعي آخر، يكون من مستوى أعلى. ***والصراع (المُتَحكَّم فيه) بين الاقتصاد الرأسمالي والاقتصاد الاشتراكي، تحت حكم سلطة سياسية اشتراكية أو شيوعية، هو الذي سَيُسَاعد على بناء وتعميق وتقوية اشتراكية تتميّز بتفوُّقِهَا على الرأسمالية.***

4) هل النُّمّو الاقتصادى شَرط لِنَجَاح الثورة الاشتراكيةَ؟

الماركسية هي اجتهاد نظري عِلْمِي، ونِسْبِيّ، وغير مُكْتَمِل، وغير مُطلق. وتَبْقَى الماركسية (مثل كلّ عِلم) قابلة للمُراجعة، ولِلْإِغْنَاء. وتُوجد قضايا لم يتوقّعها كارل ماركس، أو لم يدرسها بقدر كَافٍ.

وفي مَجال ***العلاقة بين مستوى النُّمُو الاقتصادي وحُدوث الثورة الاشتراكية،*** ذَكَّرَ سمير الخطيب بالمثال الذي طَوَّر فيه افْلَادِيمِير لِينِين فكر كَارْل مَارْكِس. حيث كان كارل ماركس قد طرح أن الاحتمال الأكبر هو أن الثورة الاشتراكية ستحدث في البلدان الرأسمالية الأكثر تقَدُّمًا. بينما «لَدَى لِينِين، كانت الفكرة الرئيسية أن الثورة يمكن أن تنجح في أضعف الدول الرأسمالية، وليس في أكثرها تَطَوُّرًا»[31] ! وكان لينين قد اكتشف قانون التطور الاقتصادي والسياسي غير المتساوي للبلدان الرأسمالية خلال فترة الإمبريالية. وانطلاقا من هذا القانون، حقّق لينين اكتشافًا علميًا إضافيا، هو : ***إمكانية كسر سلسلة الإمبريالية العالمية في أضعف حلقاتها ؛ واستنتج لينين إمكانية انتصار الاشتراكية، أولاً في عدد قليل من البلدان، أو حتى في بلد واحد، واستحالة الانتصار المُتَزَامِن***

(31) سمير الخطيب، في مقاله «جدلية الثورة، والديمقراطية، والاشتراكية»، على موقع "الحوار المُتمدِّن"، العددين 5588، و 5598.

للاشتراكية في جميع البلدان[32]. وأكّد لِينين أن «***الثورة تنفجر أوّلًا في الحلقة الأضعف من العالم الإمبريالي***». وكانت روسيا إبّان ثورة أكتوبر 1917 هي الحَلْقَة الْأَضْعَف. ثم تلتها الصّين. وقد أثبت نجاح ثورة أكتوبر 1917 في رُوسْيَا أن لِينِين كان على حقّ.

وفي مجال ***إسقاط سلطة البرجوازية***، تَجَرَّأَ لِينِين على تقديم تحليل جديد ومخالف لِتحليل ماركس. و«طرح لِينين أن الدولة الرأسمالية لَا تُصَدِّر البضائع فقط [مثلما طرح ماركس]، وإنما تُصدِّر أيضًا أزماتها. ومن هنا جاء تحليل لِينِين بأن الإمبريالية هي أعلى مراحل الرأسمالية، وبأن الرأسمالية لن تسقط في أقوى الحلقات حسب تَوَقُّعات ماركس، ولكنها ستسقط في أضعف حلقاتها»[33].

ويُطرح التساؤل التالي: في تلك الفترة التاريخية، لم تكن روسيا والصّين هما وحدهما الحلقتان الأضعف، بل كانت أيضا الهند. فلماذا لم تنجح الثورة الاشتراكية كذلك في الهند؟ أجاب ماوُو تْسِي تُونْغْ: لأن الهند كانت خاضعة للإمبريالية البريطانية، بينما كانت الصّين خاضعة لعدّة إمبرياليات. ولأن الحزب الشيوعي في الهند لم يُشارك بِفَعَالِيَة في الثورة الديموقراطية البرجوازية في بلاده، ولأنه لم يَفْلَح في تَبَوُّءِ الدور القيادي أثناء هذه الثورة الديموقراطية البرجوازية، ولأنه لم ينجح في صِيَّانَة استقلال طبقة البروليتاريا، ولأن هذا الحزب الشيوعي في الهند لم يكن قد بلغ ***المستوى الضروري من النُّضْج السياسي***، بينما التجارب التاريخية في روسيا والصّين أكّدت أن ***وجود حزب شيوعي ذي مستوى عال من النّضج السياسي هو شرط ضروري لنجاح الثورة***[34].

---

(32) https://d-meeus.be/marxisme/manuel/part2resect10.html

(33) سمير الخطيب، نفس المصدر السابق.

(34) Mao Tsé-toung et la construction du socialisme, présentation de Hu

ويمكن قراءة إشْكَالية إقْلَاع التنمية الاقتصادية في الصّين من زاوية مسألة ***العلاقة بين مستوى النُّمُو الاقتصادي، واحتمال نجاح الثورة الاشتراكية.*** سَأُوَضّح. بين الثورة البورجوازية في سنة 1911 وسنة 1926، عاشت الصّين 15 سنة من الحروب الثورية، وحروب «أُمَرَاء الحَرب» المُدَعَّمِين من طرف الإمبريالية. وبين سنتي 1927 و 1949، عاشت الصين حربا ثورية مُتواصلة، قادها الحزب الشيوعي الصّيني[35]. وقبل انتهاء تحرير الصّين في سنة 1949، كان يُوجد في الصّين نظامٌ سياسي تَبَعِي لِلْإِمْبِرْيَالِيَة، وكانت تُوجد فيه رأسمالية، وكذلك بقايا إقطاعية، وكان النظام السياسي في الصّين يعجز على تحقيق التنمية الاقتصادية. فبقيت الصّين بلداً متخلّفًا. وهكذا حدثت في الصين حرب أهلية، وحرب تحرير وطنية، وَتُوّجَت بِـ «ثورة اشتراكية». وقد اِتَّبَع الحزب الشيوعي الصيني عُمُومًا خطًّا سياسيا «شِيُّوعِيًّا» ثوريًّا بين سنتي 1949 و 1976. ورغم تَثْبِيت واسْتِمْرَارية «الثورة الاشتراكية» في الصّين، فإن هذا البلد بقي على العُموم بلدا فِلَاحِيًّا، ومُتَخَلّفًا نِسْبِيًّا في مجال الاقتصاد. ولم تستطع الصين أن تتحوّل بسرعة مُرضية إلى بلد صناعي. لأن التصنيع يحتاج إلى استثمارات ضخمة، ومتواصلة، وتتجاوز هذه الحاجيّات قُدُرَات الدولة الصينية النَاشِئَة. وأدرك بعض أطر الحزب الشيوعي الصّيني أن هذا التخلّف النسبي في المجال الاقتصادي يُبْقِي الصّين في حلقة مُفْرَغَة (cercle vicieux) من التخلّف. بل يُهدّد أمن الصين، ويُهدّد حتى استمرارية «الثورة الاشتراكية» فيها. وكان الحلّ الذي اِتَّجَهَ نَحْوَه الحزب الشيوعي الصيني، على الخُصُوص منذ قرابة سنة 1976، هو ***المُزَاوَجَة بين اقتصادين اشتراكي***

.Chi-hsi, Éditions Seuil, Paris, 1975, p.64

(35) Mao Tsé-toung et la construction du Socialisme, (Textes présenté par .Hu Chi-hsi), Édition du Seuil, Paris, 1975, p.80

ورأسمالي. فشجّعت السلطة الصينية المبادرات الاقتصادية الخُصوصية، ودخلت الصين في انفتاح تدريجي ومُتصاعد على السوق العالمية الرأسمالية، تحت قيّادة الحزب الشيوعي الصيني. وبعد مرور قرابة 40 سنة على دخول الصين في سياسة «***بلد واحد بنظامين اقتصاديَّين***» (واحد اشتراكي، والثاني رأسمالي)، أصبحت اليوم جَلِيَّةً مظاهرُ تنميةٍ اقتصاديةٍ هائلة في الصين. وغدت الصين من بين دولة العالم الصناعية المتقدمة في مُجمل الميادين التكنولوجية. ولو أن الصّين، وإلى حدود سنة 1995، ظلّت تعتبر نفسها رَسْمِيًّا «من ضِمن البلدان السَّائرة في طريق النموّ».

لِنُلَخِّص الآن المَشْهَد: كارل ماركس توقّع حُدوث الثورة الاشتراكية في البلدان الرأسمالية الأكثر تقدّمًا (مثل إنجلترا، وألمانيا، الخ). لكن الثورة الاشتراكية لم تحدث في هذه البلدان الرأسمالية الأكثر تقدما. وإنما ***حدثت الثورة الاشتراكية [كما اِسْتَشْرَفَ ذلك لِينِين] في البلدان التي كانت تُجَسِّد، خلال المرحلة التاريخية المعنية، الحَلَقَات أَلْأَضْعَف (في المنظومة الرأسمالية العالمية)***، مثل روسيا، والصين، وفِيتْنَام، وكوريا الشمالية، وكوبا، إلى آخره. لكن البلدان «الاشتراكية»، التي لم تفْلَحْ (بعد مُرور قرابة 50 سنة) في تحقيق مُستوى مُتقدّم نِسبيًّا من النمو الاقتصادي الشَّامل، مثل روسيا، كان مصيرها هو الانهيار (لأسباب مُرَكَّبَة). ***وإذا لم تنجح البلدان «الاشتراكية» الأخرى، مثل كُوبَا وكُورْيَا الشمالية وفِتْنَام، في إنجاز قَدْرٍ مُرْضٍ مِنَ التنمية الاقتصادية، في أجل لا يتجاوز كثيرًا قرابة 50 سنة، فإن مصيرها سيكون هو الإفلاس (مثلما حدث في الاتحاد السّوفياتي)***. أمَّا البلدان «الاشتراكية» التي وَجدت سَبِيلًا لتحقيق مستوًى مُتقدّما نِسبيًّا من النمو الاقتصادي، مثلما حدث في الصين)، أصبحت أقوى بكثير مِمَّا كانت عليه قبل الثورة. وقد يكون

لِعَوَامِل مُجتمعية أخرى (مثل الحَجْم السُكَّانِي، أو التقاليد الثقافية، الخ) دور فَعَّال أو كبير. فمثلًا فِتْنَام، إِتَّبَعَت سياسة اقتصادية قريبة نِسبيًّا مِن سياسة الصين (أي سياسة بلد واحد بنظامين اقتصاديّين)، لكنها لم تحصل، مثل الصّين، على دِينَامِيَّة قوية في مجال التنمية الاقتصادية. رُبَّمَا لأن العَامل الدّيمُوغْرَافِي الموجود في فِتْنَام (92 مليون نَسَمَة في سنة 2016) لم يَبْلُغ "الحَجْم الحَاسِم" (taille critique) الذي كان موجودًا في الصّين (قرابة 1 مليار نسمة).

وفي حالة ***كُوبَا*** الاشتراكيةَ، ذات الحجم الصّغير (على مُجمل مستويات الجغرافية، والسُكَّان، والاقتصاد)، والتي عَانَت خلال أكثر من 50 سنة من أضرار ***حِصَار اقتصادي*** قَاتِل، مَفْرُوض عليها من طرف الإمبريالية الأمريكية، ظَهَرَ كأن الحزب الشيوعي الكُوبِي الحاكم اِسْتَوْعَبَ المُقَارَنَة بين تجربتي الصّين والاتحاد السوفياتي. فَدَعَا الحزب الشيوعي الكُوبي المواطنين، في 24 فبراير 2019، إلى نقاش، ثم إلى التصويت على تَعْدِيل جديد للدستور، يُبِيحُ اقتصاد السُّوق، والملكية الخاصة، والمبادرة الاقتصادية، ويُحَافِظ في نفس الوقت على أهمّ عناصر النظام الاشتراكي (مثل صيانة الطابع الاشتراكي للدولة، والدور القيادي للحزب الشيوعي، والتخطيط الاقتصادي، والمقاولات العُمُومية، إلى آخره). وظهر كأن هَمَّ الحزب الشيوعي الكوبي هو ***الخروج من الحلقة المُفْرَغَة للفقر***، مع صيّانة استمرارية الاشتراكية، في انتظار ظروف أحسن. وأصبح التحدّي هو التالي: إمَّا أن يُنْجِزَ النظام الاشتراكي في ***كوبا*** قدرًا مُرضيا من ***التنمية الاقتصادية***، وإمَّا أن يزول.

لِنُعِدْ تَصْوِير المَشْهَد السياسي السّابق: كارل ماركس توقّع ***حدوث الثورة الاشتراكية في البلدان الرأسمالية الأكثر تقدّمًا*** (أي أن ماركس ***يشترط وجود حَدٍّ أدنى في مستوى النمو الاقتصادي***). لكن لِينِين أثبت في المُمَارَسَة ***إمكانية حدوث الثورة الاشتراكية في***

البلدان التي هي الحلقات الأَضْعَف (مثل روسيا، ثم الصين، إلى آخره)، ولو لم يكن فيها مستوى النمو الاقتصادي كافيا. ***ثم حدثت تطورات كثيرة في الاتحاد السوفياتي، من بينها أنه، ولَوْ بَعد مُرور أكثر من 70 سنة على بداية «الثورة الاشتراكية»، تَأَخَّرَ، أو غَابَ، إِحْدَاثُ قَدر كَاف من النُمُوّ الاقتصادي، فانهار الاتحاد السوفياتي، ورجعت إليه الرأسمالية.***

ولماذا لم يَنجح الاتحاد السّوفياتي في تحقيق ***نُمُوّ اقتصادي مُرض***، ولو بعد مرور أكثر من 70 سنة على بداية الثورة الاشتراكية؟ المسألة مُعقّدة، وتحتاج إلى دراسة دَقِيقة، وضخمة، على شكل كتاب أو عِدّة كتب إضافية. (وفي هذا الموضوع، ساهم شارل بيطلهايم في جَمع وتحليل كَمّ هائل من المعطيات في كتابه الضّخم "تاريخ الصراع الطبقي في الاتحاد السوفياتي"، في ثلاثة أجزاء). وقد لَخَّصَ مُنِير شَفِيق جزءًا من ***العوائق*** التي منعت الاتحاد السوفياتي مِن تحقيق تنمية اقتصادية كافية، حيث كتب شفيق: «لَقَد عانَى الاتحاد السوفياتي مرحلة ***الحرب الأهلية المُدَمّرَة*** ما بين سنتي 1917 و 1924، ثم ***حرباً عالمية*** ثانية دَمَّرَتْه تدميراً. وقد سبقها ***حِصَار خانق*** بين سنتي 1924 و 1941. فالهوّة بين المعسكر الغربي والمعسكر الاشتراكي كانت هائلةً جداً مِن الناحية الاقتصادية والمالية والانتاجية والعلمية والتقنية. ولم يكن الاتحاد السوفياتي نَدًّا إلاّ بالقُدرات العسكرية التي حالت دون حسم الصراع معه من خلال الحرب»[36]. وأضاف شفيق أن الولايات المتحدة الأمريكية كانت تستفيد مِن مُوَازَنَة مَالية مُرِيحَة، بسبب الفارق الكبير من حيث الإمكانات المالية والاقتصادية التي كانت تتمتع بها طِوَال الوقت. ويعود عُمُومًا تَفَوُّق أمريكا، تاريخياً

(36) مُنِير شَفِيق: https://www.trtarabi.com/opinion/حول-الحرب-الباردة-للصين-على-الولايات-المتحدة-الأمريكية-5088583

وحاضراً، لنهبها العالم، وكذلك لِقُدراتها التقنية والإنتاجية والتجارية والاقتصادية. وأشار مُنير شفيق إلى أنه يُدرك أن انهيار الاتحاد السوفياتي لَا يُفَسَّرُ فقط ***بالعامل الاقتصادي،*** حيث كتب: «لَا يصح أن يُعزى اِنْهِيَّار الاتحاد السوفياتي إلى السبب الاقتصادي كتفسيرٍ تبسيطي، إذ يجب أن يُقرأ بعمق. فعلى سبيل المثال مرّ (الاتحاد السوفياتي) في سنوات 1920 و 1930 ، وفي أثناء الحرب العالمية الثانية، بظروف اقتصادية أصعب بكثير، وبما لا يقاس، بصعوباتها الاقتصادية في أواخر سنوات 1980. لذلك، فإنّ ما كان وراء الانهيار أسباب أخرى بالتأكيد»[37].

وإن لَم يَنجح الاتحاد السوفياتي في تحقيق ***قَدْر مُرض مِن التنمية الاقتصادية،*** وَلَوْ بَعد مُرور أكثر من 70 سنة على بداية «الثورة الاشتراكية»، (حيث سَاهَمَ هذا الضُّعف في تَسْهِيل ***اِنْهِيَّار الاتحاد السوفياتي،*** وَقَادَه إلى الرُّجُوع إلى الرأسمالية)، فَمَاذا أنجزت الصّين في هذا المجال؟ اِسْتَفَاد الحزب الشيوعي الصّيني مِن أخطاء الاتحاد السّوفياتي. وعرفت قيّادة الحزب الشيوعي الصيني ***كيف تُحدث مُسْتَوًى مُهِمًّا من النمو الاقتصادي. وهكذا بَقِيَ قَائِمًا في الصّين نظام سياسي «اِشتراكي»***. وبقيَ فيها نفس الحزب «الشيوعي» حاكمًا. وبعد تحقيق النمو الاقتصادي في الصّين، أصبح بِإِمْكَان الحزب الشيوعي الحاكم، إن أراد، أن يرجع إلى الاشتراكية، وأن يُعمّقَها أكثر مِمَّا كانت من قبل. كما أصبح بِإمكان هذا الحزب الحاكم، أن يَفْقِدَ الثِقَة في الاشتراكية، أو أن يَفْقِد التَحكُّم في الاقتصاد الرأسمالي المُوَازِي، وأن يُقرّر البقاء في الرأسمالية، وإلغاء الطموح إلى الاشتراكية. بمعنى أن كل التطوّرات تبقى مُمكنة في الصّين.

(37) نفس المصدر السابق.

وفي ظاهر الأمور، يمكن القول أن لِينِينُ غَلَبَ ماركسَ. لأن لِينِين أثبت في الواقع الملموس إمكانية نجاح الثورة الاشتراكية في بلد هو «حَلَقَة ضَعِيفة»، ولو لم يكن ***مستوى النموّ الاقتصادي*** متقدّمًا في هذا البلد المعني. لكن إذا أخذنا بعين الاعتبار استمرارية "الثورة الاشتراكية" على مدى الزمان التاريخي المتوسِّط أو الطويل، نجد أن ماركس هو الذي مَعَه الحَق. لأنه إذا لم تستدرك "الثورة الاشتراكية" النَقْص الحاصل في مجال النمو الاقتصادي، يكون مصيرها هو الانهيّار، أو الإفلاس، ثمّ الزوال (مثلما حدث للاتحاد السوفياتي).

ونستخرج من المشهد السّابق ***الخلاصة الجزئية*** التالية: أن وُجود مستوى حَدّ أَدْنَى من النمو الاقتصادي هو شرط من بين الشروط المُحَبَّذَة لِقيام، أو لِنَجَاح «الثورة الاشتراكية» في بلد مُحدّد. لكن من الممكن أن تحدث «الثورة الاشتراكية» في بلد مُعَيَّن (إذا كان هو الحَلْقَة الأضْعَف)، ولو أن شرط الحد الأدنى من النمو الاقتصادي لا يتوفّر بالقدر الكافي في هذا البلد. وحتى إذا نجحت «الثورة الاشتراكية» في هذا البلد المعني (الذي هو الحلقة الأضعف)، فإن استمرارية «الثورة الاشتراكية» في هذا البلد تبقى مشروطة بِنَجَاح النظام السياسي «الاشتراكي» القائم فيه بِاسْتِدْرَاكِ النقْص الحاصل، وتحقيق مُستوى مُتقدّم من النمو الاقتصادي، خلال ظرف زماني لَا يتجاوز، على أكبر تقدير، قرابة 50 سنة. بمعنى أن ***حدوث مستوى مُتقَدّم من النمو الاقتصادي، هو إمَّا شرط قَبْلِيٌّ لحدوث الثورة الاشتراكية، وإمَّا شرط بَعْدِيٌّ لِاسْتِمْرَارِيَة هذه الثورة الاشتراكية.*** ومن بين أسباب انهيار الاتحاد السوفياتي، أنه لم يُنجز النُمُوَّ الاقتصادي بقدر كاف حتى بعد مرور قرابة 70 سنة على انطلاق الثورة.

5) لِمَاذا تَحَوَّلت دِيكْتَاتُورِيَة البْرُولِيتَارْيا إلى نَـقِيضِهَا ؟

بَعْد انهيّار الاتحاد السُّوفْيَاتِي، قَام الكثير مِن السياسيّين الرَّأْسَمَالِيّين، والمُفَكّرِين البُورْجوازِيّين، بِاستِغْلَال هذا الانهيّار لِلهُجُوم على الماركسية. وَزَعَمُوا أنها مُجرّد يُطُوبْيَا (utopie) (أو مَدِينَة فَاضِلَة)، أي أنها مُسْتَحِيلَة التَحْقِيق. وَوَصَفُوا الاشتراكية بِأَنّها مُجرد وَهْم.

والأطروحة الماركسية التي حَظِيَت بِأَكْبَر قَدْر مِن هُجوم المُفَكّرِين البُورْجْوَازِيّين، هي أطروحة «***دِكْتَاتُورِيَة البْرُولِيتَارْيَا***» (dictature du prolétariat)[38]. وَهُم في نفس الوقت، يَتَجَاهَلُون وُجُود «دِيكْتَاتُورِيَّة الطبقة البُورْجْوَازِيَة»، القَائِمَة في مُجتمعاتهم. وَيَعتبر أعداء الماركسية أن «دِيكْتَاتُورِيَة البُورْجْوَازِيَة» هي شيئ عَادِيّ، وَمَشْرُوع، وَقَانُونِيّ. وَمَارَسَ المُفَكّرُون البُورْجْوَازِيُّون ضغطًا هَائِلًا على كُلّ فَاعِل سيّاسي تَقَدُّمِي، أو دِيمُوقْرَاطِي، لِكَيْ يَشْهَد بِأنه يَرْفُضُ «دِيكْتَاتُورِيَة البْرُولِيتَارْيَا»، أو يَنْبُذُهَا. وَهكَذَا أصبح مُعظم الأشخاص «الاشتراكيّين الدِّيمُوقْرَاطِيّين»، المُلْتَزِمِين بالعمل في إطار النظام الرأسمالي، مُجْبَرِين في كلّ مُنَاسَبَة على إِشْهَار نَوَايَاهُم المُحَافِظَة، أو الإِصْلَاحِيَّة، عبر

(38) بشيء من التَبْسِيط، أو التلخيص، "البْرُولِيتَارِيَا" هي الطبقة العاملة. وتتكوّن من الأشخاص الذين لَا يملكُون رَأْسَمَال، ولَا وَسَائِلَ إنتاج، فَيَضْطَرُّون إلى بيع "قُوَّةِ عَمَلِهِم" مُقَابِلَ أُجْرَة دَوْرِيَة، بِهَدَف تَلْبِيَة حَاجِيَّاتِهم المادية. وإذا دخلنا في التفاصيل، يمكن أن تتعقَّد الأمور أكثر.

التَعْبير عن رَفْضِهِم لِـ «ديكْتَاتُورِيَة البْرُولِيتَارْيَا». وَغَدَى رَفْض «ديكْتَاتُورِيَة البْرُولِيتَارْيَا» شَرْطًا مَفْرُوضًا على كلّ شَخْص «اِشْتِرَاكِي» يُرِيد أن يَكُون مَقْبُولًا مِن طَرَف الطبقة البورجوازية السَّائِدَة، سَوَاءً في مَجالات الانتخابات، أم في مَيْدَان الإعلام الرَّسْمِي. بَيْنَمَا كان لِينِين يُعرِّفُ الشخص الماركسي بِكَوْنِه «يُمَدِّدُ إعترافه بِوُجود الطبقات المُجتمعية، أو بالتناقضات الطبقية، أو بالنضال الطبقي، إلى الإعتراف أيضًا بِضَرُورة ديكْتَاتُورية البروليتاريا»[39].

وقد سبق لِـ كارل ماركس أن كَتَبَ عن جوهر مذهبه: «الجديد الذي أَتَيْتُ به هو : 1) إثبات أن وُجود الطبقات مُرتبط فقط بِمَراحل تاريخية مُحدّدة مِن تَطَوُّر الإنتاج ؛ 2) أن الصراع الطبقي يؤدي بالضرورة إلى دكتاتورية البروليتاريا ؛ 3) أن ديكتاتورية البروليتارية، بحد ذاتها، لا تُمَثِّلُ سوى انتقالًا مَرْحَلِيًّا نَحْوَ إلغاء جميع الطبقات، نَحْو مجتمع لَا طَبقي»[40].

وَتُعِيبُ النُخَبُ اللّيبيرالية (أو الرأسمالية) على الشيوعية، وعلى الاشتراكية، أنها تريد إقامة نظام سياسي مبني على أساس «***دِكْتَاتُورِيَة البْرُولِيتَارْيَا***» (dictature du prolétariat). ويُوهِمُون الشعب بأن «الديمقراطية» تُوجَدُ ***فقط*** في «الرأسمالية»، وتتطابق معها. ويتناسون، بشكل مُتَعَمَّد، أن اللّيبيرالية، أو الرأسمالية، تقُومَان، على أساس ***ديكْتَاتُورِية الطَبَقَة البُرجوازية***[41]، ولو أن ديكتاتُورية البرجوازية تَبْقَى

(39) لينين،" الدولة و الثورة "، ص 35–36، الطبعة العربية، دار التقدّم، موسكو.

(40) K.Marx to Weydemeyer، March 5، 1852، Internet: https://www.marxists.org/english/marx/works/1852/03/km18520305.htm. Cité par : Stefan Engel, La crise de l'idéologie bourgeoise et de l'anticommunisme, 1ière partie, Verlag Neuer Weg, Septembre 2021, p. 66. www.neuerweg.de

(41) في كتابه «طبقات المُجتمع»، لا يستعمل رحمان النوضة مُصْطَلَح «طبقة البرجوازية»، وإنما يستعمل مُصْطَلَح «طبقة المُسْتَغِلِّين». وقسّم «المُسْتَغِلِّين» إلى

مُمَوَّهَة (camouflée). ويتكلّم الرأسماليون، كأن المُجتمع الرأسمالي لَا تُهَيْمِن فيه أيّة طبقة. أو كأن «الطبقات» لَا توجد في المُجتمع الرأسمالي، ولَا تتصارع فيه. وَيَتَلَافَوْن الاعتراف بوُجود طبقات سَائِدَة، وطبقات مَسُودَة، في المُجتمع الرَّأْسَمَالِي. وحتّى إذا اعترفوا بوجود «طبقات» مُتَمَيّزَة في المُجتمع، فإن خِطَابَاتِهم تُوحِي أن هذه الطبقات تَبْقَى «مُتَسَاوِيَة تمامًا». بِمَعْنَى أنها لَا تختلف في أيّ شيء. بينما الرأسمالية هي ***الديكتاتورية المُسْتَتِرَة، أو المُمَوَّهَة، للطبقة البرجوازية.*** وهذه الطبقة البُورْجْوَازِيَة السَّائِدَة هي طبقة المُسْتَغِلّين الكِبار[42]. وتَتَكَلَّفُ الدعَايَة الرأسمالية بِمُغَالَطَة المواطنين، وتَدْوِيخِهم، وإِغْرَاقِهِم في الاسْتِلَاب (aliénation). وَتَتَلَاعَب طبقةُ المُسْتَغِلّين الكبار بمؤسّسات الدولة، وبإِنْتَاج القوانين، وتَكْيِيفِهَا، وتَصْرِيفِها، بهدف تَمْوِيه (camoufler) الاِسْتِغْلَال الرأسمالي. وَتُمَارِس طبقة المُسْتَغِلّين الكِبَار السَّطْو، والاضطهاد، والفَسَاد، والاستبداد، دون أَيّ اكْتِرَاث، لَا بالقَوانين، ولَا بالعَدل، ولَا بالأخلاق.

وبالرجوع إلى الأصل النظري، نجد أن كارل ماركس (K. Marx) وافريدريش إنجلس (F. Engels) كانا سَبَّاقَيْن إلى القيّام بِنَقْد مُعَمَّق لِنَمَط الانتاج الرأسمالي. ووَضَعَا الأسس العامّة لِاسْتْرَاتِيجِيَة وَلِتَكْتِيك كِفَاح طبقة المُسْتَغَلّين، وللثورة الاشتراكية العالمية. [وفي لغة

«طبقة المُسْتَغِلّين الصِّغار»، و«طبقة المُسْتَغِلّين المتوسّطين»، و«طبقة المُسْتَغِلّين الكبار». وحدّد أيضًا «طبقة المُسْتَغَلّين»، و«طبقة الذين لَا يَسْتَغِلُّون ولَا يُسْتَغَلُّون». ويمكن تنزيل هذا الكتاب من مدوّنة الكاتب: https://livreschauds.wordpress.com/2012/05/12/كتاب-طبقات-المُجتمع-رحمان-النوضة/.

(42) أنظر كتاب رَحْمَان النُوضَة، "طبقات المجتمع". ويمكن تنزيله بالمجان من مُدَوَّنَتِه.

الاشتراكيين الأوروبيّين، يَستعملون عادةً مَفْهُوم طبقة "البْرُولِيتَارْيَا" للكلام عن طبقة المُسْتَغَلّين]. واعتبر ماركس وإنجلس «***دِيكْتَاتُورِيَة البْرُولِيتَارْيَا***» كَمَرْحَلَة اِنْتِقَالِيَة ضَرورية في التَطَوُّر التاريخي، على طريق الكفاح نحو المجتمع الشيوعي، الخَالِي مِن الاِسْتِغْلَال الرّأْسَمَالِي، وَمِن الطَّبَقَات.

وَكَارْل مَارْكَس وافْرِيدْرِيش إِنْجَلْس، هما مِن بين المُفكّرين الأُوَّلِين الذين نَادَوا بِتَطبيق «***دكتاتورية البروليتاريا***» خلال الثورة الاشتراكية الاِنْتقَالِيَة (وذلك اسْتِرْشَادًا بِدروس اِسْتَخْلَصَاهَا مِن عِدّة ثورات، مثل ثورات سنوات 1789، و 1830، و 1848، وكُمُونَة بَاريس في سنة 1871، في فرنسا).

ومَا هي «***دِيكْتَاتُورِيَة البروليتاريا***»؟

لِتَوْضِيح ضَرُورَة «***دِيكْتَاتُورِيَة البروليتاريا***»، مُنْذ بِدَايَة نَجَاح ***الثَّوْرَة المُجتمعية***، تَنَاوَلَ كارل ماركس وافريدريش إنجلس في "البَيَان الشيوعي" الخُطُوط العَرِيضَة لِـ : «مَراحل تَطَوُّر البْرُولِيتَارْيَا». وَطَرَح ماركس وإنجلس: «تُؤَسِّسُ البْرُوليتاريا هَيْمَنَتَهَا الطبقية عَبْرَ الإطاحة العَنِيفَة بالبرجوازية». وَأَضَافَا : «سَوْف تَسْتَخْدِم البروليتاريا هَيْمَنَتَهَا السياسية بِهَدَف اِنْتِزَاع كلّ الرَّأْسَمَال شيئًا فشيئًا من البرجوازية؛ وَبِهَدَف مَرْكَزَة جميع أدوات الإنتاج في أَيْدِي الدولة، أَيْ في أَيْدِي البْرُوليتاريا المُنَظَّمَة كَطَبَقَة سَائِدَة؛ وَبِهَدَف الزِّيَادَة بِأَسْرَع ما يمكن في نُمُوّ كَمِّيَة القِوَى المُنْتِجَة»[43]. وَيَتَّضحُ هكذا في رُؤْيَة ماركس وَإنجلس أن «***الدَّوْلَة***» ***الثورية البديلة، هي «البْرُوليتاريا المُنظمة كَطَبَقَة سَائِدَة»***. وهذه «***البْرُوليتاريا المُنَظَّمَة كَطَبَقَة سَائِدَة» هي بِالضَّبْط «دِيكْتَاتُورِيَة البروليتاريا»***. وكتب ماركس عن

(43) K. Marx et F. Engels, Manifeste du Parti Communiste, Éditions Sociales, Paris 1957, pp. 25, 34.

هذه الدولة الثورية الجديدة، أي عن «ديكْتَاتُورِيَة البروليتاريا». أن «***الكُومُونَة*** (la Commune) ***لَا يَجب أن تكون كِيَانًا بَرلمانيًا، بل يجب أن تـكون، في نفس الوقت، هيئة فَاعِلَة، وَتَنْفِيذية، وَتَشْرِيعِيَة***» (لينين، الدولة والثورة، ص 61). وَسَوَاءً في كِتَاب "البيان الشيوعي"، أم في كتاب "الحرب الأهلية في فرنسا"، كان ماركس يُشَدِّد على إبْرَاز صِفَة «***البروليتاريا، كَطَلِيعَة مُسَلَّحَة***»، (لينين، ص 61)؛ وعلى أن «دكتاتورية البْرُولِيتَارْيَا» هي «***دولة العُمّال المُسَلَّحين***». (لينين، ص 61). ... «»

وَفي كتابه "الدّولة والثورة"، ذَكَّرَ افْلَادِيمِير لِينِين بهذه المَقُولات السَّابِقَة لِلْمُثَنَّى ماركس إنجلس. وَكَتَبَ لِينِين بعد التَذْكِير بِهَا : «لَا يُمكن الإطاحة بالبرجوازية إلَّا إذا تحوّلت البروليتاريا إلى طبقة سَائِدَة، قَادرة على قمع المُقاومة المَحْتُومة واليَائِسَة للبرجوازية، وَإلَّا إذَا نَظَّمَت البْرثولِيتَارْيَا كُلَّ الجَمَاهِير الكَادِحَة وَالمُسْتَغَلَّة من أجل نظام اقتصادي جديد»[44]. وَطَرَح لِينِين: «لذلك، في هذه الفترة [أي فترة الانتقال من الرَّأْسَمَالِيَة إلى الشِيُوعِيَة] يجب أن تكون الدولة بالضَّرورة ديمقراطية بطريقة جديدة (تُجَاهَ البْرُولِيتَارِيِّين وغير المَالِكِين بشكل عام)، وأن تكون ديكتاتورية بطريقة جديدة (تُجَاهَ البُورْجْوَازِيَة)»[45]. وَلَم يَطْلُب لِينِين أن تُمارس الدولة الجديدة «***ديكْتَاتُورِيَة البروليتاريا***» بِشَكل عام، ضِدَّ كل سُكَّان البلاد، وَبِلَا تَمْيِيز، وَإنما طَرَح أن تكون الدولة «***ديموقراطية*** بطريقة جديدة (تُجَاهَ البْرُولِيتَارِيِّين وغير المَالِكِين

(44) V. Lénine, L'État et la révolution, Éditions en langues étrangères Moscou, 1967, p. 35. [Tome 25 de la quatrième édition des Œuvres de V. Lénine, préparée par l'Institut du marxisme-léninisme près le C.C. du P.C.U.S].

(45) V. Lénine, L'État et la révolution, Éditions en langues étrangères Moscou, 1967, p. 44.

بشكل عام)، ***وأن تكون ديكتاتورية*** بطريقة جديدة (تُجَاهَ البُورْجْوَازِيَة)».

وَأَضَافَ لِينِين: «طِبْقًا لِمَاركس، فإن كل ما تحتاجه الْبْرُولِيتَارْيَا هو دولة في طَوْر الْاِنْقِرَاض، أي دولة مُكَوَّنَة بطريقة تبدأ فورًا في الزَّوَال، دُون أن يَكُون بِإِمْكَان هذه الدولة الفَشَل في هذا الانقراض»[46]. وَقَد أَكَّدَ ماركس إِذَن على أن تَكُون هذه الدّولة (وكذلك ديكْتَاتُورِيَة الْبْرُولِيتَارْيَا) مُكَوَّنَة بِطَرِيقَة خاصَّة تَجعلها مُجْبَرَة على أن تَكُون في صَيْرُورَة الاِنْقِرَاض.

وَطِوَالَ حَياتِهما، ظَلّ ماركس وإنجلس يَنْتَقِدَان التيَّارَات السياسية الإصلاحية، والمِثَالِيَة، والانتهازية، التي تُؤْمِنُ بِـ «الدّيمُوقْرَاطِيَة البُورْجْوَازِيَة»، وَتَحْلُمُ بِـ «ثورة هَادِئَة»، والتي تَتَّجِهُ نَحْوَ نَوْع مِن «التَوَافُق الطَبَقِي»، بَيْن طَبَقَات المُجتمع الرَّأْسَمَالِي، والتي يَسْتَحِيل أَصْلًا التَوْفِيق فيما بينها.

وَكَان ماركس يَقْصِد بِعِبَارة «ديكْتَاتُورِيَة البروليتاريا» أن تُطِيح طبقة البروليتاريا بِسُلطة الطبقة البورجوازية الكبيرة، عَبْرَ ثَوْرَة مُجتمعية عَنِيفَة، وأن تُمَارس البروليتاريا سيطرةً طبقيةً فعَّالةً على الطبقة البورجوازية. والهدف مِن سَيْطَرَة الْبْرُولِيتَارْيَا على البُورْجْوَازِيَة، هو مَنْع هذه البورجوازية مِن أن تَقُوم بِثورة مُضادَّة. والغَايَة من «ديكْتَاتُورِيَة الْبْرُولِيتَارْيَا»، هي أيضًا إِحْبَاط كلّ مُحاولات البُورْجْوازِية الرَّامِيَة إلى إِفْشَال التَغْيِيرات المُجتمعية الثورية التي تُنْجِزُهَا الثورة الاشتراكية.

فَلَا يُعْقَل أن تَقُوم طبقة الْبْرُولِيتَارْيَا بِثَوْرَة مُجتمعية، وَأَن تُطِيحُ بِـ «ديكْتَاتُورِيَة البُورْجْوَازِيَة»، دُون أن تَتَّخِذَ هذه الْبْرُولِيتَارْيَا جميعَ التَدَابِير الضَرُورِيَة لِرَدْع البُورجوازية مِن أن تَقُوم بِثَوْرَة مُضَادَّة.

(46) V. Lénine, L'État et la révolution, Éditions en langues étrangères Moscou, 1967, p. 34, sur 154 pp.

وَالسَّبِيل لِمَنْع البُورْجْوَازِيَة مِن أَنْ تَنْتَقِم من البروليتاريا، هو بالضَّبْط ديكتاتورية البْرُوليتَارْيَا.

فَمَعْنَى «***ديكْتَاتُورِيَة البروليتاريا***»، لدى كارل ماركس، هو حُكْم أغلبية الشعب الكادح، أو الديموقراطية الشعبية الثورية، أو ديموقراطية العُمال والفَلَّاحِين الثوريّين. وَتُمَارَسُ عَمَلِيًّا «***ديكْتَاتُورِيَة البروليتاريا***» عَبْرَ "مَجَالِس الكَادِحِين المُسْتَغَلّين" المُسَلَّحِين. وَالمُؤَسَّسَة التي تَتَجَسَّدُ فيها «ديكْتَاتُورِيَة البْرُوليتَارْيَا» هي خُصُوصًا مَجَالِس (=سُوفْيِيتَاتْ soviets) العُمَّال والفَلَّاحِين المُسَلَّحِين. وَالخَطَأ الْاِسْتْرَاتِيجِي الذي اِرْتَكَبَه اسْطَالِين وَأَنْصَارُه هو أنهم عَوَّضُوا مُؤَسَّسَة «مَجَالِس العُمَّال والفَلَّاحِين المُسَلَّحِين» بِمُؤَسَّسَة «الحِزْب الشِيُوعِي». وقد بَدَأَت المُقَدِّمَات الْأُولَى لِهذا الانحراف في عَهْد لِينِين، عَبْرَ وَاقِعِيَة مُفْرِطَة، تَعْتَبِرُ أن مُؤَسَّسَة الحِزْب الشِيُّوعِي هي مُنْشِئ وَحَامِي «ديكْتَاتُورِيَة البْرُوليتَارْيَا». الشَّيء الذي يُؤَدِّي إلى مَنْح قَدْر مِن الْأَسْبَقِيَة لِلحِزب الشِيُّوعِي على مَجالس العُمّال والفَلّاحين المُسَلَّحِين. وَقَد بَالَغَ اسْطَالِين وَأَنْصَارُه في هذا المَنْحَى أَكْثَرَ مِن لِينين.

ويُفْتَرَض في سُلطة، أو في سَيْطَرَة، البروليتاريا على البرجوازية، أنها تَدُومُ مَا دَامت البرجوازية (أو مَا دَامَت بَقَايَاهَا) موجودة في المُجتمع.

وَهَزْمُ البورجوازية لَا يعني إبادة أفرادها (مثلما ظنّ بعض أَنْصار تِيَّار اسْطَالِين). كما أن «***ديكْتَاتُورِيَة البروليتاريا***»، لا تعني بتاتًا إلغاء الحُرِّيَات السياسية، أو نَفْي حُقوق الإنسان، التي يلزم أن يتمتّع بها أفراد وجماعات الشعب الكادح.

ومن الشَّائِع لَدَى كارل ماركس، وَلَدَى افْرِيدْرِيشْ إِنْجَلْس، أن مفهوم «***الدولة***» يعني مُرَكَّبًا من الأجهزة (والعلاقات المُجتمعية، والأفكار)، التي تستعملها «الطبقة السّائدة» كَوَسِيلة لِفَرْض،

وَلِمُمَارسة، ***سيطرتها الطبقية*** على باقي الطبقات المَسُودَة في المُجتمع. ولا يُمكن لهذا المُرَكَّبُ مِن الأجهزة أن يكون مُسَيْطِرًا إِلَّا إذا كان مَبْنِيًا على أساس مِيزان قِوَى طبقي مُتَغَلِّب، وَمَنِيع. وَتَسْطُو «طبقة المُسْتَغِلِّين الكبار» على مختلف ***أجهزة الدولة***، وتَسْتَعْمِلُها بِوَقَاحَة، لخدمة مصالحها الخَاصَّة، أو الأَنَانِيَة، وذلك على حِسَاب مصالح طبقات الشعب الكَادِح. بل يَخْتَرِقُ ***الصراع الطبقي*** كلّ شيء، بما فيه الدولة وأجهزتها. وَتَعْبَثُ طبقة المُسْتَغِلِّين الكبار بِمُؤَسَّسات الدولة كما لو كانت مِلْكِيَة خُصُوصِيَة خاصّة بها. وكلّما أَحَسَّتْ الطبقة السائدة بأن سيطرتها مُهدّدة بالسُّقوط، فإنها تستعمل التَمْوِيه، وَالتَزْوِير، والكذب، والغِشّ، والنفاق، وخُصوصًا ***القَمع العَنِيف***. وَلَا تَتَرَدَّد طَبَقَة المُسْتَغِلِّين (وَدَوْلَتُهَا) في مُمارسة قَمْع شَرِس، وَتُحَوِّلُه إلى ***إِرْهَاب الدَّولة***. و كُلَّمَا حاولت طبقة المُسْتَغِلِّين أن تَثُور، أو أن تُسَيْطِرَ على السُّلطة السياسية، تُمارس ضدّها طبقة المُسْتَغِلِّين الكبار ***الدِكْتَاتُورِيَة، وَالقَسَاوَة، والقَمْع، والعُنف، والفَتْك***.

ومن منظور ماركسي، فإن ممارسة «***الدِّكْتَاتُورية***»، من طرف الطبقات السّائدة، على الطبقات المَسُودة، هي ***ظاهرة موضوعيَّة، وَشَائِعَة، في كلّ المُجتمعات الطبقية***. وَسَوَاءً لَدَى افْلَادِيمِير لِينِينَ، أم لَدَى مَاوُو اتْسِي تُونْغْ، فإن «ديكتاتورية البروليتاريا»، بمعنى احتكار السِّلَاح، والعُنف، وَالسَّيْطَرَة الحازمة على الأعداء الطبقيّين، وإعادة تربيّتهم، هي ضرورة مَوْضُوعِيَة، يَفْرِضُهَا واقع الصِرَاع الطَبقي. ***وبدون قَمع العَدُوّ الطَبَقِي، يستحيل أن تَنجح الثورة، أو أن تستقرّ طَوِيلًا سيادة طبقة البروليتاريا***. لكن عامّة الرأسماليّين وأنصارهم، يقبلون «ديكتاتورية البرجوازية»، ويرفضون «دِيكتاتورية البروليتاريا». وهذا أمر مَفْهُوم.

وَفِي إِحْدَى مُحاضراته، ذَكَّرَ المُفَكِّر أَلَانْ بَادْيُو (Alain Badiou)، أنه حَسَب تَصَوُّر كارل ماركس، وكذلك حَسَب تَصَوُّر افْلَادِيمِير لِينِين، لَا يُمْكِن لِطَبَقَة الْبْرُولِيتَارْيَا، أَثْنَاء الثَّوْرَة، أن تَسْتَوْلِيَ على السُّلْطَة السياسية، سِوَى عَبْرَ البَدْءِ في تَحْطِيم الدَّوْلَة الرَّأْسَمَالِيَة البُورْجْوَازِيَة[47]. بِمَعْنَى أن صَيْرُورَة إِزَالَة الدولة الرَّأْسَمَالِيَة، تَبْدَأُ مُنذ بِدَايَة نَجَاح الثورة، أَيْ مُنْذ بِدَايَة نَجَاح طَبَقَة الْبْرُولِيتَارْيَا في الْاِسْتِيلَاء على السُّلْطَة السياسية. كَمَا أن دِيكْتَاتُورِيَة طَبَقَة البْرُولِيتَارْيَا تَبْدَأُ مُنذ بِدَايَة اِسْتِيلَاء البْرُولِيتَارْيَا على السُّلَطَة السياسية. وَمُنْذ أن يَبْدَأُ الشِيُوعِيُّون الثوريّون في تَنْفِيذ شِعَار : «كُلُّ السُّلْطَة السياسية لِمَجَالِس الكَادِحِين البْرُولِيتَارِيِّين المُسَلَّحِين» (Tout le pouvoir aux soviets armés)، تَبْدَأُ صَيْرُورَة اِسْتِبْدَال الدَّوْلَة الرَّأْسَمَالِيَة بِنَقِيضِهَا، أي صَيْرُورَة الخَلَاص من الدولة الرَّأْسَمَالِيَة.

وَذَكَّرَ شَارْل بِيطَلهَايْم (Charles Bettelheim) بِمَقُولَة مُهِمَّة لِفْلَادِيمِير لِينِين حَوْل تَغْيِير العَلَاقَات بين طَبَقَتَي البْرُولِيتَارْيَا والبُورْجْوَازِيَة ***تحت نظام دِكْتَاتُورِيَة البْرُولِيتاريا***. حيث كتب لِينِين: «... مِن المُستحيل حذف الطَبَقَات دَفْعَة واحدة. بَل ***سَتَبْقَى الطَبَقَات خلال مَرْحَلَة دِيكْتَاتُورِيَة البْرُولِيتَارْيَا***. وستُصْبِحُ الدّيكْتَاتُورِيَة غير صالحة حينما سَتَزُول الطَبَقَات. ***لكن هذه الطَبَقَات لَنْ تَزُول إِلَّا بواسطة دِكْتَاتُورية البروليتاريا***... فَتَدُوم هذه الطَبقات، لكن ***كلّ طبقة تَتَحَوَّل خلال مرحلة ديكتاتورية البروليتاريا. وَتَتَغَيَّرُ أيضًا العَلَاقَات فيما بين الطبقات. فَلَا يختفي الصّرَاع الطبقي تحت***

(47) Alain Badiou, "Formes actuelles du devenir communiste", vidéo Youtube d'avril 2023 : https://youtube/Rlzi_qb_dPI

نِظَام ديكْتَاتُورية البْرُولِيتَارْيَا، وَإِنَّمَا يَتَّخِذُ أَشْكَالًا جديدة ومُخْتَلِفَة»[48].

وهذه الأطروحة السابقة هي مِن بين أهمّ الإِبْدَاعَات النظرية التي أَكَّدَتْهَا تجربة الثورة الصّينِيَة. وَقَد سَاهَمَ الحزب الشيوعي الصّيني (بِقِيَّادَة مَاوُو تْسِي تُونْغ)، بِأُطْرُوحَة مُشَابِهَة وَمُكَمِّلَة تقول : «***في إِطَار الاشتراكية، وَلَوْ تحت حُكْم ديكتاتوريّة البروليتاريا،*** تَسْتَمِرّ الطبقات في الوُجُود، وَيَسْتَمِرّ الصِّرَاع الطبقي، وَتَتَوَاصَلُ الثورة المُجتمعية». حيثُ أنه، ***في إِطار الاشتراكية، وَلَوْ تَحت حُكْم ديكتاتورية البروليتاريا، لا يَتَوَقَّف الصِّرَاع الطبقي، وإنما يَسْتَمِر بِأَشكال جديدة.*** بعض هذه الأشكال بَيِّنٌ، وبعضها خَفِيٌّ. وَيَكُون الحزب الشيوعي الحاكم هو نفسه مَيْدَانًا لِصِرَاعَات سياسية، وَطَبَقِيَة، بين خَطَّيْن سِيَّاسِيَّيْن، واحد شِيُّوعِي، وآخر تَحْرِيفِي رَأْسَمَالِي مُسْتَتِر.

وَلَا يُمكن لِدِكْتَاتُورِيَة البروليتاريا أن تَكْفِيَ وَحْدَهَا لِضَمَان غَلَبَة الخَطّ السياسي الثوري. وَتُؤَكِّدُ تجربة انهيّار الاتحاد السوفياتي أن ***احتمال الرِدَّة مِن الاشتراكية نَحْوَ الرأسمالية*** يَبْقَى دائمًا مَوْجُودًا. وَمِن المُمكن أن تَنْشَأ طبقة مُسْتَغِلَّة بُورْجْوَازِيَة خَفِيَة، أو مُمَوَّهَة، أو سِرِّيَة، دَاخِل المُجتمع الاشتراكي، وفي داخل الدولة الاشتراكية، وحتّى في داخل الحزب الشيوعي الحاكم. ***ولا نعرف حَلًّا آخر لِتَلَافِي هذا الانحراف المُحْتَمَل نحو الرأسمالية غَيْرَ خَوْض الثورة الثقافية المُتواصلة، وخوض الصراع الطبقي الثوري، على كلّ الأصعدة، وفي كلّ الميادين.*** مَع الحِرْص على أَلَّا يَتَحَوَّلَ هذا الصِرَاع السِيَّاسِي إلى فَوْضَى مُطْلَقَة. غير أن هذا التوجّه السياسي الحَذِر، أو النَقْدِي، لَا يُبرّر

---

(48) لِينِين، الأعمال الكاملة، المجلد 30، موسكو، الصفحة 111. ذكرها شارل بيطالهايم في "تاريخ الصراع الطبقي في الاتحاد السوفياتي"، الطبعة الفرنسية، المرحلة الأولى 1917–1923، سُويْ مَاسْبِيرو، 1974، الصفحة 115.

هَوَسَ رُؤْيَة الأعداء الطَبَقِيّين في كل مكان. وَلَا يُبَرِّرُ الإفْرَاط في التَصْعِيد، أو في مُعَادَاة كلّ مُخَالِف سِيَّاسِي. كَمَا لَا يَحِقُّ اِفْتِعَال الصِّدَامَات، أو المُبَالَغَة في حِدَّة المُوَاجَهَات، إلى درجة عَرْقَلَة إنْجَاز المَهَام، وتحويل بعض الأصدقاء إلى أعداء. كَمَا لَا يَجُوز تَحويل التَنَاقُضَات الثَانَوِيَة إلى تناقضات عَدَائِيَة.

ومن مَنْظُور ماركسي، «ديكتاتورية البروليتاريا» هي فترة تاريخية تستولي فيها الطبقة العاملة كَطَبَقَة على مُجمل السُّلُطات في المُجتمع. وهذا يعني أن البرجوازية لم تَعُد تُسيطر على الأجهزة السياسية والإدارية. لأن البروليتاريا اِسْتَبْدَلَ تلك الأجهزة القَدِيمة بِتَنْظِيمات أخرى جَدِيدَة، تَتَمَيَّزُ بِكَوْنِهَا مُرتبطة بالجماهير الثورية في مَوَاقِع الْإِنْتَاج. وَتَتَّسِمُ هذه التنظيمات الثورية بِكَوْنِهَا مَقُودَة مِن طَرَف البروليتاريا، أَيْ مِن طَرف طَلِيعَة الْبُرُولِيتَارْيَا المُجَسَّدَة في الحزب الطَبَقِي لِلْبُرُوليتاريا، وهو الحزب الشيوعي الثوري[49]. وَهَدف استيلاء البروليتاريا على السُّلُطَات هو تحرير المُجتمع من أُسُسِ انقسامه إلى طبقات، وإزالة الاستغلال الرأسمالي، وإقامة الحُريات، والعدالة، والمساواة، والبدء في تشييد الاشتراكية. بينما اِسْتَغَلَّ جُوزِيف اسْطَالِين (J. Staline) وأنصاره مفهوم «ديكتاتورية البروليتاريا» لِتَبْرِير فَرْضِ نُفُوذِهِم في الحزب الحاكم، وفي الدولة. وَانْزَلَق اسْطَالِين وَأَنْصَارُه في مُمَارَسَة الاستبداد الشخصي للزَّعِيم المُطلق، ضِدَّ كل المواطنين (بِمَا فِيهِم أعضاء الحزب الشيوعي وَقِيَّادِيّيه). وكان اسْطَالِين وأنصاره يُعَادُون كلّ الأشخاص الذين يُخالفُونَهُم في الرأي. وكانوا يُنَازِعُون كلّ الذين يُحتمل فيهم أنهم يُنَافسونهم حول مناصب المسؤولية. وَكَانُوا يُضَايِقُون كلّ الذين يُعارضوا سُلُوكِيَّاتهم. ولِبُلُوغ أهدافهم، استعمل اسْطَالِين وأنصاره البوليسَ السياسيَ، والاتهامات

(49) شارل بيطلهايم، المصدر السّابق، الصفحة 116.

المُصطنعة، والمُحاكمات المَغْشُوشة، والاعتقالات في مُعسكرات "الجُولَاجْ" (Goulag). واستخدم اسْطَالِين وأنصاره حتّى الإعدامات. وهذا تحريف مَفْضُوح لِلنظرية الماركسية. وإذا كانت بعض أهداف اسْطَالِين وأنصاره نضالية، فإن بعض أهدافه الأخرى كانت مَحْصُورَة في خِدمة مصالح شخصية ذاتية، أو انتهازية.

وكان مَفْهُوم «***دِكْتَاتُورية البْرُولِيتَارْيَا***» لَدَى افْلَادِيمِيرْ لِينِينْ يختلف نِسبيًّا عن مَفهومها لَدَى كارل ماركس. وكان مفهوم «دِكْتَاتُورية البْرُولِيتَارْيَا» لَدَى ماركس يَتعلّق خُصوصًا بالطبقة العاملة ***كَطَبَقَة***، في علاقاتها بطبقات المُجتمع الأخرى، وخاصّة منها الطبقة البرجوازية. لكن لِينِين أَلْصَقَ صِفَةَ «طَلِيعَة البروليتاريا» بالحزب الشيوعي. فَتَقَوَّت فكرة وُجود علاقة خَاصَّة وَطِيدَة بين "الحزب الشيوعي" و"الطبقة العاملة" (أو البْرُولِيتَارِيَا). بينما ***هذه العلاقة*** (بين الحزب والطبقة)، وَإِنْ كَانَتْ مُمْكِنَة خلال بعض الفترات التاريخية المُحَدَّدَة، فإنها ***ليست لَا آلِيَة، وَلَا مَضْمُونة، وَلَا دَائِمة***. وإذا كان بالإمكان بناء هذه العلاقة بين الحزب الشيوعي والطبقة العاملة، فبالإمكان أيضًا فُقْدَانُ هذه العلاقة بسهولة. وبعد وفاة لِينِين (في سنة 1924)، وفي ظروف تاريخية قَاسِيَة من الصّراع الطبقي، خَلَفَهُ جُوزِيفْ اسْطَالِين في الحُكم. وذَهَبَ تِيَارُ اسْطَالِين بعيداً، وأكثر من لِينِين، في تَأْوِيل وتَبْسِيط أُطْرُوحَة «***دكتاتورية البروليتاريا***».

وحَوَّلَ تِيَار جُوزِيف اسْطَالِين أُطْرُوحَة «***دِكْتَاتُورية البْرُولِيتَارْيَا***» إلى حُجَّة نَظَرِيَّة ماركسية لِتَبْرِير «***دِكْتَاتُورية الحزب الشيوعي***» الحَاكِم. ولَوْ أن طبقة «البْرُولِيتَارْيَا» لَا تَتَطَابَقُ مع «الحزب الشيوعي». ثمّ حَوَّلَ تِيَار اسْطَالِين مَفْهُومَ «ديكتاتورية الحزب الشيوعي» الحَاكم، إلى «دكتاتورية قِيَادَة الحزب» (التي يُفْتَرَضُ فيها أنها جَمَاعِيَة). ثمّ حَوَّلَ تِيَّار اسْطَالِين «دكتاتورية قِيَادَة الحزب» إلى «***ديكتاتورية زَعِيم***

الحزب الشيوعي»، والذي هو شَخْصُ جُوزيف اسْطَالِين بالذّات. وَفَرَضَ اسْطَالِين أطروحة «الحزب الوحيد». وألغى الديمقراطية في المُجتمع، وحتّى في الحزب الشيوعي. وبواسطة التخويف، والترهيب، حَوَّلَ اسْطَالِين أَعْضَاء الحزب الشيوعي إلى شِبْه قَطِيع من الأَتْبَاع الخَاضِعِين. ***وكل هذه التَّأْوِيلَات لا يُوجد لها أي دَاعٍ ، أو مُبرّر، في النظرية الماركسية.*** (وحتّى إذا وُجِدَ مَا يُبَرِّرُها في الماركسية، فَيَنْبَغِي تَصحيحه). ***وَلَمْ يَسبق لكارل ماركس أن نَادَى بِضَرُورة تحويل «دِيكْتَاتُورِيَة البْرُولِيتَارْيَا» إلى «ديكتاتورية الحزب».***

وقد سبق لِـ لِيُون اتْرُوتْسْكِي (Léon Trotsky)، خاصّة في مُؤتمر الحزب في سنة 1903، ثم في كُرَّاسِه النقدي المُعَنْوَن بِـ "مَهامّنا السياسية"، والمنشور في سنة 1904، أن عبّر عَن حَذَره مِن خطر سياسة "التَعْوِيض" (substitutisme) التي تظهر في بعض أساليب العمل لدى إِلِيتْشْ لِينِين (Illich Lénine). وهذا "التَعْوِيض" يَرْمي إلى تَعْوِيض الطبقة العاملة بِالحزب، وإلى تعويض مُجمل الحزب بِاللَّجْنَة المَركزية، ثم تعويض اللجنة المركزية بِقَائِد مُسْتَبِد[50]. وكان هذا النقد مُشتركا بين لِيُّون اتْرُوتْسْكِي، وَرُوزَا لُوكْسَامْبُورْغ (Rosa Luxembourg). ورغم أن نقد لِيُون اتْرُوتْسْكِي لِـ إِلِيتْشْ لِينِين، الوارد في مقالته "مهامّنا السياسية"، كان مُبالغًا فيه نِسْبِيًّا، فَقَد أَثْبَتَ لَاحِقًا تاريخ السْطَالِينِيَة في الاتحاد السوفياتي أن حَدْسَ لِيُّون اتْرُوتْسْكِي كان صائبًا.

وَطَوَّرَ اسْطَالِين منهجًا خاطئًا في معالجة التناقضات السياسية داخل الحزب، وداخل الشعب. فَكُلَّمَا وُجِدَ خِلَاف، أو تَنَاقُض، بين فَاعِلَيْن سِيَاسِيّين مُحَدَّدَين، لَجَأَ اسْطَالِين إلى تَصْفِيَة أحد الفَاعِلَيْن من الوجود. ولَم يكن اسْطَالِين يُدْرِكُ أن معالجة

(50) Michael Lowy, La théorie marxiste du Parti, p.28, point 53, publié en 2009, Mis en ligne sur le site: Cairn.info le 04/11/2009, Source https://doi.org/10.3917/amx.046.0076

التناقض المذكور تَقْتَضِي تَقْوِيمَ الفاعل المُخْطِئ، أو تَغْيِير الفَاعِلَيْنِ مَعًا، وليس تَهْمِيش أحدهما، أو إِقْصَاءِه، أو قتله. وعَمَّمَ اسْطَالِين مَنْهَجَ الاعتماد على المخابرات البُوليسية لِتَدْبِير الخلافات والصراعات السياسية، سواءً داخل الحزب، أم داخل المُجتمع. وهكذا تحوّل "زَعِيمُ الحزب" (اسْطَالِين) إلى شبه إِلَه مُسْتَبِدّ، يُقَرِّرُ بدون رقابة، ولا محاسبة، مَن يستحق أن يَشْغَلَ مَنْصِبًا مُعيّنًا، ومن تَتَوَجَّبُ إِقَالَتُه، أو تَهْمِيشُه، أو سِجْنُهُ، أو حتى قَتله. وكان اسْطَالِين يَحْرُص على إِثْبَات أو تَأْكِيد اِسمه المُستعار (اسْطَالِين)، والذي يعني في اللغة الرُّوسية "الفُولَاذِي" (en acier)، بمعنى الصَّلَابَة، والقَسَاوَة. كأن اِسم الشخص هو الذي ينبغي أن يُحَدِّد نوعية سُلُوكِه. وكان حُكْم اسْطَالِين قمعيًّا، أو إرهابيا. ومُعظم أُطُر الحزب سَايَرُوا، أو سَانَدُوا، أو قَبِلُوا، «دِيكْتَاتُورية» جُوزِيفْ اسْطَالِين، بِسَبَبِ خوفهم من بَطْشِه.

واستعملت القيادة السْطَالِينية أطروحتَيْ «***ديكتاتورية البروليتاريا***»، و«***الحزب الوحيد***»، لِتبرير إِلْغَاء الديموقراطية مِن المُجتمع، وحتى من الحزب الشيوعي الحاكم. ومَدَّد تِيَار جُوزِيف اسْطَالِين هذين المفهومين إلى حَدّ ***مَنْع وجود الخلافات السياسية داخل هذا الحزب!*** وكان اسْطَالِين وَأَنْصَارُه يَزْعُمُون أنهم يَعملون بِأسلوب «الإِجْمَاع» داخل الحزب. وَكانوا يَتَعَامَلُون مَع الخلافات السياسية كأنها ظَاهِرَة غير عادية، وغير مَقْبُولَة. ويفضح هكذا اسْطَالِين وأنصاره مَدَى جهلهم للثقافة، وللفلسفة. حيث قَلَبُوا الأُمُورَ عَلى رَأْسِهَا. ***فَالتَفَاوُتُ في الآراء السياسية (والذي هو ظاهرة عَادية وشائعة)، اعتبروه جريمة لَا تُغْتَفَر. والإِجْمَاع على رأي سياسي واحد (والذي هو ظاهرة نَادِرَة، أو مُسْتَحِيلَة)، اعتبروه واجبًا إِجْبَارِيًا في كلّ شيء !*** وجاءت تجربة الثورة الصينية لِتُكَذِّبَ الكثير مِن المُعتقدات السْطَالِينِيَة السَّابِقَة. وَأَكَّدَت الثورة الصِينِيَة ضرورة

استمرارية النضال الثوري، والصراع الطبقي الثوري، وَلَوْ تَحْتَ حُكْم «دكتاتورية البروليتاريا». وهكذا شَنَّت قِيّادة الحزب الشيوعي الصيني، بِزَعَامَة مَاوُو تْسِي تُونْغْ، «الثورة الثقافية البروليتارية الكبرى».

واسْتَعْمَلَ اسْطَالِين أطروحتي «***ديكتاتورية البروليتاريا***»، و«***الحزب الوحيد***»، لِتبرير إقامة، وترسيخ، نظام سياسي مبني على أساس «***الرأي الوحيد***»، و«***الإجماع***» الشكلي، والمُزَيَّف. ولم يَسْبِقْ لِكَارْل مَاركس، ولَا إِلَى افْلَادِيمِير لِينِين، أن دافعا عن أطروحة «***الحزب الوحيد***»، أو «***الرأي الوحيد***»، أو «الإجماع الإجباري». بينما أَخْضَعَ تِيَار اسْطَالِين "***السُّوفْيِيتَات***" (soviets) (التي هي مجالس العُمال والفَلاحين والجُنود) إلى دِكتاتورية الزَعِيم الوَحيد، لِلْحِزب الوَحِيد. ومع إِحْكَام هَيمنة اسْطَالِين على "السُّوفْيِيتَات"، تَأَكَّد أن ***الطبقة العاملة (أو البروليتاريا) هي خَاضِعَة ومَسُودَة، وليست سَائِدَة.*** وقَمَعَ اسْطَالِين كل مبادرات *"السُّوفْيِيتَات"*، أو حركاتها، التي كان يُحتمل أن تتحوّل إلى سُلطة مُقْتَرِحَة، أو نَاقِدَة، أو مُعَارِضَة. وساعد نظام «الحزب الوحيد» على تَكَوُّن وَنُمُو "***بِيرُوقْرَاطِيَة برجوازية***" من صنف جديد، وهي "النُّومُونْكْلَاتُورَا" (Nomenklatura). وميزة هذه "البِيرُوقْرَاطِيَة" (الموجودة في الحزب، وفي الدولة السُّوفْيَاتية) هي أنها تُبَارِكُ كل ما يُقرّره الزعيم اسْطَالِين، ولو كان سياسةً حَمقاء. وتَسْتَغِلُّ هذه «البِيرُوقْرَاطِيَة» مسئولياتها في الحزب، أو في إدارات الدولة، لكي تَفْلِتَ من المُحَاسَبَة، ولِكَيْ تحصل على مداخيل كبيرة نِسْبِيًّا، أو على امتيازات مادية. ونَاصَرَت هذه "*البرجوازية البيروقراطية*" قمع الحريات السياسية، وسَانَدَت إلغاء مُجمل التدابير الديموقراطية التي سبق للثورة أن أقامتها خِلَال بِدَايتها.

وتعدَّدت «الحَمَلَات التطهيرية» (purges) خلال حُكم اسْطَالِين، وتَوَاصَلَت بِلَا توقّف. وأعترفُ أنه ***مِن حَقّ الحزب الشيوعي أن يلجأ،***

عند الضرورة، إلى «حَمْلَة تَطْهِيرِيَة»، بِهَدف سَحْب العُضْوِيَة من أعضاء الحزب الذين لَم يَعُودُوا يستحقّون الانتماء لِهذا الحزب. ويمكن أيضًا للحزب الشيوعي أن ***يَطْرُد*** من الحزب الأعضاءَ الذين تَبَيَّنَ، بِالتَحْقِيقَات، وَبِالحُجَج الملموسة، أنّهم مُنْدَسّين، أو يَمِينِيّين، أو وُصُولِيّين، أو انتهازيين، أو أنانيّين، أو مُجرمين، أو غير مُلْتَزِمين بالمبادئ الثورية. لأن ***العُضْوِيَة*** في الحزب الشيوعي ليست مِلْكِيَة شخصية، وَلَا مِيزَة دَائِمَة، وَإِنَّمَا هي صِفَة حزبية مشروطة بالالتزام بمبادئ مُحَدَّدة، مُسَطَّرة في القانون الداخلي للحزب. بَينما طَرْدُ هَؤلاء الأشخاص من ***المِهْنَة***، أو حَبْسُهم في ***السّجْن***، أو ***إِعْدَامُهُم***، لَا يَحِقُّ أن يكون شَرْعِيًّا إِلَّا إذا صَدَر على شكل عُقوبات عن قَضَاء مُسْتَقِل، ومُحَايِد، في إطار مُحاكمة عادلة. حيث ***يجب التَمييز بين شؤون الحزب، وشؤون القانون القائم.*** وحتى إذا «اعترف» مُتَّهَمُون أمام المحكمة بِالتُّهَم المُوَجَّهة إليهم (مِثْلَمَا كان يحدث مثلًا في «مُحاكمات مُوسكُو» المَغْشُوشَة، بين سنتي 1936 و 1937)، فإن هذا «الاعتراف» لَا يُشَكِّلُ حُجَّة كَافية لِإِثْبَاتِ ارتكابهم للجرائم المنسوبة إليهم. وفي حالة إذا لم يُوجد في المِلف القضائي لهؤلاء المُتَّهَمِين سوى هذا «الاعتراف» كَحُجّة إِثْبَاتِيَة، يَنْبَغِي على القضاء، في هذه الحالة، أن يطلق سراح هؤلاء المُتَّهَمِين. إذ مِن المعروف أن أنصار اسْطَالِين كانوا يُجبرون المُتَّهَمِين السياسيين على «الاعتراف» بالجرائم المُصْطَنَعَة المَنسوبة إليهم (بواسطة التهديد، أو بواسطة وُعُود كَاذِبَة، أو مُخَادِعَة، مثل وَعْدِهِم بِإِطلاق سراحهم، وَإِلغَاء التهم الموجّهة إليهم، إن هم "اِعْتَرَفُوا")، ثم يُصدرون أحكامًا بالإعدام على هؤلاء المتّهمين، بِحُجَّة وجود «اعترافهم» الحُرّ أمام المحكمة !

والغريب هو أن أنصار جُوزِيفْ اسْطَالِين كانوا، أو مَا زَالوا إلى حدّ اليوم، يُدافعون عن ***أساليبه العَنيفة، أو المُخَادِعَة، في مجال خوض***

الصراع السياسي داخل الحزب. ومن المعروف أن اسْطَالِين تَجَرَّأَ على سِجْن أو قَتْلِ الكثيرين من قَادَة الحزب الشيوعي، ومن قادة الجيش الأحمر، الذين كان جُوزِيف اسْطَالِين يَخَافُ مِن احْتِمَال أن يُخَالِفُونَه في الرّأي، أو أن يُنَافِسُونه على الزَّعَامة. ومن أبرز الأمثلة، أن اسْطَالِين أمر بِطَرْد لِيُون تْرُوتْسْكِي من الحكومة (في سنة 1924). ثمّ أمر اسْطَالِين بطرد اتْرُوتْسْكِي من قيادة الحزب. ثم طَرَدَه من العُضوية في الحزب (في 1927). ثم قَرّر نَفْيَه إلى خارج الاتحاد السوفياتي (في 1929). ومعروف أن لِيُون تْرُوتْسْكِي كان، إلى جانب لِينِين، من أكبر مُهَندسي ثورة أكتوبر 1917. وكان اتْرُوتْسْكِي خلال عهد لِينِين هو رئيس الجيش الأحمر، و«كُومِيسِير الشعب في الشُّؤُون العسكرية والبحرية». ورغم أن تْرُوتْسْكِي هرب من رُوسيا إلى المِكْسِيك، بعث له اسْطَالِين عناصر بُولِيسِية لكي تَغْتَالَه. ورغم فشل أربعة أو خمسة محاولات لقتل تْرُوتْسْكِي، كرّر اسْطَالِين هذه المحاولات حتى نجح في قتله في سنة 1940. وحوّل اسْطَالِين وسائل التجسّس، والاختطاف، والتعذيب، والمحاكمات الصورية، والسجن في مُعَسْكَرات "الجُولَاج" (Goulag)، إلى وسائل عادية، وقانونية، وشائعة، ودائمة، في إدارة الخلافات السياسية في الحزب، وفي المُجتمع. ***وَتَتَنَافَى كُلِّيًا هذه الأساليب، ليس فقط مع الماركسية، ومع الاشتراكية،*** بل أيضًا مع أبسط ***الأخلاق الإنسانية.*** ولا يُقْبَلُ تبريرها بأيّ اعتبار كان. بل هي جرائم لَا تُغْتفَر. وكل الأشخاص الذين يُساندون بِعِنَاد اسْطَالِين، سيرفضون فَوْرًا هذه الأساليب القمعية المُسْتَبِدَّة، في حالة إذا مَا طُبِّقَت ضِدَّ هؤلاء الأشخاص هم أنفسهم !

وخلال سنوات 1970، كُنَّا في «الحركات الماركسية اللّيِنِينية» بالمغرب، نقَدّر جُوزِيف اسْطَالِين ونُعَظّمُه. وكنا نضع اسْطَالِين تقريبًا في مرتبة افْلَادِيمِير لِينِين، وكَارْلْ مَارْكِسْ. وكُنَّا نُصَدّق الزَّعْم الذي

يقول أن اسْطَالِين طَوَّر النظرية الماركسية وأغناها، تمامًا مثلما فعل لِينِين. ولم تكن تصلنا الوثائق الرَّصِينَة، والجَيِّدَة الاِطِّلَاع، حول تفاصيل تطور الصراع الطبقي، والصراعات السياسية، التي حدثت خلال مجمل عهد اسْطَالِين. وخلال سنوات 1985، لمّا بَدأنا نَطَّلع (داخل السجن المركزي بمدينة القُنَيْطِرَة بالمغرب) على بعض هذه الوثائق، اكتشفنا أننا كُنَّا سَاذَجِين، أو مَخْدُوعِين، أو ضَحَايَا دِعَايَة مُخَادِعَة.

وهذه الأساليب السْطَالِينية العنيفة، في تدبير الخلافات السياسية داخل الحزب، ***تفضح هَزَالَة التكوين الفلسفي لدى اسْطَالِين وأنصاره، وتُعَرّي ضعف تكوينهم الثقافي،*** وضحالة أخلاقهم السياسية. وتُعبّر هذه الأساليب الدَمَوِيَة عن ***وجود صراع غَير مَبدئي، بل تَنَاحُرِي، حول السلطة داخل الحزب.*** وتلتقي هذه الأساليب التَصْفَوِيَة بِالمَقُولَة المَاكْيَافِيلِيَة «الغَايَة تُبرّر الوَسِيلة». وكل حزب يعمل بهذه الأساليب، حتى لَوْ كان يدّعي أنه «اشتراكيًا»، أو «شيوعيًا»، سَيَنْفَضِح أنه في الواقع عِصابة من المُجرمين، أو الجُهَّال. ويظنّ اسْطَالِين وأنصاره أن اسْطَالِين يُشَكِّل امتدادًا لِلِينِين، ومَارْكِسْ، وإِنْجَلْسْ. بينما اسْطَالِين بَعِيد جدًّا عن أن يصل إلى هذه المرتبة.

ولو كان اسْطَالِين سياسيا مُثقَّفًا، لكانت ثِقَتُهُ أكبر في نفسه، وفي مُقَارَعَة الحُجَج السياسية بأخرى تكون أكثر عِلْمِيَةً، وعَقْلَانِيَةً. ولَوْ كان يَثِقُ اسْطَالِينُ في قُوَّة المَنْطِق، لما استعمل مَنطق القُوة، في معالجة الخلافات السياسية داخل الحزب، وداخل المُجتمع. ولو كان اسْطَالِين يَثِقُ في عُقُول أعضاء الحزب الشيوعي، لَمَا خَافَ من تأثير أفكار مُنَافِسِيه السياسيين. ولو لم يكن اسْطَالِين مُجرّد مُستبد جاهل، لَمَا

كان يستعمل «حُجَّة السُّلْطَة»[51] السياسية، بَدَلًا من استعمال السُّلْطَة المَعْنَوِيَة لِلحُجَّة العَقْلَانية.

ولم يكن اسْطَالِين وأمثاله يُدْرِكُون أن ***الصراعات السياسية داخل الحزب، يَلْزَمُ أن تكون بَحْثًا مُتَوَاضِعًا وَجَمَاعِيًّا عن الحَقيقة، وليس صِرَاعا وُجُودِيًا، أو تَنَاحُرِيًّا، حول غَنَائِم حَاسِمَة.*** وما لم يكن يُدْرِكُه اسْطَالِين وأنصاره، هو أنهم حينما كانوا يَقْتُلون خصومهم السياسيين، أو المُحْتَمَلِين، في الحزب الشيوعي، فإنهم كانوا يَقْتُلُون أنفُسَهُم. بل ***كانوا يغتالون الرُّوح الشيوعية، في الحزب، وفي المُجتمع، وفي العَالَم.*** و«الاشتراكية» التي تقبل هَلَاكَ، أو سَحْقَ، أو قَتل، من يُخَالِفُنا في الرأي، وفقط بِسبب هذه المُخالفة في الرَّأي، تتحوّل إلى مَافْيَا. وفي إطار هذا الإرهاب الفِكْري، لَا يمكن أن تكون السياسة عَقْلَانِية، ولَا يمكن للعقل أن يزدهر.

وهذه الأساليب الحَمقاء، التي دامت خلال عهد اسْطَالِين كلّه (من 1922 إلى 1953)، ***شَارَكَت في إضعاف الحزب، وساهمت في تَهْيِء ظُروف انهيار مُجْمَل منظومة الاتحاد السوفياتي.*** وفي حالة اسْطَالِين، نرى كيف أن شخصًا بئيسًا يمكن أن يُؤَثِّر سَلبًا على مصير أكثر من مئة مليون شخص. ***وحينما نتكلّم عن جُوزِيف اسْطَالِين، فإننا لَا نَقصد فقط شخصه، وإنما نعني، في نفس الوقت، مَا يُوجد وراء رَمْز الشخص جُوزِيف اسْطَالِين، كَتيَار سياسي، وكَطَبَقَة مُجتمعية*** (***أي البورجوازية البيروقراطية*** الناشئة في الحزب وفي الدولة، أو "النُومُونْكْلَاتُورَا" [Nomenklatura]).

وسيكون من الحُمْق السياسي أن نُعَبِّئَ الجماهير لِخَوْض الثورة المُجتمعية، أو لِإِنْجَاز الثورة الاشتراكية، ومباشرة بعد وصولنا إلى

(51) Joseph Staline utilise «l'argument de l'autorité», au lieu d'utiliser «l'autorité de l'argument».

السلطة، نَلْجَأُ إلى مُمَارَسَة ديكتاتُورية عَنِيفَة وشاملة، ضِدَّ هذه الجماهير، وضِدَّ كل من يُحْتَمَل أن يَتَحَوَّل إلى خَصْمٍ سياسي لنا. فلا يمكن أن نبني الاشتراكية بِالكَذِب، أو بالغَدْر، أو بِالقَهْر، أو بِالغِشّ، أو بِالدَّسَائِس، أو بالخِداع، أو بِالنفاق.

وَتَحْدُثُ بِالضَّرُورة مثل هذه الانحرافات السْطَالِينِية، وهذه الكوارث، كلّما سمح أعضاء الحزب لأفراد مُعَيَّنِين بِتَحمّل مسؤوليات قيادية، رغم ضُعف تكوينهم الثقافي، أو رغم النقص الحاصل في التزامهم بِالمَبَادِئ السياسية، وبالأخلاق الثورية.

ونجد أن ***الاستخفاف بالأخلاق،*** (سواءً في العمل الحزبي، أم السياسي، أم المؤسّساتي)، كان من بين ***الأخطاء القاتلة*** التي أُرْتُكِبَت خلال حُكْمِ جُوزِيفْ اسْطَالِين. وفي مجالات الصراعات السياسية، (سواءً داخل الحزب، أم داخل الدولة، أم داخل المُجتمع)، اسْتَعْمَلَ جُوزِيفْ اسْطَالِين وأنصاره، أساليب الخِدَاع، والتَدْلِيس، والنفاق، والكذب، بهدف هزم المُعارضين، أو تهمِيش الخُصوم، أو حتى تصفيتهم. واستعمل اسْطَالِين أحيانًا لهذا الغرض محاكمات سياسية مَغْشُوشة. ولم يكن يُدرك جُوزِيف اسْطَالِين وأنصاره أنه، ***كلما استعمل الحُكَّام أساليب الخِداع، أو المَكْر، فإن عامّة الشعب ستلجأ بالضرورة، هي أيضًا، إنْ عَاجلًا أم آجلًا، إلى تقْلِيدِهم.*** وبعدما تَنْتَشِر عَدْوَى النفَاق، والخِداع، داخل عُموم الشعب، يسقط

المُجتمع بكامله في الفساد، وفي الانحطاط[52]، ثمّ يَتَّجِهُ مصيره نحو الخَرَاب.

وإذا كان الاختيار مَطْرُوحًا هكذا (من منظور أنصار جُوزِيف اسْطَالِين): «إمَّا قتل مُعارضي الاشتراكية، وإمَّا فشل أوّل تجربة لِبِنَاء الاشتراكية»، فأنا شخصيا أُفَضِّلُ فشلَ تجربة بناء الاشتراكية على اضطهاد، أو قتل، معظم المُعارضين السياسيين. لأنني أُدْرِكُ، أَوَّلًا، أن الاشتراكية تتنافى مع الاضطهاد. ولأنني أعرف ثانيًا، أن دِينَامِيَة اضطهاد، أو قتل، نسبة هامّة من المعارضين، سيؤدّي حتمًا إلى فشل تجربة بناء الاشتراكية. وثالثًا لأنني تَعَلَّمتُ كيف أهزم الرّجعيّين والمحافظين بواسطة ثورة ثقافية جماهيرية سِلمية وَمُتَوَاصِلَة.

ويَرْفُضُ العَقل، وكذلك العَدْلُ، مَنْهَجَ التصفيات الجسدية الوَاسعة. لأن ***هَدَف الثورة الاشتراكية المُجتمعية، هو تقْوِيم المُخْطِئِين، وإصلاحهم، وتثويرهم، وليس قَتْلَهُم.*** وهو ما لم يكن يفهمه اسْطَالِين وأنصاره. ولِبُلُوغ تقْوِيم المُخْطِئِين، نستعمل دِينَامِيَة «***الثورة الثقَافِيَة الجماهيرية السِّلْمِيَة المُتَوَاصِلَة***»[53]. فَكَيْفَ يُمكن لِمَن لا يقدر على إقناع غالبية الكادحين بالحاجة إلى الاشتراكية، أن يستطيع تشييدها؟ أمَّا إذا تَبَنَّت غالبيةُ الكادحينَ الاشتراكيةَ، فلا حاجة إلى اضطهاد

---

(52) سبق لي أن أَوْضَحْتُ هذه الفكرة الأساسية، أو القاعدة المُجتمعية (loi sociétale)، في كُتُبي التالية (باللغة الفرنسية): "المُجْتَمَعِي" [Le Sociétal]، و"السياسي" [Le Politique]، و"الأخلاق السياسية" [L'Éthique politique]). وفي كتابي "نقد الشعب" (باللغة العربية)، وكذلك في مقالي "العَلاقَة بين السِيَاسَة والأَخْلَاق (من خِلَال نقْد الأستاذ محمد سَبِيلَا)". ويُمكن تنزيلها كلّها من مُدَوَّنَة الكاتب.

(53) La révolution culturelle pacifique et ininterrompue des masses laborieuses.

الأقلية المعارضة لها. ومِن بين الفُرُوقَات في مَا حدث في رُوسْيَا والصّين، هو أن تِيَار اسطالين غَلَّبَ مَنْهَج تَصْفِيَة المُخالفِين والمعارضين، بينما تِيَّار مَاوُو تْسِي تُونْغْ فَضَّل أسلوب "الثورة الثقافية الجماهيرية المُتواصلة". وهذه الأخيرة تُبْقِي المعارضين أحياء، وتُصَلِّتُ عليهم نقد وضغط الجماهير الكادحة الثورية.

وكُلَّمَا ظهرت ***خلافات في الرأي***، يُمكن أن تتحوّل (هذه الخلافات) إلى ***صراعات سياسية***. ولِتَسْهِيل مُعالجة الخِلافات السياسية، يُستحسن أن نَرْبِط الخلافات في الرأي بِخلافات مُحتملة في المصالح المادية. كما يمكن أن تتحوّل هذه الصراعات السياسية إلى ***صراعات فلسفية***. وَيُمكن أن تَتَحَوَّلُ الصراعات الفلسفية هي نفسُها إلى ***خلافات عِلْمِيَةً***. وَمِن المَعْرُوف أن الخلافات العِلْمِيَة، لا تُحْسَمُ بالقُوَة، وإنما تُحسم بالبَحث العِلمي، وبالجِدَال العِلْمِي، وبالصّراع السياسي الجماهيري، ***وبالثورة الثقافية الجماهيرية السّلْمِيَة والمُتَوَاصِلَة***.

ومثل تلك السُّلُوكِيَات القمعية (المعروضة سابقًا)، تُبَيّن أن اسْطَالِين وأنصاره يعتقدون أن «الثورة الاشتراكية» الانتقالية تَتطابق مع «ديكتاتورية البروليتاريا». ويظنّون أن «ديكتاتورية البروليتاريا» تعني، وتُبَرّر، إلغاء الديمقراطية، وحذف الحريات السياسية. وهذا تصوّر يتحامل على الماركسية، ويتناقض معها. وكل «ثورة اشتراكية» لَا تُحَقّق الحرّية لِمُجمل الشعب، والكَرامة، والعَدل، والديمقراطية، فستكون مُجَرَّد صِنف من أصناف الاستبداد.

وأكبر حَمْلَة قمعية خاضها اسْطَالِين، هي "***التَطْهِيرَات الكُبرى***" (Les Grandes Purges). ودَامت تقريبًا بين سنوات 1930 و 1938. وأوّل ضحايا قمع اسْطَالِين هم نُخَب الحزب الشيوعي، ومناضلوه المَشْهُود لهم بتضحياتهم، وَبِثَقَافَاتِهِم. وَنَجِدُ كذلك ضِمْنَ هؤلاء

الضَحَايَا، ضُبّاط الجيش الأحمر، ثم عامّة الشعب. وكانت مُعظم الاِتّهَامَات (المُوَجَّهَة لهؤلاء الضَحَايَا) عَشْوَائِيَّة، أو زَائِفَة، أو خَيَالِيَّة، أو وَاشِيَّة، أو انتقاميَّة. وكان الأشخاص المُصَنَّفُون بِكونهم «أعداء الشعب» يُتَّهَمُون عادةً بِـ «الانحراف اليميني»، أو «التخريب الاقتصادي»، أو «الانتماء إلى تِيَّار التْرُوتْسْكِيَة»، أو «المشاركة في تآمُر أجنبي»[54]. وأُدِينَ بشكل ظَالِم المَلَايِينُ من الأشخاص الأَبْرِيَاء.

والكثيرون من المُتَهَمِين بِمُعارضة سياسة اسْطَالِين، لم يكن لهم أيّ نشاط مُعارض مَلْمُوس. وَلَوْ أن سياسات اسْطَالِين الحمقاء كانت تستوجب المُعارضة. فكان يَكْفِي الشَكُّ في كَوْن أَشْخَاص مُعَيَّنِين مُعارضين مُحْتَمَلِين، لكي يُتَابَعُوا، وَيُدَانُوا. وَسَهَّلَ هذا الانْزِلَاق في المفاهيم، أو في المَرَاجِع النظرية، ارْتِكَابَ الكثير من الخُرُوقَات، والمُخالفات، وحتى الجرائم. وبِمَنْهَج سُلْطَوِي، اِسْتَغَلَّ جُوزِيف اسْطَالِين وأنصاره أطروحة «***ديكتاتورية البروليتاريا***». وخلقوا بيئة سياسية يُهَيْمِنُ فيها إرهاب الحزب الشيوعي، أو إرهاب الدولة. ولجأ اسْطَالِين وأنصاره إلى اضطهاد كل مَنْ يُفْتَرَضُ فيهم أنهم يُخَالفونهم في الرأي. وقاموا بِتَصْفِيَة كل من يَشُكُّون في كونهم مُعَارِضِين مُحْتَمَلِين. وَفَضَحَت هذه المناهج القمعية، المُطبّقة على نِطَاق مُجتمعي، أن جوزيف اسْطَالِين كان مُصَابًا بمرض الشَّك، والعَظَمَة، والاِضْطِهَاد (paranoïa).

ولم تكن هذه «الحَملات القَمعية» المُتَلَاحِقَة مُمكنة في الاتحاد السوفياتي إلَّا لأن مُعظم أعضاء الحزب الشيوعي الحاكم فَقَدُوا الرُّوح النقْدِيَة، وأصبحوا يُفضّلُون إنقاذَ حياتهم (خَوْفًا من بَطْش اسْطَالِين وأنصاره) على المُخاطرة بِالدِّفَاع عن المبادئ الثورية.

وكيف يمكن لأعضاء الحزب الشيوعي أن يتجرؤوا على معارضة

(54) https://fr.wikipedia.org/wiki/Grandes_Purges

سياسات اسْطَالِين، بينما هم يعرفون أن هذه المعارضة، ستكون عقوبتها الأكيدة والفورية، هي الحُكم عليهم بِالإعدام بتهمة «التآمر ضد الثورة الاشتراكية»؟

و«عند مَارْكِسْ، ولِينِين، لَا يُمكن فصل الثورة الاشتراكية عن الثورة الديمقراطية، بينما اسْطَالِين أَلْغَى كُلِّيًا الديمقراطية» (سمير الخطيب)[55].

وَأمام مَناهج اسْطَالِين، تَتَسَارَعُ التَسَاؤُلَات التالية في الذّهْنِ: هل طبقة البْرُولِيتَارِيَا (prolétariat) هي حَقًّا التي كانت طبقةً سَائِدَة في المُجتمع خلال عهد افْلَادِيمِير لِينِين (1917–1922)، ثم خلال عهد جُوزِيفْ اسْطَالِينْ (1922–1953)؟ ولماذا وَعَدَ البَلَاشِفَةُ (bolchevik) بِصِيَانَة حُرّية النَّقْد، في أيّ ظرف سياسي كان، لكن بمجرّد أن فَرض تِيَار جُوزِيف اسْطَالِين سيطرته على الحزب، وعلى الدولة، أصبح عمليًا النقْدُ ممنوعًا، سواءً خارج الحزب، أم داخله؟ ولماذا قتل جُوزِيف اسْطَالِين، وباسم «دكتاتورية البروليتاريا»، نسبةً كبيرة من أفراد قيادة الحزب البَلْشَفِي الذي تركه افْلَادِيمِيرْ لِينِين؟ ولماذا قَتَل، أو سَجَن، أو اِضْطَهَدَ، جُوزِيفُ اسْطَالِينُ، ملايينَ من المواطنين المُتَّهَمِين بالمُعارضة، أو بالمُقاومة، أو حتى بمخالفة آراء الحزب[56]؟ ولماذا بَقِيَ مُعظمُ أعضاء الحزب، مَشْلُولِين بالخوف، أو مُجْبَرِين على الخُضُوع، أمام هذه السياسات السْطَالِينية القمعية؟ وهل أطروحة «***دكتاتورية البروليتارية***» هي التي سَهَّلَت تَحَمُّلَ سياسات الاضطهاد؟ ولماذا اسْتَغَلَّتْ قيادة الحزب الشيوعي أُطْرُوحَة «دكتاتورية البروليتاريا» لتبرير

(55) سمير الخطيب، «جدلية الثورة والديمقراطية والاشتراكية»، مقال موجود على موقع "الحوار المُتَمَدِّن"، الأعداد: 5588، و 5598.

(56) أنظر كِتَابَي أَلِكْسَنْدَرْ سُولْجِينِتْسِين: Alexandre Soljenitsyne: (Le pavillon des cancéreux)، (L'archipel du Goulag).

الاستبداد باسم الطبقة العاملة؟ وكيف يُمكن أن تُوجد «دكتاتورية البروليتاريا»، بينما أَصْبَحَت «السُّوفْيِيتَات» (soviets) في عهد اسْطَالِين مَرْهُوبَة، أو مَقْمُوعَة، أو مُتَحَكَّم فيها؟ ***وهل الطبقة العاملة هي حقّا التي مارست «دكتاتورية البروليتاريا»، أم أنَّ مَنْ طَبَّقَ هذه «الدِّكْتَاتُورِيَة» هم بِضْعَةُ أشخاص في قيادة الحزب الشيوعي؟*** وهل كانت الطبقة العاملة طَبَقَة لِذَاتِهَا (pour soi)، أم أنها كانت طَبَقَةْ مَسُودَة، أم مَخْدُوعَة؟ وهل أُطْرُوحَة «دكتاتورية البروليتاريا» سَلِيمَة؟ وهل المُشكل يوجد في تطبيق النظرية، أم أنه يوجد في صُلْب النظرية نفسها؟

وقد نَبَّهَ شَارْل بِيطَلْهَايْم إلى أن ***«السُّلْطَة السياسية» ليست «شَيْئًا»، أو «إدارة»، أو «جِهَازًا»، أو «مُؤَسّسة»، يمكن الاستيلاء عليها، أو احتكارها، وإنما «السّلطة السياسية» هي أساسًا مِيزَان قِوَى مَوْجُود فِيمَا بين طَبقات المُجتمع***[57]. وحينما تَغَيَّرَ ميزان القوى فيما بَيْن طبقات المُجتمع، وحينما أصبح في صالح طبقة أخرى مُناقضة للطبقة العاملة، فإن «السّلطة السياسية» اِنْفَلَتَت من بين يَدَيّ سُوفْيِيتَات البروليتاريا، وانتقلت إلى أيدي بِيروقراطية الحزب الحاكم، دون أن يكون هذا التحوّل مُعْلَنًا، أو مَلْحُوظًا، أو وَاعِيًّا.

وَسَاعَدَ هذا الانحراف السياسي السْطَالِينِي (stalinien)، على امتداد عُقُود، على ***تَطَوُّر «الحزب الشيوعي» إلى نَقِيضِه.*** لأن هذا الحزب الشيوعي السْطَالِينِي لم يَعُد لَا ثوريًا، ولَا شيوعيًا، ولَا ابْرُولِيتَارِيًا، ولَا اشتراكيا، ولَا عَادِلًا، ولَا عَقْلَانِيًا. بل أصيب هذا الحزب الشيوعي السْطَالِينِي بِمرض عقلي، وغدا في حالة من "الاسْتِلَاب" (aliénation)، أو من الحُمْق السياسي. حيث تحوّلت مُعْظَم خِصَالِه الأصلية إلى عكسها.

(57) Charles Bettelheim, Les luttes de classes en URSS, 1ière période 1917-1923, Édition Seuil-Maspéro, Paris, p. 76

وبعد فترة طويلة، أي في سنة 1991، اندلعت في الاتحاد السوفياتي ثورةٌ مُضَادّة، تَزَعَّمَهَا السِكّيرُ بُوريسْ يِلْتْسِينْ. وكان يِلْتْسِينٌ يُثِير الاستغراب والضَّحِك من كثرة سَخَافَتِه. وكان يِلْتْسِنْ شَدِيدَ الانْبِهَار بِالتَشَبُّهِ بالبلدان الرأسمالية الغربية. وكان هدف يِلْتْسِين الأقصى هو فصل رُوسْيَا عن الجمهوريات غير الرُّوسِيَة، وتحويل رُوسْيَا إلى بلد رأسمالي يُشْبِه البلدان الغربية. وكل المسائل الأخرى لَا تهمّ بُورِيسْ يِلْتْسِينْ. واسْتَسْلَمَت بِسُهُولَة غَالِبِيَة أعضاء «الحزب الشيوعي» السْطَالِينِي (الذي كان أعضاءه يفوقون 5 ملايين شخص) لهذه الثورة المُضَادَّة. بل سَايَرَتها، أو نَاصَرَتها. لأن أولئك «الشيوعيين» المَزْعُومِين، تحوّلوا، ومُنذ زمان، إلى نَقِيضِهِم. حيث لم يَعُد أعضاء الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي لَا مُنَاضِلِين، ولَا اشتراكيين، ولَا شيوعيين، ولَا ثوريين. ونَسْتَحْضِرُ هُنَا عبارة ماركس الشهيرة: « ***ليس وَعْي الناس هو الذي يُحَدّدُ وُجودهم الاجتماعي، بل وُجودهم الاجتماعي هو الذي يُحدّد وَعْيَهُمْ***». بِمَعْنَى أن الواقع المُجتمعي المُتَفَسّخ، والمُسْتَلَب، والمُتَخَلّف، في الاتحاد السوفياتي، هو الذي حَدَّد الوَعْيَ المُسْتَلَب، والسُّلُوكَ المُتَفَسّخ، لأعضاء الحزب الشيوعي أثناء انطلاق الثورة المُضَادَّة. حيث أن الحزب الأصلي، أي الحزب اللّينِيني البَلْشَفِي، كان قد مُسِخَ، أو مَاتَ، منذ أن سَيْطَرَ اسْطَالِين وأنصاره على هذه الحزب.

وبعد انهيار الاتحاد السُّوفياتي، تحَوّل الكثيرون من مسؤولي الحزب، ومن مسؤولي الدولة، إلى انتهازيّين مُفْتَرِسِين (بَدَلًا من أن يكونوا سَبَّاقِين إلى الدفاع عن مصالح الشعب). وقرَّرُوا إرجاع الرأسمالية. وَانْقَضُّوا على ثروات وممتلكات الشعب. وحوّلوا معظمها إلى مُمتلكات شخصية خُصوصية، وَبِطُرق مِلْؤُهَا الاحتيال والغِشّ. ومَعلوم أنه في مُجتمع «الاتحاد السُّوفْيَاتي» السَّابق، كانت مُجمل

الثروات مِلْكِيَة اشتراكية، أو ملكية لِعُمُومِ الشعب. لكن بمجرّد أَنْ اِنْهَارَ نظام الاتحاد السوفياتي، ظهر فجأةً أغنياء، ورأسماليون كِبَار، دون أن يَعلم أحد من أين حَصَلُوا على مِلْكِيَّات هذه الثروات الشخصية الهائلة. وتكاثرت مَافْيَات عنيفة ومُتَنَوِّعَة. وعاد من جديد معظم كَادِحِي الشعب إلى نُقطة الصِّفْر، أي إلى الرأسمالية المُفْتَرِسَة، بما فيها من استغلال، وغِشّ، وفَقر، ومُعَانَاة، وفساد، واستبداد.

وبعد انْدِلَاع الثورة الاشتراكية (في سنة 1917)، كان الأفضل، ليس هو العمل بِـ «دكتاتورية البروليتاريا»، وإنما هو العمل بِـ ***«حُكم لِجان الكادحين (أو السُّوفْيِيتَات)»***، في إطار جمهورية اشتراكية، أو في إطار «فِيدِيرَالِيَة الجمهوريات السُّوفْيِيتِيَة». بِمَعْنَى أن جوهر السلطات السياسية ينبغي أن يَنْبُعَ من «لِجَان الكَادِحِين (أو السُّوفْيِيتَات)»، وليس من الحزب الشيوعي الحاكم.

وبعد انْدِلَاع الثورة الاشتراكية (في سنة 1917)، كان الأفضل، ليس هو العمل بِأطروحة «الحزب الوحيد»، وإنَّمَا هو ***إِمَّا العمل بتعدّد الأحزاب، وإِمَّا العمل بِتَعَدُّد التّيَارَات السياسية*** داخل «الحزب الشيوعي الوحيد». وفي حالة العمل بِالتّيَارَات، يلزم ضَمان حُرِّيَات الرأي، والخلاف، والنقد. بالإضافة إلى مَا يَسْتَوْجِبُه العمل بِالتّيَارَات من مُرُونَة، وعَقْلَنَة، في التعامل فيما بين التيَارَات السياسية الثورية. وينبغي أيضًا الحِرْص الشديد على ***أن تكون هذه التيَارَات السياسية مَدَارِسَ فكرية***، مُتَطَوِّرَة في أفكارها، ومُتَغَيِّرَة في أعضائها. ***وَلَا يُعْقَل، وَلَا يُقْبَل، أن تكون التيَارَات السياسية، مَجموعات ثابتة من الأشخاص، أو "قَبَائِل" سياسية عَصَبِيَّة، وَدَائِمَة. وَلَا يُقْبَل من هذه التيَارَات السياسية أن تَتَحَرَّكُ كَحِزْب سِرِّي دَاخِل الحِزْب العَام.*** وَلَا يَجُوز لهذه التيَارَات السياسية أن تتحرّك بمنهج عَصَبِيّ، أو غير عَقْلَانِي. وإذا كانت هذه التيَارَات السياسية حَقِيقَةً مَدَارس فِكرية

صَادِقَة، وليس جماعات عَصَبِيَّة، فإن أعضاء هذه التيَّارَات سَتُغَيِّرُ اِنْتِمَاءَها لهذه التيَارات حسب تَغَيُّر قَنَاعَاتِهَا الفكرية. والتيَارَات السياسية الحقيقية، تَقْبَلُ بِمُرُونَة، وبِسُهُولة، تَطْوِير مُعتقداتها، أو تقْوِيم أُطْرُوحَاتِهَا، أو إحداث تغييرات في أعضائها، وذلك حسب تطور الأفكار، أو القناعات، أو الأوضاع، أو المُعطيات.

وبعد موت اسْطَالِين، وأثناء المؤتمر 22 للحزب الشيوعي السُّوفياتي، قرّر الحزب وضع حدّ نهائي لهذا الانحراف، فَأَلْغَى «دِكتاتورية البروليتاريا»[58].

وهكذا اتَّضَحَ فيما بعد أنه، بَدَلًا من أن تَحْمِيَ أطروحةُ «***ديكتاتورية البروليتاريا***» الكَادِحِينَ من حُدُوث ثورة مُضَادّة، ومن عَوْدَة الرأسمالية، تَحَوَّلَت هذه الأطروحة إلى نَقِيضِهَا. حيث سَاهَمَت، في آخر المطاف، في تَسْرِيع إِنْضَاج ظروف انهيار الاتحاد السوفياتي.

ومن بين دروس تجربة الاتحاد السوفياتي، أن مُعظم أعضاء الحزب الشيوعي الذي تَرَكَه لِينِين، لم يكونوا يَسْتَوْعِبُون أحد قوانين "المادية الجدلية"، وهو: «***إمكانية تَحَوُّل الشيء إلى نَقِيضِه***، حينما تتوفّر بعض الشروط الخاصة». فكانت النتيجة هي سلسلة من المَآسِي، ثم انهيارَ الاتحادُ السوفياتيُّ، ثم اِنْبِعَاث الرأسمالية من جديد. مع انتشار مَوْجَة عَالَمِيَّة، وَقَوِيَّة، مِن الشَكّ، واليَأْس، حول الاشتراكية. ***وكل شعب، أو حزب، أو جماعة، أو شخص، يَرتكب أخطاءً سياسية، فإنه سَيُؤَدّي حَتْمًا ثَمَنَ أخطاءه، ولَنْ يَقدر أبدًا على الإفْلَات من أداء ثمن هذه الأخطاء.***

والسِّمَة التي يَنبغي أن تُمَيِّزَ الثوريين الشيوعيين، هي كَوْنُهم يرفضون المناهج السُّلْطَوِية، ويفضّلون المناهج الثورية، التي تُشْرِكُ

(58) سمير الخطيب، في مقالـه: «جدلية الثورة، والديمقراطية والاشتراكية»، على موقع "الحوار المُتَمَدِّن"، العدد 5588، و 6698.

الجماهير في التفكير القَبْلِي، وفي الإِنْجَاز الجماعي. ولا يعتمد الثوريون على الإِكْرَاه في السياسة. ولا يستعملون التَحَايُل في مجال الإِقْنَاع. وإنما يُفَضّلُون نهج الصِّدْق، والصَّرَاحة، والحقيقة. ويلتزمون دَائمًا بِمُمَارَسَة ***نَهْج الثورة الثقافية الجماهيرية السّلْمِيَة المُتواصلة. وهي التي تعتمد، هي نفسها، على التَعْبِئَة السّلْمِيَة لِلْجَمَاهِير الكادحة، وعلى إطلاق العنَان لِمَلَكَات الحِوَار، والنقد، والتقْوِيم، والتَثْقِيف، والتربية المُتَبَادَلَة، والإنتاج، والإبداع، وَالتَكَامُل، والتضامن.***

ونجد في مُجمل الفكر الاشتراكي، أو الماركسي، حِرْصًا شديدا على ***الرَّبْط بين الثورة والحُرّيَات،*** وبين الاشتراكية والديمقراطية، وبين "الديمقراطية السياسية"، و"الديمقراطية الاقتصادية". فَلَا تَقْبَل الماركسيةُ الفَصْلَ بين الاشتراكية، والحرّيات السياسية، والعَدَالَة المُجتمعية، والتوزيع العادل للثقافة، وللثروات المُنْتَجَة. وهو ما تعجز الرأسمالية على تحقيقه. بل هو من دَوَاعِي التخلّص من الرأسمالية.

6) إنْ انْهارَ الاتحاد السُّوفياتي، لماذا تعاظَمَت الصّين؟

يُشيرُ دَائِمًا أعداء الشيوعية، ***وخصوم الاشتراكية***، بِأُصْبُعِهِم، إلي شيء واحد فقط، هو «اِنْهِيَّار الاتحاد السُّوفياتي»، لكي يُوحُوا إلينا أن: «الماركسية خاطئة»، وأن «الاشتراكية هي مُجَرَّد وَهْم». ونَرُدُّ عليهم: نعم، اِنْهَارَ الاتحاد السوفياتي. ولكن لماذا لا تنظرون أيضًا إلى جارته التي هي الصّين؟ فالحزب الشيوعي الصيني هو الذي حرّر الصين من سيطرة الإمبريالية، وَوَحَّدَ تُرَابَهَا الوطني، وأخرجها من تخلّف قُرُون وُسْطَوِي (moyenâgeux)، وقاد عملية بناء "اشتراكية" ذات خُصُوصية صِينية. ***وحوّل الحزبُ الشيوعيُّ الصّينَ، خلال قرابة 70 سنة فقط، من بلد مُتَخَلِّف، وشبه إقطاعي*** (*quasi féodal*)، ***إلى أكبر قُوَّة اقتصادية في العالم***. بينما لَوْ سَلَكَت الصّينُ (منذ استقلالها في سنة 1949) طريقَ الرأسمالية، فإن مصيرها الأكثر احتمالًا سيكون اليوم مثل مَصير الفِيلِيبّين، أو طَايْلَانْد، أو بلدان أمريكا اللاتينية، أو إفريقيا، أو بلدان العالم الناطق بالعربية. أي تَجْزِئَة البلاد، وبَلْقَنَتِه، والتخبّط في تَخلف مُجتمعي دائم، والخُضُوع لِتَبَعِيَة قَاهِرَة للإمبرياليات العالمية. وهو ما لا يعتبره خُصُوم الاشتراكية.

ويَزْعُمُ آخرون أن «مَا نجح في الصّين هو الرأسمالية»، وأن «الصين هي بلد رأسمالي مَحْضٌ». لكن هؤلاء المُعلّقين نَسَوْا أن الصّين، خلال

عهد الرئيس مَاوُو زِي دُونْغْ (أي بين سنتي 1943 و 1976)، سَلَكَت خَطًّا سياسيًا ثوريا "شِيُوعِيًا". وعلى امتداد عهد مَاوُو، لم تكن للصّين علاقات اقتصادية خارجية سوى مع الأنظمة "الشيوعية" المُجاورة (أي الاتحاد السوفياتي، وكوريا الشمالية، وفِيتْنَام). وكان مَاوُو يُؤَكِّد (منذ سنة 1940، تاريخ صدور وثيقته المُعنونة بِـــ «الديموقراطية الجديدة») أن ***التخلّف الاقتصادي للصّين يَفْرِضُ استمرار وُجُود مُوَازٍ (parallèle) لِأنشطة ومؤسّسات اقتصادية ذَات طبيعة رأسمالية مُتَحكَّم فِيها.*** لكن مَاوُو (وكذلك الحزب) لم يُعَمِّقَا آنذاك هذه الأطروحة بما فيه الكفاية. وَعَادَ مَاوُو إلى فَرْض تَجْمِيع وتَأْمِيم الأراضي الفلاحية (عبر «حركة القَفْزة الكُبرى»، بين سنتي 1958 و 1961). لكن سياسة تجميع الأراضي الفلاحية في الصّين فشلت نِسْبِيًّا آنذاك (مثلما فشلت مثيلتها في الاتحاد السوفياتي في سنة 1937).

وإِجْمَالًا، خلال عهد مَاوُو، نجح نِسْبِيًّا النظام السياسي الشيوعي في تحرير الصين من هيمنة الإمبريالية (اليابانية، ثم الأمريكية)، وفي إخراج الشعب الصيني من الجزء الأكبر من التخلّف المُجتمعي البِنْيَوِي الذي كان غارقًا فيه، وحَسَّن الأوضاع المعيشية لِقرابة 900 مليون نسمة، وهَيَّأ جزءًا مُعْتَبَرًا من الشُروط الضرورية لإقلاع التَنْمِيَة الاقتصادية. وهذا التقييم العام لا ينفي حُدُوث بعض الأخطاء، أو المُبالغات، أو الانحرافات، أو الصراعات، أو الضحايا.

وقد أَطْلَقَ الحزب الشيوعي الصّيني عِدّة ***حركات جماهيرية «ثقَافية»، أو «تَصْحِيحِيَة»***، مثل «حركة مِئَة زَهْرَة» في سنة 1956، و«حركة القَفْزَة الكُبْرَى» في سنة 1958، و«حركة التَرْبِيَة الاشتراكية» في سنة 1962، و«حركة الثورة الثقافية» في سنة 1966. وكانت هذه الحركات مغامرات، أو تجارب مُجتمعية جَديدة، وفريدة من نوعها. وتَخَلَّلَت هذه «الحركات» صراعات سياسية حادَّة. واستغلّها البعض

لتصفية حسابات شخصية ذاتية، عبر اِتِّهَام خُصُومِهِم بِحَمْلِ أفكار يَمِينِيَة. وتَسَبَّبَت هذه «الحركات» في خَلْخَلَة الأنشطة الاقتصادية. وكادت أن تتحوّل أحيانًا إلى "حرب أهلية"، لَوْلَا تحكّم الحزب الشيوعي في تطوّرها العام. وحدثت أيضًا بعض المُبَالَغَات خلال هذه «الحركات». وتعرّض بعض ضحايا هذه «الحركات» (وكذلك أفراد عائلاتهم) لِمُعَامَلَات قَاسِيَة، أو مُبالغ فيها، أو جَائِرَة، أو غير مُبرّرة. واسْتُعْمِلَت خلالها بعض الأساليب السْطَالِينِيَة (stalinien) العَنيفة، مثل الضرب، والحبس، والعَزْل في "مُعَسْكَرَات التقويم" النائية، إلى آخره. لكن الإعدامات الجائرة في الصّين كانت أقل بكثير مِمَّا حَدث خلال عهد جُوزِيف اسْطَالِين في الاتحاد السوفياتي.

وَبعدما رَكَّزت الصين على تشييد البنيات التَّحْتِيَة الضرورية للصناعات الثقيلة، تَكَرَّرَ في الصّين نقْصٌ في البضائع البسيطة، أو العادية، المَعروضة في الأسواق[59]. وكان هذا النقْصُ يُذَكِّر بالنقص الذي شُوهِدَ في الاتحاد السوفياتي، وذلك لأسباب مُمَاثِلة (خلال سنة 1932، ثم سنة 1946). وأحسّ بعض قادة الحزب الشيوعي الصيني أن الدولة الصينية الفَتِيَة، لَا تقدر على توفير جميع السِّلَع، أو الحاجيات المادية، بالكَمِّيَة الكافية، وبالسُّرْعَة المَطلوبة، التي يحتاج إليها هذا الشعب الضّخم (والذي تحوّل من 600 مليون شخص في سنة 1949 إلى 900 مليون نسمة في سنة 1976، رغم سياسة «الاِبْنِ الوَحِيد» المُطَبَّقة في المُدُن الكبيرة). وأحَسَّ قادة الحزب أن وَتِيرَة النمو الاقتصادي بطيئة نسبيا، ولا تستجيب للحاجيات المُتَسَارِعَة. وفكّر بعض أطر الحزب الشيوعي الصّيني في ***الاستعانة بالسَّماح، ولو جزئيا، ومؤقّتًا، لِلْمُبَادرات الاقتصادية الفردية (الرأسمالية) المُدرَّة لِلرِّبح***. وَدَارَت آنذاك صِراعات سياسية مُتعدّدة حول هذا الموضوع

(59) حدثت مجاعة في الصّين بين سنتي 1958 و 1962.

داخل الحزب الشيوعي الصيني. وكانت النقاشات مُعَقَّدة، ومُحَيِّرَة. هل يحقّ، خلال مرحلة الاشتراكية الانتقالية، تكميل الاقتصاد الاشتراكي باقتصاد رأسمالي مُتَحكَّم فيه؟ هل نقِفُ عند حُدود قراءة حرفية للنظرية الماركسية (بما فيها نصوص افْلَادِيمِير لِينِين)، أم نَتَكَيَّف بشكل ثوري مع واقع لم يَعِشْهُ لَا ماركس، ولَا لِينِين؟ وهل السّماح بأنشطة رأسمالية، ولو جزئية، وَمُتَحَكَّم فيها، سَيُؤَدّي حتمًا إلى القضاء على مُجمل "الاقتصاد الاشتراكي"، وعلى النظام السياسي "الاشتراكي"؟ وما هو الاحتياج الأكثر استعجالًا؟ هل هو صِيَانَة النقَاوَة المبدئية للاشتراكية، أم هو تَسْرِيع عملية إخراج الشعب من الدائرة المُفَرَغَة لِلْفَقْر وَالتَخَلُّف؟

وَنُسِبَ إلى ماوو تسي تونغ أنه كتب عن "***رأسمالية الدولة***": «إن الاقتصاد الرأسمالي الموجود حاليا في الصّين هو اقتصاد رأسمالي خاضع في أغلبه إلى سيطرة الحكومة الشعبية، ويرتبط بالاقتصاد الاشتراكي المملوك للدولة بأشكال عديدة، وَمُرَاقَب من قِبَل العمّال. إنه ليس اقتصاد رأسمالي عادي، ولكنه نوع خاص من الاقتصاد الرأسمالي، يُعرف باقتصاد رأسمالية الدولة من نوع جديد. إنه وُجِدَ ليس بهدف تحقيق أرباح للرأسماليين، ولكن لتلبية حاجات الشعب والدولة. صحيح أن حصة من الأرباح المُتَأَتِّيَة من مَجهود العمال تذهب إلى الرأسماليين، لكنها جزء صغير فحسب، حوالي ربع واحد، من إجمالي الربح. أمّا الثلاثة أرباع الأخرى فترجع لِتَعُودَ إلى العمال (في شكل مَوْرِد لِلرَّفَاهِيَة)، وإلى الدولة (في شكل ضريبة دَخْل)، وإلى السعة الانتاجية المتوسّعة (جزء صغير منها يُولد أرباح للرأسماليين)»[60].

(60) ماوو تسي تونغ، المجلد الخامس من مؤلفات ماوو تسي تونغ المختارة، 9 تمُّوز 1953، النسخة الأنجليزية في أرشيف الأنترنيت، عن موقع "صوت الشيوعيين العرب".

وبعد موت مَاوُو في سنة 1976، قال الحزب الشيوعي الصيني، إن ***احتياج الصين إلى تسريع وثيرة نُمُوّها الاقتصادي، في إطار عَوْلَمَة رأسمالية مُعَادِيَة، وفي إطار مُحاصرة اقتصادية من طرف الإمبريالية، هو الذي دَفَعَه (مؤقّتًا) إلى اِتّبَاع طريق «بَلَد واحد، بِنِظَامَين» اقتصاديّين مُخْتَلِفَيْن*** (أي المَزْج بين الاشتراكية والرأسمالية، تحت قيادة الحزب الشيوعي). وهي الأطروحة التي دافع عنها تِيَار الرئيس دِينْغْ اهْسْيَاوُو بِينْغْ (ولو أن هذه الأطروحة التوفيقية لا تُوجد في النظرية الماركسية الكلاسيكية).

ويجب التذكير أنه، خلال قرابة سنوات 1930، كانت آنذاك الصّين تشبه المَغرب، أو الجَزائر، أو العِراق، أو مِصر، أو إِنْدُونِيسْيَا، من زاوية ***التخلّف*** الاقتصادي، والثقافي، والمُجتمعي. وبعد وفاة الرَّئِيس الصّيني مَاوُو زِي دُونْغْ (في سنة 1976)، تَسَارَعَ صُعود التِيَار السياسي لِـ "دِينْغْ اهْسْيَاوُو بِينْ". وسَبَق لِـ "دِينْغْ اهْسْيَاوُو بِينْ" كشخص، وكذلك كَتِيَّار سياسي، أن أُدِينَ عِدَّة مَرّات إِبَّانَ "الثورة الثقافية" بِالدِّفَاع عن أطروحات "يَمِينِيَة"، أو "بُورْجْوَازِيَة"، أو مُنْحَرِفَة عن الاشتراكية. ثمّ سيطر هذا التِيَار على قيادة الحزب والجيش الأحمر. وأصبح بِسرعة "دِينْغْ اهْسْيَاوُو بِينْ" خَلَفًا للرّئِيس مَاوُو. وكان تِيَار "دِينْغْ اهْسْيَاوُو بِينْ" يُكَرِّرُ مَقولته المَشهورة: «لَا يَهم أن يكون القِطُّ أسودًا أو أبيضًا، وإنما المُهم هو أن يَصطاد الفِئْرَان»! وهي أطروحة غامضة إلى حَدّ المُغَالَطَة. ومن زاوية المَنْطِق، تَنْبَنِي هذه المقولة على مُقارنة خاطئة. إذ تقَارِنُ بين «القِطّ» و«اقتصاد البلاد». ويمكن أن يكون المعنى المُوحَى به من خلال هذه العبارة هو: لا يهم أن يكون المواطن اشتراكيا أو رأسماليا، ولكن المهم هو أن ينتج الرِّبْحَ، أو "فَائِضَ القِيمَة" (plus-value). فنتساءل: هل هذه المَقُولَة سَليمة؟ هل كانت الغاية المُستعجلة لدى الحزب الشيوعي الصّيني هي أساسًا: الخروج بِسُرعة

من التخلّف الاقتصادي؟ هل يشكل هذا التحوّل انحرافًا عن الماركسية، أو خروجا عن الاشتراكية، أو رُجُوعًا إلى المَنطق الرأسمالي؟ وإذا فَضَّلْنَا إنتاجَ المالِ والرأسمال، ومهما كانت الوسائل والنتائج، فهل هذا الاختيار يعني أننا فضّلنا التَخَلِّيَ عن هَمِّنَا الأصلي، والذي هو تحرّر الشعب من الاستغلال الرأسمالي والطَّبَقِي؟ هل يعني أننا فضّلنا العودة إلى الرأسمالية المُتَوَحِّشَة، بكل ما فيها من استغلال واسْتِلَاب؟

وتحت حُكْم دِينْغْ هْسْيَاوُو بِينْغْ (Deng Hsiao Ping)، وبعد مُؤْتَمَر الحِزب الشيوعي الصيني في مدينة وُوشِي (Wuxi)، في نِيسَان عام 1979، كان عدد من الْاِقْتِصَادِيّين الصِينِيّين البَارِزِين، التَّابِعِين للحزب الشيوعي الصِيني الحَاكِم، يَمِيلُون إلى اِعْتِبَار أن «اقتصاد السُّوق ليس بِالضَرُورة رَأْسَمَالِيًّا». وكانوا يَعْتَبِرُون أنه «مِن الخَطَأ الاعتقاد بأن اقتصاد السُّوق لَا يُوجد سِوَى في المُجتمع الرَّأْسَمَالي». وأنه «مِن المُمْكِن تَطْوِير اقتصاد السُّوق في إِطَار نِظَام اِشْتِرَاكِي». وأن «الاقتصاد المُخَطَّط ليس بالضَّرُورة اِشْتِرَاكِيًّا». وأنه «بالإمكان دَمْج اقتصاد السُّوق داخل نِظَام اِشْتِراكي». وفي أيلول 1982، صَدَر عن المُؤتمر الوطني الثاني عشر للحزب الشيوعي الصيني أن «الهَيْكَل الأَسَاسِي للنظام الاقتصادي يَتَشَكَّل من الاقتصاد المُخَطَّط، بِاعْتِبَاره الدَعَامَة الأساسية، وَضَبْط السُّوق كَعُنْصُر مُكَمِّل».

والعَيْب في هذه الطُرُوحَات السَّابِقَة هو أن أصحابها كانوا يُرَكِّزون على نِقَاش نَظَرِي لِلْعَلَاقة بين السُّوق والتَخْطِيط والاشتراكية، لكنهم كانوا يَتَنَاسَوْن، أو يُهَمِّشُون، دَوْرَ الكَادِحِين وَسُوفْيِيتَاتِهِم (وَلِجَانِهِم) في تَسْيِير المُؤَسَّسَات المُنْتِجَة. وكانوا يُهْمِلُون عَلَاقَات الكَادِحِين بالسُّلطة السياسية القائمة. وكان اِقْتِصَادِيُّو الحزب يَتَكَلَّمُون عن عناصر نظرية غامضة، وَيَتَجَاهَلُون فَاعِلِين مُجْتَمَعِيّين أَحْيَاء، هُم الكَادِحُون

المُنْتِجُون. رُبَّمَا لأن بِيرُوقْرَاطِيَة الحزب الشيوعي الصيني لم تكن تَقْبَل بأن يُشارك الكَادِحُون في تَدْبِير أو مُمارسة السُّلْطَة السياسية. خاصّة وأن جزءًا هامًّا من كَوَادِر الحزب الشيوعي الصيني أصبحوا هُم أَنْفُسُهُم أَغْنِيَّاء، أو مُسْتَثْمِرين.

وفي مثال ***الصّين***، وإلى حدود نهاية سنوات 1970، كانت المُقاولات العُمُومِيَّة تُمَثِّل قرابة 99 % من مجموع مقاولات البلاد. ولاحظت قيادة الحزب الشيوعي (في سنوات 1970) الخسائرَ الضخمة والمتكرّرة التي تتسبّب فيها بعض المقاولات العُمومية. فَأَقْدَمَت هذه القيادة، خلال عُقُود مُتَوَالية، على إنجاز عدّة إصلاحات لِتحسين إنتاجية المُقاولات العُمومية. ومن بعد، دخلت الصّين في سياسة «الانفتاح على السوق العالمية» لِجَلْب الاِسْتِثْمَارَات من الدول الرأسمالية المتقدّمة. واتَّبَعَت قيادة الحزب «الإصلاح عبر مَسَارَيْن مُزدوجين»، المعروف أيضًا باسم «الإصلاح بدون خَاسِرين». وَوَاجَهَ هذا الإصلاح تَحَدِّيًا مُزدوجًا: تَوفير حوافز اقتصادية لِرَفْع الإنتاجية، وفي نفس الوقت، توفير «شَبكة أَمَان اجتماعي» كافية لِتقْلِيص الخوف من التغيير.

وتعمل الصين بِمُخَطَّطَات استراتيجية كُبْرَى، في مجالات الفلاحة، والصناعة، والتعليم، والبحث العلمي، والبنيات التحتية، والتِكْنُولُوجيَات، إلى آخره. وتَحْرُصُ الصّين على غَلَبَة القطاعات الاقتصادية العُمُومِيَة على الأنشطة الاقتصادية الخُصُوصية. وتنفتح الصين بشكل جزئي وتدريجي على الخارج، على الخُصوص في «المناطق الاقتصادية الخاصة»، والتي تُغَطِّي اليوم تقريبا الساحل الصّيني بأكمله. وتمنح هذه «المناطق الاقتصادية الساحلية الخاصة» شروطًا مُشَجِّعَة للشركات الأجنبية (مثل تخفيض الرُّسُوم الجُمركية، وحُرِّيَة الاِسْتِعَادة المَجَّانِيَة للاستثمارات وللأرباح، وإعفاء الشركات الأجنبية من

الضرائب خلال السنوات الأولى لِعَملها في الصين، ثم إخضاعها لِضرائب مُخَفَّضَة جداً فيما بعد، ومنح المُدِيرِين التِقْنِيّين الأجانب الذي يأتون للعمل داخل الصين صفة "خارج عن التُرَاب الوطني"). وفي قرابة سنة 2000، أصبحت الصّين هي «مَعْمَل العالم» (fabrique du monde). وفي عام 2006، أصبحت تعمل فوق التراب الوطني الصّيني أكثر من 400 شركة من بين الشركات العالمية المُدْرَجَة في قائمة "الشركات الـ 500 الأكبر في العالم" (Fortune 500)[61]. كما أن عددا كبيرا من الشركات الصينية غدت تتوفّر على أنشطة اقتصادية خارج الصّين.

وأدّى النمو السَّريع للقطاع الخاص في الصّين إلى تقليص حِصَّة المقاولات العُمومية مِن حَوالي 99 % من مجموع مقاولات الصّين، في نهاية سنوات 1970، إلى 25 % في عام 2013[62]. فَمَا هو مآل هذه التغييرات؟ يبقى النقاش مفتوحًا. وكل الاحتمالات واردة (بما فيها غَلَبَة التوجّه الرأسمالي على التوجّه الاشتراكي، أو العَكْس). ويمكن للصّراعات السياسية الجارية في قيادة الحزب الشيوعي الصيني أن تَحْسِمَ التطوّر إما في اتجاه التَبَنِّي التَام لِلرأسمالية، أو التَمَسُّك بالاشتراكية.

ومنذ وصول دِينْغْ اهْسْيَاوُو بِينْغْ إلى قيادة الحزب الشيوعي في سنة 1976، دَخَلَت الصّين في تَشْيِيدِ (مَا سَمَّاه الصينيون) «اقتصاد اشتراكي لِلسُّوق»، ثم «رأسمالية صينية بخصائص اشتراكية». واستمرّت هذه السياسة حتى بعد تَنَحّي دِينْغْ من السُّلطة في سنة 1992. وكان دِينْغْ اهْسْيَاوُو بِينْغْ مِثل بُورِيسْ يِيلْتْسِينْ (في "الاتحاد السُوفياتي" السَّابق) مُعْجَبًا إلى حَدٍّ كبير بِتَقْلِيد البلدان الغربية

(61) https://fr.wikipedia.org/wiki/Réforme_économique_chinoise

(62) Économie de la république populaire de Chine, sur Wikipédia, consulté le 25/11/2018.

المُتقدّمة. وعلى خلاف بعض الإدّعَاءَات، لَا يتوفّر تِيَّار دِينْغْ اهْسْيَاوُو بِينْغْ على نظرية سياسية جدِيّة، أو واضحة، أو مضبوطة. والاعتقاد الأساسي في فكر تِيَّار دِينْغْ اهْسْيَاوُو بِينْغْ هو أنه «إذا سمحنا للمواطنين بِأَنْ يَغْتَنُوا بِالطُرُق التي يُفَضّلُون، أو التي يقدرون على إنجازها، فإن تنمية الاقتصاد الوطني سَتَتَحَقَّقُ بسرعة». وكان تِيَّار دِينْغْ اهْسْيَاوُو بِينْغْ يعتقد أنه يكفي استرجاع «المِلْكِيَة الخاصّة»، و«حرّية المُبادرة»، لِكَي تتحقّق مُعجزة تَنمية الاقتصاد الوطني. وإذا كانت هذه السياسية قد نجحت ظَاهِرِيًّا في الصين بين سنوات 1978 و 2016، فَلِأَنَّهَا اِسْتَفَادَت مِن وُجود بِنْيَة تحتية هائلة ومُساعدة. ومِن الطبيعي أن تراجع أي مُجتمع مِن تَوَجُّه اشتراكي إلى تَوَجُّه رأسمالي، يُوَفِّرُ فَوْرًا تَنمية اقتصادية هامّة، لكنها مؤقتة. ومِن المعروف أن مُجمل بلدان العالم الثالث يُطبّقون نفس الاعتقاد الذي دافع عنه دِينْغْ اهْسْيَاوُو بِينْغْ (تحت شعار «إِغْتَنُوا بِلَا حَرَج أيها المواطنون!») دون أن تَتَحَقَّقَ تنمية الاقتصاد الوطني بالقدر المُبْتَغَى.

وقد تعرّض دستور جمهورية الصّين الشعبية لِعِدَّة تغييرات (مثلا في سنوات 1954، و 1975، و 1978، و 1982، و 2004). وذلك في ارتباط بالتطوّرات الكَيْفِيَة التي حدثت في مجال الصراع الطبقي الجاري داخل مجتمع الصّين. حيث تحوّل الحزب الشيوعي الصّيني «مِن حزب ثوري قائم على أساس الصراع الطبقي، إلى هيئة مَفتوحة، على أساس المساواة بين جميع المواطنين الصّينيّين أمام القانون»[63]. كما قرّر الحزب الشيوعي الصّيني «تَقْلِيص أهمية أُطروحة الصراع الطبقي، والاعتراف الرّسمي بِدَوْر القطاع الخاص، وبِحُقوق المِلكية الخاصة»[64].

(63) https://fr.wikipedia.org/wiki/Réforme_économique_chinoise

(64) نفس المصدر السابق.

وهو ما يُشكّل رِدَّة واضحة نحو الرأسمالية. وقد أصبحت أكثر من 80٪ من أسهم بُرْصَات الصّين تُوجد بين أيدي مُلّاك صغار صينيين[65].

وَتَمْزِجُ الصّين بين رأسمالية الدولة الوطنية، ورأسمالية خُصوصية. وشكّلت السُّوق الصينية، بِسُكّانِها الذين يتجاوز عددهم 1،3 مِلْيَار نسمة في سنة 2000، طَعْمًا لا يُقَاوَم لَدَى مُجمل رَأْسَمَالِيّي العالم. حيث تَجْذُب هذه السُّوق الكثيرينَ من المُستثمرين الرأسماليين، ومن جميع أنحاء العالم. واستهوت الصّين كذلك مُستثمرين صِينِيّين من جزيرة تَايْوَان (Taïwan) المجاورة (التي سبق لها أن استفادت من دعم الإمبرياليات الغربية بين سنوات 1950 و 1970، لتشجيعها على الانفصال عن الصّين، والعَدَاء لَهَا). ولعب هؤلاء التَايْوَانِيُّون دورًا هَامًّا في تنشيط الاستثمارات في الصّين. وغَدَى اقتصاد تَايْوَان لا يقدر على الاستغناء عن اقتصاد الصّين (حيث تبلغ صَادِرَات تَايْوَان نحو الصين 23 % من إنتاجها الداخلي الخام)[66].

وكانت الصّين في البداية تُجبر الشركات الأجنبية التي تُرِيد العمل على أراضيها، والاِسْتِفَادَة من تَسْهِيلاتها المُغرية، تُجْبِرُها أولًا على تكوين شَرِكة مُشتركة مع رأسمال مَحَلّي صيني؛ وتُجبرها ثانيًّا على تحويل تكنولوجياتها إلى المَجَال العَامّ في حالة نقل مصانعها إلى خارج الصّين[67]. ثم تطوّرت هذه الشروط مع مرور الوقت. وبدأت الصين بصناعة السّلع البسيطة، ثم توسّعت إلى المنتوجات التي تحتاج إلى

---

(65) https://fr.wikipedia.org/wiki/conomie_de_la_republique_populaire_de_Chine#1976_aujourd'hui_:_l'essor_de_economie_socialiste_de_marche

(66) Rééquilibrage de l'Économie Chinoise: Un état des lieux, Françoise Lemoine & Deniz Ünal, CEPII, 14ème colloque de l'Association de Comptabilité Nationale Paris.

(67) https://fr.wikipedia.org/wiki/Économie_de_la_république_populaire_de_Chine.

خبرات مُعمّقة، أو إلى تِكْنُولُوجِيَّات مُتقَدِّمَة. وبعد حدوث نمو اقتصادي مُعتبر في الصّين (بعد سنة 2000)، لم تعد الصينُ تَقبل على تُرَابِهَا سِوى الشركات الأجنبية التي تستعمل تكنولوجيات رَائِدَة على الصعيد العالمي. ولا تفرض الصين على هذه الشركات الرَّائِدَة سوى شروطًا بسيطة (بالمقارنة مع نوعية الشروط التي كانت تفرضها الصين خلال سنوات 1980 و 1990). لأن استقواء اقتصاد الصّين جعلها لَا تخاف من تواجد هذه الشركات على أراضيها.

ودخلت الصين (منذ سنوات 1980) في تجربة: «دولة واحدة، بِنِظَامَين» (أي المَزْج بين نظام اشتراكي، ونظام رأسمالي، داخل دولة واحدة، وتحت قيادة الحزب الشيوعي الصّيني). فَحَدَثَ نَوْعٌ من ***المُعجزة الاقتصادية*** في الصّين. حيث انتقلت نسبة النُمُوّ السَنَوِي "للإنتاج الداخلي الخام" (PIB) من مُعَدَّل 6 % إلى مُعدّل 12 %. وذلك خلال قرابة خمسة وعشرين سنة مُتَوَالِيَة. وشَهد بعض الاقتصاديين أنه لم يَسبق للعالم أن رأى مثل هذا التطور الاقتصادي السّريع الفريد مِن نَوعه. وأصبحت الصّين منذ قرابة سنة 2010 هي القوة الاقتصادية الأولى في العالم، من حَيث حَجم "الإنتاج الداخلي الخام"[68].

وإلى حدود قرابة سنة 1990، كانت ***حِصَّة الصّين في السوق العالمية في مجال تصدير السّلَع المُصَنَّعَة*** (biens manufacturés) تبلغ أقلّ من 2 %. لكن في سنة 2009، أصبحت حِصَّة الصّين (في مجال تصدير السّلع المُصنّعة) هي الأولى عالميا، حيث بلغت نسبة 16 %

(68) المقصود هنا هو الناتج المحلي الإجمالي بِاعْتِبَار "تَعَادُل القُوَّة الشِّرَائِيَة" (PIB à parité de pouvoir d'achat). وَيَعْتَمِدُ منهج "تعادل القوة الشرائية" على استعمال مِقْيَاس القوة الشرائية، فيما يتعلق بـ "سَلَّة" تَتَكَوَّنُ من 3000 منتوج، بدلاً من الاعتماد على تحويل الناتج المحلي الإجمالي عَبْرَ استعمال "سِعْرِ الصَّرف الرسمي".

(مقابل 11 % لألمانيا، و8 % للولايات المتحدة الأمريكية، و 7 % لليابان)[69]. وفي نفس الوقت، أصبحت حِصَّة الصّين في الاستيراد العالمي هي 12 % من الطَّلَب العالمي (مُقابل 16 % للولايات المتحدة الأمريكية، و 16 % للاتحاد الأوروبي)[70].

وفي سنة 2008، أنتجت الصّين: 38 % ***من الإنتاج العالمي*** لِلصُّلْب (acier)، و 50 % من الإِسْمَنْت، وتستعمل 60 % من مَعْدِن الحَدِيد المنتوج في العالم، و 50 % من النُّحَاس، و 48 % من الأَلُومِنْيُوم، و45 % من النِيكَل (nickel). ولِلصّين فائض في الإنتاج في عِدَّة مَيَادين مثل الصُّلب، والإسمنت، والزُّجَاج، والألومِنْيُوم، والنِيكَل والأَتْرِبَة النَّادِرَة (terres rares)، إلى آخره. وتنتج الصين قُرابة 10 مليون سيارة في العام[71]. وتُعْتَبَر الصين من البلدان الأكثر تقدُّمًا في العالم في مجالات الاتصالات البَعيدة (télécoms)، والقِطار فائق السُّرعة (TGV)، وتقنيات "فيزياء الكَمّ" (physique quantique). وتحتلّ الصّين المرتبة الأولى عَالَمِيًّا في مجال تكوين المُهندسين. حيث تُكَوِّنُ الصّين في كلّ عام قُرَابَة 1 مليون مُهندس (تَلِيهَا الهند بِـ 0،5 مليون مهندس، ثم كوريا الجنوبية)[72]، ولو أن نوعية أو جودة المهندسين قد تَختلف من بلد إلى آخر. وقد اندمجت الصين بقوة في

---

(69) Rééquilibrage de l'Économie Chinoise: Un état des lieux, Françoise Lemoine & Deniz Ünal, CEPII, 14ème colloque de l'Association de Comptabilité Nationale Paris.

(70) نفس المصدر السابق.

(71) https://fr.wikipedia.org/wiki/%C3%89conomie_de_la_r%C3%A9publique_populaire_de_Chine

(72) Qui seront les ingénieurs de demain?", ParisTech Review, sur le" Blog "LesEchos", http://blogs.lesechos.fr/paristech-review/a13937.html

النظام الاقتصادي الرأسمالي العالمي. وقاومت الصّين بشكل جيّد مُخَلَّفَات الأزمة المالية العالمية التي اندلعت في سنة 2008.

وبعد قرابة 40 سنة من الانفتاح على السوق العالمية الرأسمالية، ظهرت في الصين أعراض مُشابهة للمشاكل الموجودة في البلدان الرأسمالية المتقدّمة، مثل تَفَشّي الرَّشْوَة، والغِش، والفَسَاد، وتكاثر أعداد الأغنياء الكبار، مثل "المِيلْيَارْدِيرات" (milliardaires)، والتفاوت الكبير في المَدَاخِيل (خاصّة بين المدن والقرى)، وتَلَوُّث البيئة، والفُقَاعَات العَقَارِيَة، وتَنَاقُص ضئيل في نسبة السُكَّان المؤهّلين للشغل (actifs)، وتناقص نسبة نمو الإنتاج الداخلي الخام (مِن قُرابة 12 % إلى نحو 7 %)، إلى آخره. وتَتَزَايد مظاهر الصراع الطبقي، حيث أن الأغنياء الجدد يَتَقَوَّوْنَ أكثر فأ:ثر، ويُقَاوِمُون كل تغيير يُحُدُّ من فرص الزِيَادَة في اغتنائهم، ويطالبون بِتعميق الإصلاحات الرأسمالية. وبعض أعضاء الحزب الشيوعي (في قمّته وفي قواعده) هم أنفسهم من بين هؤلاء الأغنياء الجُدد. وفي سنوات 2000، نُشرت عِدَّة شهادات نابعة من مصادر مختلفة (بما فيها بعض المواطنين الصّينِيّين) تتحدّث عن انتشار الرّشوة، والفساد، والزُّبُونِيَة، سواء في مؤسّسات الدولة الصينية، أم في الحزب الشيوعي الصيني[73]. وهذه الأمراض المُجتمعية مُرتبطة بالرأسمالية، ولَنْ يقدر الحزب الشيوعي الصّيني على الحَدّ منها، أو على التخلّص منها، دون التخلّص من الرأسمالية.

فهل ابتعدت الصين عن الاشتراكية؟ هل نجحت قيادة الحزب الشيوعي فيما هو مُستعجل، أي إخراج الصين من التخلّف الاقتصادي،

(73) منها مثلًا رِوَايَة: Qiu Xiaolong, "Dragon bleu, tigre blanc", Edition Liana Levi, 2014, Traduction française). وأذاعت القناة التلفزية "بِي بِي سِي" بالعربية، في 20 يناير 2019، فيلما وثائقيا، يُظهر مواطنين صينيين يشهدون على «انتشار الرشوة والفساد» في الصّين.

وتَرْسِيخها في التنمية الاقتصادية؟ يُمكن لأيّ ملاحظ ماركسي أن يُوافق، أو أن يُعارض، هذا الاختيار الذي اِتَّبَعَتْهُ الصّين. لكن الحزب الشيوعي الصيني يقول إنه يَحْرُصُ على تَلَافِيَ بعض ***الأخطاء القاتلة*** التي سبق أن ارتكبها شَقِيقُهَا الاتحاد السوفياتي. ألم يكن اِتِّبَاعُ الصّين لِسياسة المَزْج بين "اقتصاد اشتراكي" و"اقتصاد رأسمالي" أَحْسَنَ من خطر تعرّض الصّين لانهيار مُشابه لِمَا حَصَل في الاتحاد السُّوفياتي؟ ولماذا لَا تُحاول الصّين مُقاومة الإمبرياليات الغربية، أو حتى هَزْمها، عبر استعمال أسلحة الإمبريالية المُعتادة، المُتَجَلِّيَة في أنشطتها الاقتصادية؟

وقال مثلًا أستاذ الاقتصاد رِيمِي هِريرَا (Rémy Herrera) عن الصّين إنه «تُوجَدُ بالتَّأْكِيد عناصر رَأْسْمَالِيَة في الصّين، لكن هذه البلاد ليست رأسمالية مِنَّة في المِنَّة. حيث مَا زالت تُوجد في الصّين المِلْكِيَة العُمومية للأرض، والخدمات الاجتماعية، والتخطيط المركزي الاشتراكي». وعلى خلاف كلام هِيرِيرَا، تُشير التدابير المتخذة في الصّين في نهاية عام 2014 إلى تسريع الإصلاحات في اتجاه تسهيل الحصول على حقوق ملكية الأراضي الزراعية، وهي من بين المصادر المُزمنة للرّشوة والفساد[74]. وَوَصَفَ هِرِيرَا الصّينَ بكونها «رأسمالية الدولة في طَوْر الانتقال إلى الاشتراكية»[75]. وهو رأي متفائل جدًّا.

ونذكّر أن الظاهرة المعروضة سابقًا، التي وَقَعَت في الصّين، حدثت مَثِيلَتُهَا في الاتحاد السوفياتي، دون أن تَتَكَلَّلَ بالنجاح. فَمنذ قرابة سنوات 1980، بدأ بعض أطر الحزب الشيوعي السوفياتي يُحِسّـــُون

(74) https://fr.wikipedia.org/wiki/Reforme_economique_chinoise

(75) رِيمِي هِريـرَا (Rémy Herrera)، في فِيـدِيُو حـول كتابه المعنـون بِـ: "La maladie dégénérative de l'économie, le néoclassicisme". [https://www.facebook.com/profile.php?id=100009294356071].

أن الاتحاد السُّوفياتي دخل في حالــة من الهُزَال، أو الانهيار التَدْرِيجِي، وأن اقتصادات بلدان مُنَافِسَة مثل اليابان، وألمانيا، ستتجاوز في الأمَد القريب اقتصاد الاتحاد السوفياتي. وحاول مِيخَائِيل غُورْبَاتْشُوف إطلاق "سياسة اقتصادية جديدة" (Nouvelle Économie Politique, NEP)، تُذَكِّرُ بسياسة دِينْغْ اهْسْيَاوُو بِينْغْ في الصّين، لكن أجهزة الحزب الشيوعي السُّوفياتي أَفَشَلَتْهَا بِسرعة.

تَكْمُن المشكلة الرئيسية في الصين، خلال سنوات 2020، في كون التوازن غير المستقر بين «الاقتصاد الاشتراكي» و«الاقتصاد الرأسمالي» يُحْتَمَلُ أن يَميل إلى صالح الرَأْسَمَالِيَة، وذلك حسب النوعية السياسية لِلْفِرَق المُتعاقبة في السلطة السياسية، أو على رأس الحزب الشيوعي الصيني. وإذا تَأَكَّدَ هذا الاتجاه، وإذا استمر طَوِيلًا، فهذا سَيَعْنِي أن الصين تخاطر بإعادة إنتاج تجربة انهيار الاتحاد السوفيتي. وإذا هيمنت الرأسمالية على الاشتراكية في الصين، أو إذا طغت عليها، سواء في شكل وَاضِح، أم في شكل مُضَلِّل، فسيحدث انهيار النظام السياسي القائم في الصين، وستكون هناك عودة إلى الرأسمالية. ومن ناحية أخرى، إذا ظل ميزان القوى لصالح هيمنة الاشتراكية داخل التَشْكِيلَة المُجْتَمَعِيَة القَائِمَة في الصين، فإن تجربة بناء الاشتراكية في الصين سوف تتعمق في اتجاه الشيوعية. وهذا التطوّر يَعتمد على طبيعة، وعلى حِدَّة، الصراع الطبقي، سَوَاءً داخل الصين، أم خَارجها.

وتظل «دكتاتورية البروليتاريا» ضرورية ما دامت البروليتاريا موجودة، لكن مِن المُمكن في كلّ حِين أن تَنْقَلِبَ «دكتاتورية البروليتاريا» ضد البروليتاريا هي نفسها، أو أن تَتَطَوَّرَ لصالح طبقة جديدة من المُسْتَغِلّين.

ماذا جرى إذن في الصّين، بعد تطبيق أطروحة «بلد وَاحِد بِنِظَامين»؟ هل اقتربت الصين من الاشتراكية، أم أنها ابتعدت عنها؟ هل نُفسّر التطوّرات التي جرت في الصّين بالواقعية، أو العَقلانية، في مجال بناء الاشتراكية؟ هل نفسِّرُها بإكراهات الحاجة إلى التَوفِير

السَّريع لِلأَدَوَات الضرورية لِمُقَاوَمَة ضُغُوطات الإمبرياليات الغربية؟ أم نفسّرها بكونها انحراف برجوازي، أو نفسّرها بنظرية المؤامرة، أو بخيانة قيادة الحزب الشيوعي الصّيني؟ وهل كان بِمُسْتَطَاع الصين أن تبلغ هذا المُستوى من القدرة على مُقَارَعَة ومنافسة البلدان الإمبريالية في مجالات الاقتصاد والتكنولوجيات لَوْ لَمْ تَتَّبِع سياسة «بَلَد وَاحِد بِنِظَامين»؟

ولم تَسمح الدول الغربية للصّين بِدخول «المنظمة العالمية للتجارة» (OMC) إلَّا في سنة 2001، بعد قرابة 15 عاما من المفاوضات والضُغُوطات. و«المنظمة العالمية للتجارة» هي من أبرز المؤسّسات المُدافعة عن التجارة الرأسمالية في العالم. وكانت الدول الإمبريالية تستعملها كأداة لكي تفرض على بلدان "العالم الثالث" فتح اقتصاداتها على السّوق الرأسمالية العالمية، وإخضاع اقتصادها لِقواعد الرأسمالية. ومن الغرائب أنه، في الاجتماع الأخير «للمنظمة العالمية للتجارة»، الذي وَقَعَ في نهاية شهر نونبر 2018، حدث صدام دِيبْلُومَاسِي مُعَبِّر بين الصين وروسيا من جهة، ومن جهة أخرى الولايات المتحدة الأمريكية (USA). حيث تَعَدَّدَت خُرُوقَات الولايات المتحدة الأمريكية لِقوانين التجارة الحُرّة الرأسمالية، بِإِيعَاز من الرئيس الأمريكي اليميني المُتَطَرِّف دُونَالد تْرَامْبْ (Donald Trump)، بينما دافعت الصين وروسيا على ضرورة الالتزام باحترام مبادئ وقواعد «المنظمة العالمية للتجارة». وتعني هذه الحادثة أن الولايات المتحدة بدأت تجد صُعوبة في مُنافسة الصين وروسيا في بعض الميادين الاقتصادية الحَسّاسة، وأن الأساليب الرأسمالية العادية لم تَعُد تكفي الولايات المُتّحدة الأمريكية لِمُنَافسة الصّين وروسيا.

7) هل يَحِقُّ اختصار الاشتراكية في تأْمِيم وَسَائِل الانتاج؟

خلال سنوات 1970، كنّا شُبَّانًا مناضلين في تنظيمات الحَرَكَة المَارْكِسِية اللّيِنِينِية بالمغرب (وهي: "منظّمة إلى الأمام"، و"منظّمة 23 مارس"، و"منظّمة لِنَخْدُم الشعب"). ***وكان بعضنا يُلخّص «الاشتراكية» في «تأميم وسائل الإنتاج، زَائِد دِكْتَاتُورِيَة البْرُولِيتَارِيَا*** (*prolétariat*)، المُتَجَسِّدة في سلطة لِجَان الكادحين (soviet)». وكُنَّا نفهم «التَّأْمِيمَ» بمثابة تحويل المِلْكِيَة الخاصة (لِوَسائل الإنتاج) إلى مِلكية جماعية، أو مُجتمعية. ومَا زَال بعض المناضلين يكتفون بمثل هذه التبسيطات. وقد تَبَيَّنَ لنا، فيما بعد، أن هذا التصوّر ناقص. ولاحظنا أن هذا التبسيط للاشتراكية يوجد في الرُّؤْيَة السْطَالِينِيَة (وفي مُمَارَستها)، وليس في الرؤية اللينِينِيَة، ولا في الرؤية الماركسية.

وفي الاتحاد السُّوفياتي، كان يُقَال عن «مِلْكِيَة وَسَائِل الإنتاج» (propriété des moyens de production) أنها «مِلْكِيَة جماعية». لكن لِمَنْ كانت تَعُودُ حقيقةً ***المِلْكِية الجَماعية لِوَسَائل الإنتاج؟*** هل كانت تَعُود إلى الطبقة العاملة، أم إلى الحزب الشيوعي الحاكم، أم إلى الدولة "الاشتراكية" القائمة، أم إلى لِجَان الكَادِحِين (soviets)، أم إلى طَرَف آخر، مثل النُّخَب ذَات الامتيازات في الحزب الحاكم، أو في الدولة، أو النُخَب العُلْيَا، التي تُسَمَّى بِـ: 'النُمُونْكْلَاتُورَا" (Nomenklatura)؟

ومن بين المَخَاطِر التي يمكن أن تحدث لِلْمِلْكِيَة الجَماعية ***لِوسائل الإنتاج***، مَا يَلِي: 1) يمكن لِقِوَى مُجتمعية أن تتحكّم في وسائل الإنتاج المُجتمعية دون أن تَتَمَلَّكَهَا بشكل قانوني. 2) يمكن للسلطة المكلّفة من طرف الكادحين بتدبير وسائل الإنتاج الجماعية أن تتحوّل إلى غُول يُهَيْمِن على الطبقة العاملة. ويمكن لهذا الغُول أن يضطهدها، وأن يستغلّها، وأن يَسْتَحْوِذَ على جزء هام من "فَائِض القِيمَة" (plus-value) المَنتوج من طرف الكادحين. فهل هذا التَطَوُّر هو الذي حدث في الاتحاد السُّوفياتي؟

وقد قام التيار المناصر لِجُوزِيف اسْطَالِين بِتَبْسِيط الماركسية، وقَلَّص فيها الرُّؤْيَة الجَدَلِيَة للظواهر المُجتمعية، وَمَنَع فيها التحليل النقدي للواقع المُعَاش. ومن بين الأخطاء التي سَاهَمَت في انهيار الاتحاد السُّوفْيَاتِي، ***الاعتقاد بِكِفَايَة تحويل وسائل الانتاج إلى مِلْكِيَة عُمُومِيَة أو مُجتمعية، والاعْتِمَاد على قمع المُخَالِفِين أو المُعارضين السياسيين، بِمُبَرِّر مُمَارسة «دِكتاتُورية البُرُولِيتَارْيَا»***. كأن الجوهر في «الاشتراكية» هو فقط تغيير طبيعة «مِلْكِيَة» وسائل الانتاج. وهذا تصوّر نَاقِص، أو خاطئ، بل مُنَاقِض للماركسية. وما الفائدة من تحويل ملكية وسائل الإنتاج إلى ملكية مُجتمعية، إذا كانت عَقْلِيَات وَسُلُوكِيَّات المسؤولين والمواطنين سَتَبْقَى مَحْشُوَّة بالقِيَم الرأسمالية، والانتهازية، وَالْأَنَانية، والاِفْتِرَاس، والغِشّ، والنِفَاق؟ حيث لا يمكن أن ينجح التحرّر من الرأسمالية إذا اقتصر فقط على تغيير تنظيم المُجتمع، أو على تغيير اقتصاده (تغيير شكل المِلْكِيَة)، أو تغيير توزيع الثروات.

وَنَبَّهَ شَارْل بِيطَلْهَايْم إلى أن «تَأْمِيم وَسَائِل الإنتاج مِن طرف دولة ابْرولِيتَارِيَة يَنْتُج عنه أَوَّلًا وأساسًا خلق الشُّروط السياسية والقانونية المُلَائِمَة لِإِحْدَاث تَغْيِير اشتراكي في عَلَاقات الإنتاج، وبِالتَالي فهو يفتح إمكانية إخضاع وسائل الإنتاج إلى النظام الاشتراكي. لكن هذا

التَأْمِيم، لَا يَتَطَابَقُ مع هذا التَغْيِير الاشتراكي لِعلاقات الإنتاج»[76]. فَمَثَلًا التَأْمِيم، أو تغيير الشكل القانوني لِلملكية، لَا يكفي وحده لكي يَزُول الفصل بين العمل الذِهْنِي والعمل اليدوي، والفصل بين مَهام التدبير ومهام التَنْفِيذ.

وعلى مستوى التَشْكِيلَة المُجتمعية، لا يكفي تغيير البِنْيَات التَحْتِيَة للمُجتمع (بما فيها علاقات الانتاج)، بل يَلْزَمُ أيضًا إحْدَاث تغييرات مُلَائمة في البِنْيَات الفَوْقِيَة (بما فيها التقَالِيد، والمُعتقدات، والمَعَارِفْ، وَمَنَاهِج التَفْكِير، والعلاقات التَرَاتُبِيَة، وَنَوْعِيَة السُّلُوكِيَات، إلى آخره). ويستوجب التحرّر من الرأسمالية القيام بِتَغْيِيرَات ثورية، شُمُولِيَة، ومتواصلة. حيث يَقْتَضِي تفْعِيل الجُرْأَة على تغيير نَوعِيَة المُجتمع في عُمْقِه، وحتّى تَغيير نوعية البَشَر، وتغيير عَقْلِيَاتهم، ومَنَاهِجِهِم، وعَلَاقَاتهم، وثقافاتهم، وسُلُوكِيَاتهم، وقِيَمِهِم، وعَادَاتهم، إلى آخره. وكان ينبغي أيضًا، وفي نفس الوقت، الحِرص على تفْعِيل عِدّة آليات مُجتمعية، وتفَاعُل عِدّة حركات ثورية أخرى، لِكي تَتَكَامَلَ فيما بينها. لأن ***تَشْيِيد الاشتراكية، هو ثورة مُجتمعية شُمُولية، وعَمِيقَة، ومُتَوَاصِلَة.*** والشُّرُوع في بناء الاشتراكية هو دخول في قَطِيعَة جَذْرِيَة (rupture radicale) مع كل مُقَوّمَات المُجتمع الرأسمالي. فإذا لم تكن مَناهج هذه الاشتراكية مُجتمعيةً، وشُمُولِيَةً، وَنقْدِيَةً، وثوريةً، فإنها سَتَنْحَرِفُ بسهولة، وَسَتَتَلَوَّثُ بالعَقْلِيَات الرأسمالية الانتهازية، ثم ستفشل بشكل مأساوي. وعلى خلاف المناهج السْطَالِينِيَة، نَفْتَرِضُ في هذه الآليات المُجتمعية الثورية أنها تُساعد على محاربة احتكار السلطة السياسية. وَنَفْتَرِضُ فيها أنها تُنَاهِضُ احتكار الحقيقة في الرأي الوحيد. وَنَفْتَرِضُ فيها أنها تُكَافح ضدّ كل أشكال الاستبداد. ونفترض

(76) شارل بيطلهايم، "تاريخ الصراع الطبقي في الاتحاد السوفياتي" (بالفرنسية)، الجزء 2، سُويْ مَاسْبِيرو، باريس، 1974، الصفحة 116.

فيها أنها تُقَاوم انبعاث فئات طَبَقِيَة مُسْتَغِلَّة، أو مُسْتَبِدَّة، ولو كانت مُسْتَتِرَة، أو مُمَوَّهَة.

ونَذْكُر من بين هذه ***الآليات المُجتمعية الضّرورية:*** 1) ترسيخ «مصدر السلطة السياسية» في مجالس الكادحين (soviets)، [وليس في قيادة الحزب الشيوعي، أو في زعيمه]؛ 2) تعميم المُرَاقَبَة المُتَبَادَلَة، والمُحَاسَبَة المُتبادلة، في جميع الميادين، وعلى جميع المستويات [وليس التركيز على المراقبة المُخَابَرَاتِيَة للمُخَالِفين، والمُعارضين السياسيين]؛ 3) ترسيخ حُرّيات النقْد، وحرّيات المُبَادَرات القاعدية [وليس احتكار المبادرة من طرف رئيس الدولة، أو من طرف قيادة الحزب، أو زعيمه]؛ 4) الالتزام الصَّارِم بِدَوْرِيَّة تقْيِيم المُنْجَزَات، والتجارب، والانفِتَاح على النقْد، والتَعَهُّد بِتَقْوِيم كل ما هو ناقص، في جميع الميادين، وعلى جميع الأَصْعِدَة [وليس التمجيد المُسْبَق، وغير المَشْرُوط، لِكُلّ ما يصدر عن رئيس الدولة، أو عن قيادة الحزب]؛ بالإضافة إلى آليات مُجتمعية أخرى مُكَمِّلَة، يلزم اكتشافها، أو إِبْدَاعُها.

وإذا لم تسمح السلطة السياسية الثورية القائمة، أو الدولة الاشتراكية الانتقالية، بوجود بُؤَر لِسُلُطَات مُضَادَّة، تكون مُقْتَرِحَة، ونَاقِدة، ومُبْدِعَة، فإن تقويم الأخطاء، وتَصْحِيح الانحرافات المُحتملة، التي قد ترتكبها السلطة السياسية المركزية، سَيَغْدُو صَعْبًا، أو مُستحيلًا.

8) هل الطبقة العاملة دائمًا ثورية؟

خلال سنوات 1970، وفي إطار تنظيمات ***الحركة الماركسية اللينينية بالمغرب***، كان بعضنا، كَمُناضلين شباب، يَـــتَّصِفُ ببعض الأخطاء المُمَيِّزة لِلَمَارْكِسِيِّين المُبْتَدِئِين، أو العَامِيِّين. فَكان بعض المناضلين يُبَالِغُون مثلًا في تَمْجِيد «الطبقة العاملة». وكان بعضنا يُرَوِّج عن الطبقة العاملة تصوّرًا غير عقلاني، وغير جَدَلِيّ. وكان بعضنا يَـــدَّعي أن «***الطبقة العاملة هي الطبقة الثّورية حتى النهاية***». وكان بعضنا يقول عن الطبقة العاملة أنها هي «***الطبقة الطَلِيعِيَة*** (avant-garde) ***بِامْتِيَاز***». وكان بعضنا يزعم أن «***العُمَّال هم المؤهّلُون أكثر من غيرهم لكي يكونوا مناضلين، وثوريين، وطَلِيعِيّين***». وكان بعضنا يتصوّر أن الطبقة العاملة هي «***طبقة ثورية، وطَلِيعِيَّة، بشكل دائم***». وكان بعضنا يُلْصِق بهذه الطبقة كل الخِصال السياسية الحَميدة. وكان بعضنا يتخيّل أن «الطبقة العاملة هي وحدها التي تقدر على تحرير المجتمع بِرُمَّتِه».

وهذه الأطروحات (السَّابقَة) غير سَليمة. لأنها لَا تَسْتَوْعِبُ جَدَلِيَّة الماركسية. ولأن الواقع لا يؤكّدها دائمًا. حيث ***يمكن للطبقة العاملة أن تكون حقيقةً ثورية، أو طليعية، خلال فترات تاريخية محددة. كما يمكنها أن تفقد هذه الصّفَات خلال فترات أخرى***. الشيء الذي لا يَنفِي أن تَعَرُّضَ الطبقة العاملة لِلْاِسْتِغْلَال الرَّأسمالي، يُؤَهِّلُهَا، كطبقة، أكثر من غيرها، لكي تكون ثورية.

وخلال فترات تاريخية مُعيّنة، يمكن لِفِئَات مُجتمعية مِن غير الطبقة العاملة (مثل فئات الفلاحين، والجنود، والبورجوازية الصغيرة، والمثقّفين الثوريين)[77]، أن تكون، هي أيضا، مناضلة، أو ثورية، أو طَلِيعِيَة، دون أن تكون هذه الصِّفَات ثابتة، أو دائمة. حيث تتبدّل هذه الصِّفَات مع تبدّل الأوضاع المُجتمعية، أو التاريخية.

وفي الرُّؤْيَة الماركسية الكلاسيكية، إِمَّا أن يقوم العمال بالثورة، وإِمَّا أن الثورة لَا تحدث. لكن عندما ندرس الثورات الكبرى التي حدثت خلال القرن العشرين، مثل الثورات التي نجحت في روسيا (1917)، والصّين (1949)، وفِتْنَام (1975)، إلى آخره، نُلَاحظُ باستغراب في هذه الثورات أن دور الفلاحين الفقراء، والبرجوازية الصغيرة، والمثقفين الثوريين، كان أكثر تأثيرًا، وقُوَّةً، وفعالِيَةً، بالمقارنة مع دور العمال الصِّنَاعِيِّين. بمعنى أن تظافر جهود الطبقة العاملة مع طبقات الشعب الأخرى هو الذي يكون فَعَّالًا وحَاسِما.

وتُوجد ***أطروحة أخرى (اسْطَالِينِيَة) تُضْفِي الصِّفَات المُفْتَرَضَة نَظَرِيًّا في «الطبقة العاملة» (أو في البُرُولِيتَارْيَا) على «حزب الطَّبَقَة العَامِلة» المُفْتَرَض.*** وتُمَدِّدُ هذه الأطروحة، بِشَكل مُطلق ودَائم، صفات "الثورية"، و"الطَلِيعِيَة" (avant-garde)، على «حزب» الطبقة العاملة المُفْتَرَض. ثم تَدَّعِي هذه الأطروحة وُجُود امتِدَاد، أو تَطَابُق، بين الطبقة العاملة، وزعيم حزب الطبقة العاملة. حيث أصبح زعيم الحزب الشيوعي، جُوزِيف اسْطَالِين، بِمَثَابَة ***مُمَثِّل، أو وَكِيل، لِلبُرُولِيتَارْيَا.***

---

(77) وبالمُصْطَلَحَات الطَّبَقِيَة التي استعملها الكاتب رحمان النوضة، في كتابه "طبقات المتمع"، يمكن القول: خلال فترات تاريخية مُعَيَّنَة، يمكن لفئات من طبقة الذين لَا يَسْتَغِلُّون ولَا يُسْتَغَلُّون، أو من طبقة المُسْتَغِلِّين الصِّغَار، أن تكون مناضلة، أو ثورية، مثل طبقة المُسْتَغَلِّين، أو حتّى أكثر منها، دون أن تكون هذه الصفات دَائمة.

وهي أطروحة غير مُثْبَتَة، وغير سَلِيمة، وغير مَاركْسِيَة. لأنه لَا يُوجد في الواقع، ***لَا تَطابق مَضْمُونٌ، ولَا انْسجام دَائم، بين الطَبقة والحزب.*** ولا يُوجد ما يُثْبِتُ انتقال صِفَات الطبقة العاملة بِشَكْل آلي إلى الحِزب الذي يُفترض فيه أنه يَسْتَقْطِبُ العُمَّال، أو ينظّم جزءًا من أفراد الطبقة العاملة، أو يَخدمها، أو يُمَثّلها.

وخلال سنوات 1970، كانت ***حركاتنا الماركسية اللينينية*** بالمغرب مُكَوَّنَة على الخصوص من أشخاص مُثقَّفِين ثَوريين، ومن شباب، ومن طلبة، ومن بعض الأطر الثوريين (معلّمين، أساتذة، تقنيين، مهندسين، إلى آخره). وكانت من بين إشكالياتنا آنذاك الرَّغْبَة في تحقيق ***التَجَذُّر في الطبقة العاملة***. بِمَعْنَى الانغراس فيها. وكان المُفْتَرَضُ نظريًّا هو أن يَحْتَضِنَ العمالُ بِتِرْحَابٍ مناضلِي حركاتنا الماركسية اللينينية. لأننا كنا ندافع عن المصالح الأساسية للعُمال. وفي الواقع، لا يكفي أن يُدافع شخص مُعَيَّن عن مصالح الكادحين، لكي يفهمـــــه الكادحون، أو لِكَي يَلْتفّوا حوله. وخلال سنوات متوالية، حاول عدد لا بأس به من مناضلينا سُلُوك طريق «***الاِنْتِحَار الطَبَقِي***» (أي التضحية بالدراسة، وبالمهنة، وبالعائلة، بهدف الاشتغال كعمّال، وتجريب تأطير العُمّال من داخل المَعْمَل).

ولاحظنا باستغراب أن نتائج محاولات ***تَجَذُّرِنَا*** في الطبقة العاملة بَقِيَت على العُموم ضعيفة، أو فاشلة. ولم نكن آنذاك نفهم لماذا تَخْفِقُ محاولات ***تَجَذُّرِنَا***. وكان بعض المناضلين (الذين لم يُحاولوا التَجَذُّر في الطبقة العاملة) يمجّدون هذه الطبقة. وكانوا يتكلمون عن العمال كنوع من الثوريين المِثَالِيّين. وصُدِمَ بعضُ المناضلين (الذين حاولوا ربط علاقات مباشرة مع العمال) بِسُلُوك بعض العمال. حيثُ كانت أقلية من العمال تُخْبِرُ فَوْرًا المُشَغِّل أن شخصا مُحَدَّدًا يُحاول تَسْيِيسَهم، أو تَوْعِيَتَهم، أو تَنْظِيمهم. وكان ***المُشَغِّلون*** يطردون فورًا كل شخص

يتكلّم للعمال عن النقابة، أو عن السياسة. وحتى ***النقابات*** كانت تميل إلى محاربة كل شخص يحاول تَوْعِيَة العمال، أو تَثْوِيرِهِم، أو تنظيمهم. وكانت عوامل مثل الفقر، أو الأمية، أو الجهل، أو الخوف من القمع، تدفع كثيرا من العمال إلى إهمال تثقيفهم الذَّاتِي. وكانت خشيتهم من القمع، أو من الطَّرْد، تجعلهم يَتَلَافَوْنَ المشاركة في النضال. وكانت ظروفهم القاهرة تَحُثُّهم على الاِقْتِصَار على تَوْفِير الحاجيات المادية الضرورية للعيش. وكان بعض العمال مُستعدّين لِلْخُضُوع، أو لِلْاِنْضِبَاط، لكل شخص يمنحهم المال، أو يُقَدِّمُ لهم مُساعدات مَادِّيَة. ولم تكن هذه السُّلُوكِيَات خاصة بالعمال، وإنما كانت شائعة في مجمل جماهير الشعب[78]. وهي مظهر من بين مظاهر تخلّف المُجتمع.

وكان بعض الماركسيين يفترضون أن الظروف الطبقية لعيش العمّال (أو البروليتاريا) تجعلهم موضوعيًّا مؤهّلين (تقريبا بشكل تِلْقَائِي [spontané]) لاكتساب ***الوعي النظري الثوري*** (بِمعنى الماركسي). وكان هؤلاء الماركسيين يظنّون أن العمال مُهَيَّئِين بشكل طبيعي لكي يُغيّروا منظومة المُجتمع في شموليتها. بينما الملاحظ، من خلال التجربة الملموسة، هو أن إدراك هذا الوعي النظري الثوري يظلّ صعب المنال على العمّال. ***ولا يمكن أن تظهر معرفة النظرية الماركسية بشكل تِلْقَائي (spontané) سَوَاءً لَدَى العُمّال، أم لدى غيرهم. ولا يمكن للمعرفة العَامّيَة أن تتحوّل تلقائيا إلى معرفة عِلْمِيَة.*** وإذا بَقِيَ العمّال مَسْجُونِين في ظروف مِهَنِيَة عُمَّالية، سيكون من الصّعب عليهم أن يَلِجُوا إلى هذا الوعي النظري الثوري

(78) أنظر في هذا المجال كتاب: "نقد الشعب"، رحمان النوضة (الصيغة 54). ويمكن تحميله من مدوّنة الكاتب: (https://livreschauds.wordpress.com/2018/09/13/كتاب نقد الشعب/).

(الماركسي). وإذا لم يساهم مثقفون ثوريون (وأحزاب ثورية) في سيرورة إِشَاعَة هذا الوعي النظري الثوري داخل الطبقة العاملة، وداخل كادحين آخرين، وبِأَسَالِيب مُبْدِعَة، فسيكون صَعب المَنال على العُمال. وذلك دون أن ننسى أن التَعْلِيم، والتَعَلُّم، هُما في العمق مُتَبَادَلَان بين المُعلّم والمُتَلَقّي.

وفي سنوات 1970، كنّا في "التنظيمات الماركسية اللّينِينِية" بالمغرب نفْتَرِضُ أن العمال مؤهّلين لكي يَعُوا بشكل تلقائي أوضاعهم الطبقية. وكنّا نظنّ أن نضالات الطبقة العاملة (النقابية، أو الاحتجاجية) يصاحبها بالضّرورة تنامي، وانتشار، وتجذّر، ***الوعي النظري الثوري*** لدى جماعات واسعة من الطبقة العاملة. بينما كانت التجربة تُبيّن أن هذه ***العلاقة (بين النضال، والوعي النظري الثوري) لا تَسيرُ دائما، وبشكل تِلْقَائي، أو حَتْمِي، في هذا الاتجاه الإيجابي المَرْجُو.*** حيث أن تعميق الوعي النظري الثوري يتطلّب، سواءً على مستوى الفرد أم الجماعة، مجهودا دِرَاسِيًّا خاصّا، ومُنظّما، ومُتواصلا، ومُمَنْهَجًا.

وكان معظمنا يُبَالِغُ في الاحتياط من «***طبقة البرجوازية الصغيرة***» (petite bourgeoisie). بل كُنَّا نُهِينُ، أو نسْتَبْعِدُ، كل ما له علاقة بهذه «الطبقة البرجوازية الصغيرة». ولم يكن كثيرون مِنَّا يفهمـــون جيّدًا التفَاعُلَات الجَدَلِيَة والخَفِيَّة فيما بين الطبقة العاملة من جهة أولى، ومن جهة أخرى الفلاحين (المُعْدَمِين، والصّغار، والمتوسطين)، والبرجوازية الصغيرة، والبرجوازية الوطنية. وهذه الطبقات هي بالضّبط الطبقات المؤهَّلة ***لتحالف طبقي استراتيجي*** مع الطبقة العاملة، وتحت قِيادتها الطبقية، خلال المرحلة الانتقالية إلى الاشتراكية.

وقد علّمتنا الماركسية أن تعرّض أفراد «الطبقة العاملة» إلى الاستغلال الرأسمالي، هو العامل الرئيسي الذي يُؤَهِّل موضوعيا هذه

الطبقة (كَطَبَقَة) لكي تكون «ثورية». لكن ***هذه «الثورية» ليست صفة آلية، أو مُطلقة، أو دائمة،*** وإنما هي صفة نِسْبِيَة، ومُتَطَوِّرَة، وقابلة لِلصُّعُود، أو لِلْخُفُوت، وذلك في ارتباط بمستوى تطوّر الصراع الطبقي، وفي تفاعل مع مُعطيات كثيرة، مُجتمعية، وَعَالَمِيَة. ***ولا يقدر حتى الحزب "الثوري" (أو "الشيوعي")، هو نفسه، على ضَمَان دَيْمُومَة "ثَوْرِيَتِه"، فبالأحرى أن يقدر على ضمان دَيْمُومَة "ثَوْرِيَة" الطبقة العاملة.*** ويُفْتَرَضُ في الحزب الثوري المَاهِر، أنه يستغلّ كل حركة نضالية، وأنه يستثمر كلّ تقدّم سياسي حصل لدى إحدى طبقات الشعب، لكي يرفع مستوى الوعي السياسي، أو الفِعل النضالي، لدى طبقات الشعب الأخرى.

والطبقة العاملة هي جُزء عُضوي من المُجتمع، ومن الشعب. فإذا كان مثلًا المُجتمع مُتَخَلِّفًا (اقتصاديا، أو سياسيا، أو ثقافيا، أو نِضَالِيًّا، أو عَقَائِدِيًّا)، فمن المُحْتَمَل أن يُؤَثِّر هذا التخلّف على مجمل مُكَوِّنَات المُجتمع، بما فيها الطبقة العاملة. وَلَوْ أن هذا التأثير يحدث بشكل مُتفَاوِت، حسب الزمان، وحسب المكان، وحسب الأوضاع الطبقية لكل فاعل مُعَيَّن.

ويمكن للطبقة العاملة، خلال فترة مُعيّنة، أن تكون موجودة على مستوى الإحصائيات المِهَنِيَّة، دون أن يكون لها وجود مُعْتَبَر في المجال السياسي، أو في مجال الصراع الطبقي. وبعبارة فَلْسَفِيَّة، يمكن للطبقة العاملة أن تكون ***طبقة فِي ذَاتِهَا*** (en soi)، ***دون أن تكون بالضرورة طبقة لِذَاتِهَا*** (pour soi)، وذلك على مستوى الفِكر، أو الوَعي، أو المُبادرة، أو الفِعل. وفي هذه الحالة، قد لا تقدر الطبقة العاملة على أن تكون فَاعِلًا طبقيًا، وَاعِيًا، ومُبَادِرًا، وفَعَّالًا. وغالبًا مَا لَا يكون وُجود طبقة مُعيّنة (مثل الطبقة العاملة) مَحْسُوسًا في المُجتمع، إِلَّا حينما تتصارع هذه الطبقة مع طبقات أخرى. لِذَا نقول أن ***المُؤَشِّر على***

وُجُود أَيَّة طبقة، هو فِعْلُها في مَجال الصّراع الطَبقي. وَوَعْيُ كل طبقة بِمَوْقِعِها، وبِدَوْرِها، في الصراع الطبقي، هو الذي يُؤَهِّلُهَا لكي تتحوّل من ***"طبقة في ذَاتِهَا"*** (*en soi*) إلى ***"طبقة لِذَاتِهَا"*** (*pour soi*). ومن مِنْظَار مَاركسي، لِكَي يُوجَدَ تَحَرُّك الطبقة العاملة ***كَطَبَقَة***، يَنْبَغِي أن يكُون أفرادها حَامِلِين لِوَعْي طَبَقِي. أَيْ أن يُدْرِك أفراد الطبقة العاملة أنهم يَحْتَلُّون نفس الموقع الطبقي في بِنْيَة المُجتمع، وهو مَوقع الكَادِحِين المُسْتَغَلّين.

والطبقة العاملة هي أيضًا وحدة مُتناقضة. وتتكوّن من فئات مُتفَاوِتَة. ومن الخطأ الاعتقاد أن العمّال هم كلّهم مَبْدَئِيّين، أو وَاعِين، أو عَقْلَانِيّين، أو ديمُوقراطيين، أو ثَوْرِيّين، أو اشتراكيين. وقد يُوجد ضمنهم المُتقَدّمُون والمُتَخَلّفُون، والتقَدُّمِيُّون والمُحَافِظُون، والمُتَضَامِنُون والانتهازيون، والمُكَافِحُون والغَشَّاشُون، إلى آخره.

وكل طبقة تتميّز بِوضع خاص. وخصوصية الطبقة العاملة هي أنها تخضع للاستغلال الرأسمالي بشكل مباشر. وهذه الخصوصية لا تُحَوِّلُها بالضرورة إلى طبقة ثورية مِثَالِيَّة (idéale). حيث يُمكن للطبقة العاملة، خلال فترات تاريخية مُحدّدة، أن تكون فعلاً واعية، ثورية، مُبادرة، مناضلة، طليعية. لكن من الممكن أيضًا أن تَفْقِدَ الطبقة العاملة هذه الصّفات خلال فترات أخرى. ***وصِفَات الوعي، أو الكفاح، أو النضال، أو الثورية، أو الطَلِيعِيَة، ليست صِفات ثابتة*** (*سَوَاءً لَدَى الشُّعُوب، أم لَدَى الطبقات، أم الأحزاب، أم الجماعات، أم الأفراد*). ***وإنما تتطور هذه الصّفَات مع تبدّل الأوضاع المُجتمعية، والعَالمية، والتاريخية.***

فالطبقة العاملة ليست ثابتة، أو جامدة، بل تتطور باستمرار، وذلك في ارتباط بتطور المُجتمع. ووعيها السياسي، أو الطبقي، يمكن أن يتقدّم، كما يمكن أن يتأخّر. وكل عضو فيها يتطوّر هو أيضا. ويمكن قول أشياء مُماثلة عن الفلاحين، أو عن البرجوازية الصغيرة، أو عن

البرجوازية الوطنية، أو عن فئات المثقفين، إلى آخره. ***ويمكن لطبقات الشعب أن تُقَوّيَ بعضها بعضًا، كما يمكنها أن تُضْعِفَ بعضها بعضًا. فَلَا تقدر المساهمة السياسية للطبقة العاملة على أن تكون مُتقدّمة، أو فَعَّالَة، إِلَّا إذا تعاونت، أو تكاملت، مع طبقات الشعب الأخرى.*** وبعبارة أخرى، فَإن إيجاد تحالف طَبَقِي ملموس، ومتواصل، بين الطبقة العاملة وطبقات الشعب الأخرى، هو سِرُّ نجاح الثورة، وبدونه يبقى كل شيء مستحيلًا.

9) لِمَاذا الثورة الثقافية السِّلْمِيَة المُتَوَاصِلَة ضَرورِيَة؟

خلال سنوات 1970، كُنَّا في "الحركات الماركسية اللينينية" بالمغرب، كُنَّا نَظُنّ أن حزب البَلَاشِفَة (bolcheviks)، الذي تركه لِينين بعد موته (في سنة 1924)، كان يَحْظَى كُلُّ أعضاءه ***بتكوين سياسي ونظري من مستوى عَالٍ***. لكن حينما ندرس ***الحماقات والجرائم*** التي ارتكبها جُوزيف اسْطَالِين وأنصاره بين سنتي 1924 و 1953، وذلك ***بِمُساندة مُعْظَم أعضاء الحزب الشيوعي***، نُدْرِكُ أن ارتكاب هذه الحماقات والجرائم لَمْ يَكُنْ مُمكنًا إلَّا لِأَنَّ مُستوى التكوين السياسي والنظري كان ضَعِيفًا لَدَى نِسْبَة هامّة من أعضاء الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي. صحيح أن كثيرين من الأطر الأَوَّلِيَة في الحزب الشيوعي (قُبَيْلَ وبُعَيْدَ ثورة 1917) كانوا يَحْظَوْنَ بِتكوين سياسي من مستوى مُتقدِّم. لكن الدَّاهِيَة اسْطَالِين بدأ بالضبط باتِّهَام، أو طرد، أو قَتْل، مُعْظَم هؤلاء الأُطُر العُلْيَا في الحزب، وفي الجيش. وَلَوْ لَمْ يَستغل اسْطَالِين ضُعف التّكوين النظري والسياسي المَوجود لدى نسبة هامّة من أعضاء الحزب، لَمَا كان بمقدوره أن يُمَرِّرَ سياساته التَصْفَوِيَة ضِدَّ مناضلي الحزب الأوائل المُتَمَرِّسِين. وفي قرابة سنة 1937، لم يبقَ حَيًّا أيُّ أحد من بين المناضلين الذين لَعِبُوا أَدْوَارًا مهمة، سواءً في الحزب البلشفي، أم في ثورة 1917. وبعد تَثْبِيت وتعميم إرهاب الحزب،

وإرْهَاب الدولة، غَدَى اسْطَالِين يتلاعب بِسهولة كبيرة بالحزب الشيوعي.

لِذَا نُؤَكِّد، ونُكَرِّر، أن أقوى أَدَاة لِتَعْبِئَة الجماهير، ولإشراكها في تصوّر، وفي إنجاز، الثورة المُجتمعية، وفي تشييد الاشتراكية، ليست هي العُنف، وليست هي الدعاية، وليس هي الزَّبُونِيَة، وإنما هي ***الثَوْرَة الثقافية الجماهيرية السِّلْمِيَة المُتواصلة.***

وَقَدْ كَتَب الكثيرون من المُثقفين الغَرْبِيِّين أن "الثورة الثقافية" في الصين كانت مُغامرة حَمقاء، وأنها خَلَّفَت الكثير من الاضطهاد، ومن الضحايا. لكن هؤلاء المثقفين الغربيّين لم يُدركوا أنه لولا هذه "الثورة الثقافية" لكانت الصين قد غرقت هي أيضًا في انحراف يميني مُبكر، مثلما حدث في الاتحاد السوفياتي في عهد حُكم اسطالين. وبعبارة أخرى، فإن "الثورة الثقافية" هي التي أنقذت الصين من انهيار مشابه للانهيار الذي حدث في الاتحاد السوفياتي في قرابة سنة 1990. وَمِن المَفْهُوم أن يكُون الكثيرون من المُثَقَّفِين الغَربيّين، الرَّافِضِين لِلشِيُوعِيَة، مُعَارِضِين لِـ "الثورة الثقافية". لأن هذه "الثورة الثقافية" هي التي تُمَكِّنُ مِن تَثْبِيت التَوَجُّه نَحْو الاشتراكية.

والمفتاح الرئيسي لِرَفْع مُستوى تقدّم المُجتمع، هو ***تعليم وتثقيف*** أبناء الشعب، ليس فقط خلال الصِّبَا، وإنما أيضًا ***بشكل مُتَوَاصِل،*** على امتداد الحياة كلّها.

ومن بين أهم أسس التقدّم السياسي، أو النجاح الاقتصادي، ***تَحْصِيلُ المعارف العلمية، وَمُرَاكَمَتُهَا، والمُساهمة في إنتاجها، وفي تَمْحِيصِها، ونَقْدِهَا، وتطويرها، وَتَوْثِيقِهَا.*** فإذا كانت نَوْعِيَةُ تَثْقِيف أبناء الشعب عِلْمِيَّةً، ونَاقِدَة، ومُتَوَاصِلة، استطاع هذا التَثقِيف أن يُسَاهِمَ في تَحَرُّر الجماهير. وإذا كانت نَوْعِيَةُ تعليم أبناء الشعب مُحافِظَة، أو رَدِيئَة، أو مُتَخَلِّفَة، أو دِينية، أصبحَ الجهلُ هو السَّائدُ.

وانتشار الجهل في المُجتمع يؤدّي حَتْمًا إلى انتشار الْأَنَانِيَة، وَطُغْيَان الغِشّ، والانتهازية، والأفكار اليمينية. ثمّ يُسَاهِم هذا الجهل هو بدوره في تفَاقُم انحطاط المُجتمع.

ومن ***ميزات الرأسمالية*** أنها تَدْفَعُنَا باستمرار إلى ***التضحية بالوقت المُخَصَّص إلى التَثقِيف الذَّاتِي*** (خُصوصًا عبر قراءة مَرَاجِعَ ثقافية من مستوى مُمْتَاز). وإذا لم نُقاوم الرأسمالية، وإذا لم نَنْتَزِع منها، في كلّ يوم، وقتًا مُخصّصًا للتثقيف الذّاتِي، فإننا سَنَغْرَقُ بالتّأكيد، وبالتَدْرِيج، في جهل مُتَزَايِد. ولَا تَنْتَبِه قوى اليسار بالمغرب إلى هذا النَقْص، رغم خُطورته.

وقد كان النظام السياسي القائم في الاتحاد السوفياتي لا يهتمّ بما فيه الكفاية ***بِالتَثْقِيفْ المُنَظَّم، والمُعَمَّق، والمُتَوَاصِل على مَدَى الحياة، لِمُجْمَل أفراد الحزب، والشعب.*** وكان النظام السوفياتي يُقَلِّلُ من مَدَى أهمّية هذا ***التثقيف العِلْمِي والسياسي*** في مَجال مُواجَهَة الخُصوم السياسيين الدَّاخليّين، وكذلك في ميدان مُقَاوَمة الخُصوم الخارجيين (الإِمْبِرْيَالِيَات العالمية). ***وَكانت الحِوارات السياسية، والصّرَاعَات الفكرية، الجَارِيَة في النظام السُّوفياتي، نَادِرَة، أو مَخْنُوقَة، أو مَقْمُوعَة، أو مَحْصُورَة في بعض الأوساط الضَيّقَة (مثل الأوساط الحزبية، أو الجَامِعِيَة). ولم تَكُن الحوارات الثقافية، والصراعات السياسية، مُوَسَّعَة إلى عَامَّة جماهير الشعب. لأن إشراك جماهير الشعب في الحوارات السياسية، وفي الصراعات الفكرية، هو الذي يُساعدها على صَقْلِ حِسّهَا النقْدِي.*** ولَمَّا ظهرت في المُجتمع السوفياتي إِشْكَالَات سياسية كُبرى، بل مَصِيرية، تَبَيَّنَ عجز جماهير الشعب على المشاركة في نقَاشها، أو في مُعالجتها، طِبْقًا لمصالحها الثورية. ***فكان إهمال التَثْقِيف (العِلْمِي والنقْدِي) للشعب من بين الأسباب التي ساهمت في تسهيل انهيار الاتحاد***

السوفياتي. وكلمَا كانت نِسَبٌ هَامَّة من الشّعب «أُمِّيَة»، أو «ذات مستوى ثقافي ضَعِيف»، أو مُسْتَلَبَة (aliéné)، أو مُمْتَثِلَة (conformiste) لِلدّعَايَة السَّائِدة، سَيَجِدُ الشعبُ نفسَه عاجزًا على تحقيق طُمُوحَاته التحرّرية.

وقد استفادت نسبيًّا الصّين من بعض الأخطاء أو النقَائِص التي حَدثت خلال تجارب الاتحاد السُّوفياتي. ومَنَحَت الصّين عِنَايَة أكبر نِسْبِيًّا إلى التَثقِيف المُتَوَاصل للجماهير الكادحة. وأَطْلَقَ الحزب الشيوعي الصّيني عدّة ***حركات «ثقافية»، أو «تَصْحِيحِيَة»***، تستعمل أَسَاليب: تَعْبِئَة الجماهير، وفتح النقاشات السياسية، والتَثقِيف الفِكْرِي، والمشاركة في خوض الصراع السياسي. ومن أبرز هذه الحركات "الثقافية": «حركة مِئَة زَهْرَة» بين سنتي 1956 و 1957، و«حركة القَفْزَة الكُبْرَى» بين سنتي 1958 و 1960، و«حركة التَرْبِيَة الاشتراكية» بين سنتي 1962 و 1965، و«حركة الثورة الثقافية» بين سنتي 1966 و 1976. وكل هذه الحركات، كانت، ومَا زالت، مُلْتَبِسَة نِسْبِيًّا، وتُثِير لَدَى المُهْتَمّين، نقاشات فكرية، وخلافات سياسية، وصراعات فلسفية. ورغم بعض التَجَاوُزَات التي حدثت خلال هذه الحركات، كانت «الثورة الثقافية» في الصّين، أكثر إفادةً، وأَقَلُّ ضررًا، بالمقارنة مع حَمَلَات «التطهير»، و«التَّرْهِيب»، و«الرُّعْب»، التي وَقَعَت تحت حُكْم المُسْتبد جُوزِيف اسْطَالِين.

وفي هذا الموضوع، سبق للمناضل المغربي ***ابْرَاهَام السَّرْفَاتِي***، وهو قِيَّادِي سابق في "منظمة إلى الأمام"، أن قال: «كنتُ مُتابعا للثورة الصينية منذ بداياتها، أي منذ مَطْلَع سنوات 1950. وعندما حدثت القطيعة بين الشيوعيتين السوفياتية والصينية، كنتُ منحازا إلى الأخيرة. وقد تَضَمَّنَت نصوص مَاوُو زِي دُونْغْ عُنْصُر ***الثقافة***، وهو أُفُقٌ

لم تَأْبَهْ به الشيوعية السُوفْيَاتِيَة»[79]. [وعلى خلاف إشارة السرفاتي السَّابقة، كان افْلَادِيمِير لِينِين يهتمّ بتثقيف جماهير الشعب[80]، لكن خَلَفَهُ جُوزِيف اسْطَالِين هو مَن اِبْتَعَدَ عن هذا التَوَجُّه]. وأضاف السَّرْفَاتِي: «مَنَحَتْ أيضا المَاوِيَةُ ***شُعوب العالم الثالث*** مَكَانَةً، بينما الشيوعية السوفياتية، أو الاتحاد السوفياتي عموما، لَعِبَ فعلا دورا في الحَرب المُناهضة للإمبريالية، لكنه أبقى شعوب العالم الثالث مُتَوَارِيَّة وراء ما سُمِّيَ بالأخ السوفياتي الأكبر». وأشهد شخصيا أنه، عندما كان ابراهام السَّرْفَاتِي مُعْتقَلًا سِيَاسِيًا مَعِي في السجن المركزي بمدينة القُنَيْطِرَة بالمغرب، في قرابة سنة 1987، عَبَّر لِي شخصيا، وَبِصَرَاحَة، عن تناقص حَمَاسِه تُجاه الصّين (التي بدأت آنَئِذٍ المَزْجَ بين الاشتراكية والرأسمالية). وقال لِي السرفاتي أنه يُفَضِّل الانْحِيَاز إلى جانب الاتحاد السوفياتي، وإلى زعيمه مِيخَائِيل غُورْبَاتْشُوفْ، صاحب مشروع "البِيرِيسْتْرُويْكَا" (perestroïka). ثمّ خَابَت فيما بعد آمال السرفاتي حتى تُجَاهَ الاتحاد السوفياتي. وكان غُورْبَاتْشُوفْ قد أَطْلَقَ آنذاك هذه الحركة التَصْحِيحِيَّة، لكنه لم يستطع التَحَكُّمَ في تطوّرها، وفي نتائجها. فَتَحَوَّلت هذه "البِيرِيسْتْرُويْكَا" إلى عُنصر من بين العناصر التي سَاعَدَت على التَّعْجِيلِ بانهيار الاتحاد السوفياتي. [وفي الحقيقة، بين سنوات 1980 و 1990، كُنَّا جميعًا في "التنظيمات الماركسية اللينينية" بالمغرب، وبدون استثناء، حَائِرِين مِمَّا يجري، سواءً في

---

(79) وَرَدَت هذه المقولة في استجواب لِاِبْرَاهَام السَّرْفَاتِي، أجرته معه كنزة الصفريوي حول مجلة "أنفاس".

(80) نشرت "منشورات التقدم موسكو" (Edition du progrès Moscou) في سنة 1977 كتاب: "لِينِين، الثقافة والثورة الثقافية" (باللغة الفرنسية) (culture et révolution culturelle) جمعت فيه مقتطفات من خُطب لِينِين، وتدخّلاته، ونصوصه، المتعلّقة بالثقافة.

الصّين، أم في الاتحاد السوفياتي. ولم نكن ندري جيّدًا هل التَوَجُّه السياسي كان سليمًا في الصّين، أم في الاتحاد السوفياتي. لأننا لم نكن نتوفّر على معطيات كافية لِبَلْوَرَة موقف سياسي مُعَلَّل من أيّ منهما]. وهكذا كانت مُفَاجَآت التاريخ.

يجب أن نتذكّر أن ***الاشتراكية*** تختلف عن ***النَزَوَات التِلْقَائِيَة،*** أو الطَبِيعِيَة، المَوْجُودَة لَدَى البَشَر. وَبِعِبَارَات أُخْرَى، فإنّ ***الاشتراكية تَتَنَاقَضُ مع الغَرَائِز العَفْوِيَة المُلَاحَظَة لَدَى البَشَر.*** وَمُنْذُ أَنْ يُولَد الشّخص، ثمّ طِوَالَ حَيَاتِه، يَظَلّ هذا الشَّخص يُغَلِّبُ تَلْبِيَة مَصَالِحِه الفَرْدِيَة، على حِسَاب خِدْمَة مَصَالح الجَمَاعَة. بَيْنَمَا ***تَطْلُب الاشتراكية من الشَّخص أن يُغَلِّب التَضَامُنَ المُجْتَمَعِي على تَلْبِيَة المَصَالح الشَّخْصِيَة.*** وَإِذَا كان ***العَقْل الفَرْدَانِي*** لَا يَرَى مِن وَسِيلَة مُمْكِنَة لِتَحْقِيق المصالح الخَاصَّة سِوَى اِتِّبَاع مَنْهَج ***الْأَنَانِيَة،*** فإن ***العَقْل الاشتراكي*** يُدْرِكُ أن أَقْوَى طَرِيقة لِإِنْجَاز المَصالح الشَّخصية هي إِعْطَاء الْأَسْبَقِيَة لِإِنْجَاز المَصَالح الجَمَاعِيَة، والمُجْتَمَعِيَة. وَهَكَذَا، فإن ***الانتقال من العَقْل الْأَنَانِي إلى العَقْل الاشتراكي، يَحْتَاج إلى خَوْض حَمْلَة تَرْبَوِيَة مُتَوَاصِلَة على مَدَى الحَيَاة.*** وهدف هذه الحَمْلَة التَرْبَوِيَة هو إِعَادَة تَرْبِيَة كل المُواطِنِين، وَتَشْجِيعِهِم على إِعْطَاء الْأَسْبَقِيَة لِلْمَصالح المُجْتَمَعِيَة، على حِسَاب المَصالح الشَّخْصِيَة أو الفَرْدِيَة. وَكُلّ مُجتمع اِشْتِرَاكِي تَهَاوَنَ في إِنْجَاز هذه الحَمْلَة التَرْبَوِيَة، فإنه سَيُعَرِّضُ نَفْسَه إلى خَطَر اِنْحِرَاف، ثُمَّ اِنْهِيَار، الاشتراكية، ثُمَّ تَعْوِيضِهَا بِالرَّأْسَمَالِيَة.

10) هل تجاوزت الماركسية؟

بعد انهيار الاتحاد السوفياتي في قرابة سنة 1991، تعبأت وسائل الإعلام الرأسمالية، للتهليل بنبأ «موت الاشتراكية»، وللتبشير بـ «التجاوز النهائي للماركسية». وكان هذا الادّعاء مُتوقّعًا، ومفهومًا، في إطار "الحرب الفكرية"، القائمة بين الرأسمالية والاشتراكية. وظهر عدد كبير من «المُفكّرين» المأجورين، أو المُرتزقة، الذين يُكرّرون كالببّغاوات أطروحة «خطأ» الماركسية، أو «استحالة» الاشتراكية، و«الانتصار النهائي للرأسمالية على الاشتراكية». وطرحوا مقولة «نهاية التاريخ». وزعموا أن الرأسمالية ستبقى «أبدية».

فهل فشلُ تجربة بناء الاشتراكية في الاتحاد السوفياتي يُثبتُ أن الماركسية غدت مُتجاوزة؟ وهل كُلُّ حزب جرّبَ بناء الاشتراكية في بلده الخاص، ثم فشِلَ، هل يُقبَلُ أن يكون فشلُ تجربته حُجّةً على خطأ النظرية الماركسية؟ وهل كان ينبغي أن تُقدّم لنا الماركسية طريقةً مضمونةَ النجاح في مجال بناء الاشتراكية؟ وهل ما مارسه الحزبُ الشيوعي في الاتحاد السوفياتي هو تطبيق مُخلص لمبادئ الماركسية؟ وحتّى لو افترضنا جدلًا أن الماركسية تُوصي بتنفيذ طريقة مُحدّدة وجاهزة لبناء الاشتراكية، فهل فشلُ أي حزب شيوعي في بناء الاشتراكية في بلده الخاص يعني أن الخلل يُوجد بالضرورة في النظرية، وليس في طريقة استعمالها؟ وفي هذه الحالة، كيف تكون العلاقات والتفاعلات فيما بين النظرية، والفاعِل المُطبّق للنظرية؟ وما هي

مسؤوليات النظرية، وما هي مسؤوليات الفاعل الذي يُطَبِّق هذه النظرية؟

وقد حاول تِيَار اسْطَالِين تبسيط الماركسية (والاشتراكية)، عبر تَخْلِيصِها من مناهجها الجَدَلِيَة والنقْدِية، وذلك لِكَيْ تُقْدِمَ الحُشُود الغَفِيرَة على تَبَنِّي هذه الماركسية المُبَسَّطَة. لكن إذا كان تِيَار اسْطَالِين قد حوّل الماركسية إلى أَيْدِيُولُوجِية، فهذا التحويل لَا يُبْطِلُ صَلَاحِيَة النظرية الماركسية. وحتى إذا أقدم أي شخص (مثل اسْطَالِين) على اختيار نظرية مُحدّدة (مثل الماركسية) على أساس قناعاته أو تَصَوُّرَاتِه الأيديولوجية، فإن هذا الاختيار (على أساس أيديولوجي) لَا يُشَرِّعُ صَلَاحية تلك النظرية المُخْتَارَة، ولَا يُبْطِلُهَا.

وزَعَمَ بعض المُفَكِّرين أن انحرافات اسْطَالِين وأنصاره تَأْتِي مِن صُلْبِ النظرية الماركسية. وأنه يجب إِذَن التخلّص، ليس فقط من مَنْهَج اسْطَالِين، وإنما أيضًا من الماركسية هي نفسها ! وتُذَكِّرُنِي هذه الطريقة في التفكير بِالأطروحة التي تَدَّعِي أن أسلحة الدَّمَار الشَّامِل، (بما فيها أسلحة القَنَابِل النَّوَوِيَة، أو الكِيمَاوِيَة، أو البَيُولُوجِيَة)، تُهدّد البشرية بالانقراض، وأنه يجب إِذَن التَخَلُّصُ من عِلْمَيْ الفِيزِيَّاء والكِيمِيَّاء، لأن هذين العِلمين يَحْتَوِيَّان على المعارف والتقنيات الكافية، التي تُمكِّن من صناعة أسلحة الدَّمَار الشامل! وهذا المنهج في التفكير هو طبعًا خاطئ.

وفِي الجزء الأوّل من هذا النَصّ، رأينا أن مَا طَبَّقَه الحزب الشيوعي خلال عهد اسْطَالِين في الاتحاد السوفياتي بَعِيدٌ عن الماركسية، بل يتناقض معها. وتبقى النظرية الماركسية بريئة من الأخطاء السياسية التي يمكن أن يسقط فيها كل حزب يزعم أنه يُحاول تفْعِيل الماركسية، أو بناء الاشتراكية.

لِنتساءل الآن: ***مَا هي الماركسية؟*** على خلاف القراءات التبسيطية، أو التأويلات "الدُّوغْمَائِيَة" (dogmatique) ***الماركسية مَناهج في التفكير، قبل أن تكون أفكارا مُحَدَّدَة. والماركسية هي مَدرسة فِكرية، وعَقْلَانِيَة، وفلسفية، وعِلْمِيَة، ونقْدِيَة، وثورية.*** وتَدْرُس الماركسيةُ المُجتمعَ الرأسمالي من عِدَّة زَوَايَا (مثل الاقتصاد، والسياسة، والتاريخ، والقانون، والفكر، والفلسفة، والثقافة، إلى آخره). وتنتقد الماركسية المُجتمع الرأسمالي، وتُساهم في إعداد المجتمع البديل، المُتَحَرِّر من الاستغلال الرأسمالي، ومن الطَّبقات المُجتمعية المُتناقضة. ولَا تنحصر الماركسية فقط في مجموعة من ***المعارف*** (المُتَضَمَّنَة في كُتب كارل ماركس[81] [Karl Marx]، وفي كُتب فْرِيدْرِيش اِنْجَلْزْ (Friedrich Engels)، وفي كُتب مُفَكِّرِين ماركسيين آخرين[82]). فَأَعْمَال ماركس وإنجلز هي المُنْطَلَق، وهي الأساس

(81) أبرز كتب كارل ماركس هي: من أجل نقد فلسفة القانون لدى هيجل (صدر في سنة 1843)؛ مخطوطات 1844؛ الأيديولوجية الألمانية (صدر في سنة 1845، وهو كتاب مُشترك مع فْرِيدْرِيشْ إِنْجَلْزْ)؛ بيان الحزب الشيوعي (1848، مع إنجلز)؛ الرَّأْسَمَال (1867)؛ الحرب الأهلية في فرنسا (1871)، الخ. وهي كلها موجودة على الأنترنيت، وبعدة لُغَات. وتُوجد مكتبة رَقْمِيَة على الأنترنيت، يمكن العُثُور فيها على نصوص الكثيرين من الكتاب الماركسيين، وبِلُغَات مختلفة، وهي: [Marxists.org [archive] Archive internet des marxistes].

(82) ذكر موقع المَوْسُوعَة "فِيكِيبِيدِيَا" (Wikipedia) لَائِحَة جزئية ***لِلْمُفَكِّرِين الذين يُعَدُّون ماركسيين،*** ومنهم: Louis Althusser, August Bebel, Walter Benjamin, Daniel Bensaïd, Pierre Bourdieu, Bertolt Brecht, Nikolaï Boukharine, Cornelius Castoriadis, Hô Chi-Minh, Guy Debord, Isaac Deutscher, Jacques Ellul, Friedrich Engels, Herman Gorter, André Gorz, Antonio Gramsci, Henryk Grossmann, Che Guevara, David Harvey, Michel Henry, Rudolf Hilferding, Anselm Jappe, Leo Jogiches, Karl Kautsky, Alexandra Kollontaï, Karl Korsch, Robert Kurz, Paul Lafargue, Henri Lefebvre, Vladimir Ilitch Lénine, Abraham Léon, Karl Liebknecht, Georg Lukács, Rosa Luxemburg, Mao Ze-Dong, Herbert Marcuse, Paul Mattick, Ernest Mandel, Anton Pannekoek, Kostas Papaïoannou, Gueorgui Plekhanov,

النظري، وهي البوصلة، وخلف أعمال ماركس وإنجلز، يُوجد ثُرَات عالمي هائل مُكَوَّن من أبحاث واجتهادات العديد من الشخصيات الماركسية المختلفة الموزّعة عبر العالم. وكلّ هذه الأعمال تستحقّ أن نطّلع عليها، وأن ندرسها. لكن ***جوهر الماركسية يوجد في مجموعة من المَنَاهِج العَقْلَانِية، والفَلْسَفِيَة، والعِلْمِيَة، والنقْدِيَة.*** والغاية من هذه الأدوات النظرية، هي أن تُساعد المناضلين على ***تَحليل المُجتمع، وعلى نقْده، وعلى تَغْييرِه، عبر ثورة مُجتمعية.*** وعلى عكس «الماركسية الدُّوغْمَائِيَة»، تُكافح الماركسية الثورية ضِدَّ كل ما هو خَاطِئ، أو أَيْدِيُولُوجِي، أو عَقَائِدِي، أو قَدَاسِي، أو مُحَنَّط، أو جَامد، أو جاهل، أو ظَالم، أو مُسْتَلَب (aliéné)، أو مُسْتَبِد[83].

Nicos Poulantzas, Gueorgui Plekhanov, Moishe Postone, Isaak Roubine, Maximilien Rubel, Alfred Schmidt, Georges Sorel, Josef Staline, Léon Trotski, Raoul Vaneigem, Nildo Viana, Jean-Marie Vincent, Clara Zetkin.

وَذَكَر غَازِي الصُورَانِي (في أحد مقالاته) الْلَّائِحَة التَّالِيَة من المُفَكِّرِين المَاركسيِّين العرب : فؤاد مرسي، ومحمود أمين العالم، ومهدي عامل، وسمير أمين، واسماعيل صبري عبدالله، ومحمد إبراهيم نقد، والشفيع احمد الشيخ، وعبد الخالق محجوب، ويوسف سلمان فهد، وعبد الفتاح إسماعيل، وجورج حبش، وفالح عبد الجبار، وهادي العلوي، وميشيل كامل، وطاهر عبد الحكيم، وحسين مروه، والطيب تيزيني، وصادق العظم، وإلياس مرقص، وعزيز بلال، وابراهام السرفاتي، واحمد صادق سعد، وعبد الغفار شكر، وجلبير أشقر، وفوزي منصور، وهشام غصيب، وماهر الشريف، وعبد الباسط عبد المعطي، وعبد الله العروي، وياسين الحافظ، وهشام جعيط، وسلامة كيلة، وموفق محادين، وناهض حتر، وسعيد بن سعيد العلوي، وفيصل دراج، ومحمد دكروب، وجورج طرابيشي، وفواز طرابلسي، وأنور عبد الملك، وغيرهم.

(83) من أحسن ما نشره المناضل المغربي عبد السلام المودن، مقاله تحت عنوان: "ثورة ماركس في نظرية المعرفة". ويعرض فيه تاريخ صَيْرُورَة تَكَوُّن النظرية الماركسية. وهو فصل مأخوذ من كتابه: "الطبقة العاملة الحديثة والنظرية الماركسية"، نَشْرُ "عيون المقالات"، الدار البيضاء، الطبعة الأولى في سنة 1990، الصفحة من

وتأتي قُوَّة الماركسية من جَوْدَة انْتقَادَاتِها، وتَحَالِيلِها، واسْتِنْتَاجَاتِهَا. ***فَمَا هو التَحْلِيلُ*** (*في الماركسية*)؟ وكيف نُحَلِّلُ الظواهر المُجتمعية؟ التحليل هو القيام بالعمليات التالية: 1) الانطلاق من الواقع المَلموس، بهدف العَوْدَة إلى الواقع الملموس (وليس الانطلاق من أفكار خَيَالِيَة، أو تصوّرات مُسْبَقَة). 2) إذا انطلقنا من الواقع الملموس، بمعنى إذا انطلقنا من ظَوَاهِر الأُمُور، يجب أن نُحاول الغَوْصَ داخل بَاطِنِ هذه الأمور، لِرُؤْيَة مَا يجري وراء المظاهر. 3) إِبْرَاز التَنَاقُضَات المُجتمعية التي تُحَرِّكُ الظَوَاهِرَ المُجتمعية. 4) تفْتِيت الظَّوَاهِر المُجتمعية إلى المُكَوِّنات التي تَتَرَكَّبُ منها. 5) إبراز التفَاعُلَات المُباشرة والغير مُباشرة، الظَّاهِرَة والخَفِيَة، الوَاعِيَة أو غَيْر الوَاعِيَة، التي تَحدث فيما بين مُجمل العناصر، أو الفاعلين، أو المُكَوِّنَات المعنية. 6) الرؤية إلى الظَوَاهِر المُجتمعية في تطوّرها التاريخي. 7) محاولة إمساك جوهر الأشياء المَدْرُوسَة، وليس الاكتفاء بِالتَجَلِّيَات المظهرية لذلك الجوهر. 8) التَمَسُّك دَائِمًا بِالهدف الأساسي (في الماركسية) الذي هو رَدُّ الاعتبار إلى العقل، وإلى الإنسان، وتحرير الإنسان من كل القُيُود التي تَتَنَاقَضُ مع إنسانية الإنسان. 9) اعتبار الإنسان في واقعه الملموس، وفي علاقاته المُجتمعية المتناقضة. 10) الرؤية إلى الانسان كممارسة تاريخية، في صيرورته التاريخية والمُتغيّرة.

ورغم أن الماركسية كانت، ومَا زَالت، هي النظرية الأكثر تقدُّمًا في العالم، ورغم أنها حَلَّلَت، وفسّرت، وطَوَّرَت، الكثير من القضايا النظرية، في مجالات الفلسفة، والتاريخ، والاقتصاد، والمُجتمع، فَمِنْ الطُوبَاوِيَة (utopisme) أن نطلب من الماركسية أن تُوَفِّر لنا حُلولًا جاهزة، ونهائية، ومُسبَقَة، وأَبَدِيَة، تصلح لِمُعَالَجَة كل مشاكلنا المُجتمعية. ولا تستطيع الماركسية، ولا أية نظرية أخرى، أن توفر لنا

93 إلى 143. ورابطه هو (https://www.marxists.org/arabic/).

حُلُولًا نظرية كَوْنِيَة، تضمن لنا النجاح في عملية تَغيير المُجتمع، أو في إصلاحه. ومن الطُوبَاوِيَة (utopisme) أيضًا أن نطلب من النظرية الماركسية أن تُرْشِدُنا إلى الخطوات العَمَلِيَة، التي تَضْمَنُ لنا النجاحَ، في بناء الاشتراكية. لأن ***النظرية (من منظور ماركسي) تَرْتَبِطُ جَدَلِيًّا بالممارسة. ولا تقدر النظرية على أن تسبق كثيرًا الممارسة*** (*في ميادين تاريخية جديدة مثل تشييد الاشتراكية*). ***كما لا تستطيع النظرية أن تفْلِتَ من أن تكون مَوْسُومَة*** (*marqué*) ***بزمانها التاريخي.***

وبعبارة أخرى، تُبْنَى النظرية على أساس مُمَارَسَة تاريخية محدَّدَة. ولا تتقدَّم النظرية الثورية إلَّا إذا سَايَرَت تَقَدُّم وتَحليل المُمارسة. ***والمناضلون الثوريون، المُنْخَرِطُون في الممارسة اليومية، وفي البحث العِلْمِي المُتَوَاصِل، هم المُؤَهَّلُون للاِجْتِهَاد، وللإِبْدَاع، ولاِقتراح الحُلُول (النظرية والسياسية)، المُلائمة لِمُستوى تطوّر الصراع الطبقي*** في مُجتمعهم، ولِمُسَايِرَة زَمَانِهِم التاريخي. وكل مُفَكِّر يَتَجَاهل الماركسية، أو يرفض استعمالها، سيبقى يَدور في "حلقة مُفْرَغَة" (cercle vicieux) داخل إطار الرأسمالية المُفْلِسَة.

ويعرف المناضلون الماركسيون مُسبقًا أن أوضاعهم ستكون صعبة، وأن تضحياتهم ستكون قاسية، وأن تجاربهم سَتَتَعَرَّضُ، مِرَارًا وتكرارًا، للقمع، أو لِلْحِصَار، أو للإجهاض، أو للتَّصْفِيَة، أو لاحتمال الانحراف السياسي. ويُدْرِكُ الماركسيون أنهم الأقلية الثورية التي اختارت، عَن وَعْي، مُنَاصَرَة مُعَسْكَر الطبقات المُسْتَغَلَّة والمَسْحُوقة، وفضَّلَت أن تُكَرِّس حياتها لِتَهْيِئ المُسْتَغَلِّين (بِفتح حرف الغين) والمُهَمَّشِين لاكتساب الوعي، والنقْد، وتَهْيِيئِهِم للنضال، وإلى الانتفاض، وإلى التَجَرُّؤ على محاولة بناء المجتمع المُتَحَرِّر من الاستغلال الرأسمالي، ومن الطبقات المُجتمعية المُتَنَاحِرَة. ولا ينتظر

المناضلون الماركسيون أن يقول لهم الرأسماليون أو خُدَّامُهُم: «أنتم على حقّ، ونحن نتمنَّى لكم التوفيق في مشاريعكم».

وقد شَكَّلَت الاكتشافات، أو الإِبْدَاعَات، أو التَدْقِيقَات النظرية، التي أنتجتها الماركسية، شَكّلَت قفزةً نوعية في تاريخ مَعَارِف البشرية. (ومن بينها: نظرية أنماط الإنتاج المُتَعَاقِبَة عبر التاريخ، والمادية الجدلية، والمادية التاريخية، ونظرية فائض القيمة، والعلاقة بين قِوَى الإِنْتَاج وعَلَاقَات الإنتاج، وشرح آلِيَات الاستغلال الرأسمالي، ومفهوم التَشْكِيلَة المُجتمعية، والترابط بين البنية التَحْتِيَة والبنية الفوقية، ومحرِّك التاريخ الكَامِن في الصراع الطبقي، وأطروحة الاِسْتِلَاب، إلى آخره). ولا يمكن نُكْرَان بعض الأطروحات الماركسية، ولا تَجاهُلُها، ولو أن بعضها مَا زال نظريةً غير مُكْتَمِلَة، أو مَوْسُومَة بِزَمَانِها التاريخي.

وعلى خلاف مَا يزعمه بعض الماركسيين "الدُّوغْمَائِيين (dogmatique)، مَا هو مطروح على المناضلين الثوريين، ***ليس هو الوُقُوف عند نظرية ماركس، أو تقْديسُهَا، أو اعتبارها نظرية كَامِلَة، أو نِهَائِيَة. وإنما المَطْرُوح هو الانطلاق من حَيْثُ وَقَفَ ماركس، لِتَكْمِيلِه، أو لِتطويره، أو حتى لِتَجَاوُزِه في بعض أطروحاته.*** فالماركسية ليست هي النِّهَايَة، وإنما هي البداية. فلا تستطيع أية نظرية، بما فيها الماركسية، أن تكون نظرية مُكْتَمِلَة، أو نِهَائِيَة، أو أبدية، أو مُطْلَقَة. وإنما هي نظرية بَشَرِيَة، ومحكومة بزمانها التاريخي. وهذه ***التَارِيخَانِيَة*** تَنْطَبِقُ على كل مُقَوِّمَات التُرَاث الثقَافِي للبشرية. وتنطبق حتّى على العُلُوم الدَّقِيقَة (مثل الفيزياء والكيمياء). ويَأْتِي ***التقدم العِلْمِي*** بالضّبط من التجارب المُتَوَالِيَة، ومن تقْيِيمِهَا، ونقْدِهَا، وتصحيحها. كما يأتي من تَرَاكُم المعلومات، والاكتشافات، ومُرَاجَعَتِها، وتطويرها، وإغنائها، وذلك في ارتباط حَيَوِيّ بالمُمارسة الثورية.

وعلى خلال بعض الظُّنُون، فإن ***وظيفة النظرية الماركسية،*** ليست هي تَوْفِير حُلول مُكْتَمِلَة، أو جاهزة، لكل فاعل سياسي، وذلك بِغَضّ النَظَر عن مُجتمعه، وزمانه، وميدان اشتغاله. وإنما ***وظيفة النظرية الماركسية تُشْبِهُ وظيفة أيّة معرفة في العُلوم الدّقيقة*** (مثل الفيزياء أو الكيمياء). فهي تُزَوّدُكَ ببعض الأدوات النظرية العِلْمِيَة، لكنها لَا تَحُلُّ مَحَلَّك للقيَّام بالتحقيقات، ولَا تَنُوب عنك في تحليل المشاكل، ولَا تُعَوّضُك في ابتكار الحُلُول الملَائِمة لهذه المشاكل، ولَا تُعْفِيك مِن بذل الجُهود لِتَنفِيذِهَا.

وعلى عكس بعض التصوّرات المِثَالية، كُلّما تَعَمَّقْنَا في التَفَاصِيل، وَجَدْنَا أن ***تاريخ بناء الاشتراكية،*** سواء في الاتحاد السوفياتي، أم في الصّين، أم في غيرهما، لم يكن أبداً هَادِئًا، ومُرِيحًا، حسب خط مُسْتَقِيم، واضح، ومُسَانَد من طرف كل أعضاء الحزب الشيوعي، وقادته، وأطره، في جَوٍّ من الاِتفَاق، أو الانسجام، أو الإجماع. على عكس ذلك، نجد أن كل هؤلاء الفاعلين السياسيين، وفي كل يوم، كانوا مضطرّين إلى بذل مجهودات كُبرى ومُضنية. وكانت المناقشات صعبة. وكان الغُموضُ يَغلبُ الوضوحَ في فترات كثيرة. وكانت الصّراعات السياسية حَادَّة. وكانت الأساليب المُستعملة مُفَاجِئَة وقَاسِية. وبدلًا من الوضوح المُسْبَق في نظرية ماركسية جاهزة، كَان الفَاعِلُ السياسي يبحث عن الحُلول، أو يُجَرّبها، أو يُعَدّلها في مُنتصف الطريق، في جَوٍّ من التَسَاؤُلَات، والشّك، والاِحْتِرَاس، والحِيرَة، والاكتشاف. وكان الفاعل السياسي إن أَصَابَ مَرَّةً، أَخْطَأَ مَرَّتَين أو أكثر. وكانت مَيَادين فهم النظرية الماركسية، وتطبيقها، وتطويرها، هي نفْسُهَا مجالَات للصراع الطبقي. والتقدم على طريق بناء الاشتراكية يستوجب، في كل يوم، مجهودات، وتضحيات لا تنتهي. بل يتطلّب أحيانا ضحايا، مَجْهُولِين، أو مَرْمُوقِين. وبناء الاشتراكية ليس هو فقط تغيير نمط الدولة القائمة، وتغيير نمط الإنتاج، وإنما هو أيضًا خَلق مُواطن من نَوع جديد. ***فَلَمْ، وَلَنْ، يكون تشييد الاشتراكية نُزْهَة جماعية، سَهلة، أو مُريحة.***

ويجب الانتباه إلى أنه، إذا كانت النظريةُ الماركسيةُ قد طرحت، وبشكل صَريح، وشَفَّاف، الخُطوط العريضة ***للمشروع المُجتمعي الاشتراكي*** الذي تطمح إليه، فإن أنصار الرأسمالية يتهرّبون دائما من توضيح وتَدْقِيق مشروعهم المُجتمعي الرأسمالي، ولو بعد مُرور قرابة قرنين على ظهور الرأسمالية. ولماذا يتهرّب عادةً أنصار الرأسمالية من توضيح مشروعهم المُجتمعي الرأسمالي؟ لِسَبَبَيْن. أوّلًا، لأن الرأسماليين لَا يَجْرُؤُون على الإفصاح عن مشروعهم المجتمعي، حيث يُحسّون أن الرأسمالية تبقى، في عُمْقِهَا، مُضَادّة للأخلاق، ولِلْعَدل، ولِلْعَقْل. وثانيًّا، لأن الرأسماليّين يشعرون أنهم لَا يَقدرون دائمًا على تَنفِيذ إراداتهم أو اختياراتهم بحرية، وإنما منطق الرأسمالية الخَفِيّ، الكامن في عمق نمط الإنتاج الرأسمالي، هو الذي يُحَدّد إراداتهم، واختياراتهم. وحتى إذا طرح بعض الرأسماليين مشروعًا مُجتمعيا رأسماليًّا مُفَصَّلًا، فإنهم يعجزون دائمًا على الالتزام به، ولَا يقدرون على تحقيقه في الآجال المُصَرّح بها. والجوهر المَكْتُوم في تَصوّر الرأسماليين للمُجتمع، هو أن البشر ينقسمون إلى «خِرْفَان» و«ذِئَاب»، وأنه ***يَحِقُّ «لِلذِّئَاب» أن يَسْتَغِلُّوا «الخِرْفَان»***، وأن يَسْتَخْرِجُوا منهم "فَائِضَ القِيمَة"، وأن يحتكروه، وأن يُراكموه، وأن يَسْتَثْمِرُونه طبقا لمصالحهم الأنانية الخُصوصية. وهَوَسُ مُجمل الرأسماليين هو إنتاج الرّبح، أو المال، ومُضَاعَفَتِه، ومُرَاكَمَتِه، بِلَا توقّف، ولو كانت مُضَاعَفَة المال تَحدث عبر الإضرار بِالبشر، وعبر تفقير الكَادِحِين، وعبر تخريب الطبيعة. هذا هو الجوهر الخَفِيُّ في نظرية الرأسمالية.

ويطلب دَائِمًا الرأسماليون مِن الشعب أن يَعتمد بشكل كُلِّيٍ، وأَعْمَى، على آلِيَات نَمَطِ الإِنْتَاج الرأسمالي. ويطلب الرأسماليون مِن الشعب أن يتركَ السُّوقَ تُنَظِّمُ النشاطَ الاقتصادي. والغاية من مطالبة الرأسماليين بِتقْلِيص أدوار الدولة إلى أدنى حَدٍّ ممكن، هو إِفْلَات

الرأسمال من المُرَاقَبَة، ومن المُحَاسَبَة، ومن حُكم القوانين القائمة. والنتيجة المألوفة لِتقْليص تدخّل الدولة، هي تَعْمِيق الاستغلال الرأسمالي، وهضم حقوق المأجورين المُشَغَّلِين، واستفحال الفقر، وتفَاقُم الفوارق الطبقية، وتحطيم البيئة، وانحطاط المُجتمع. ومهما قال الرأسماليون، فإن المبادرات الرأسمالية الخُصُوصِيَة لَا تقدر على تلبية مُجْمَل حاجيات المُجتمع الأساسية. وإذا لم تتدخل الدولة بقوة، لِإِنْجَاز كل ما يَتَهَرَّبُ منه الرأسماليون الخُصُوصيّون، تحدث في المُجتمع اختلالات، أو احتكارات، أو أزمات، أو حُرُوب. ويطلب الرأسماليون من الشعب الاعتمادَ على «المبادرة الاقتصادية الحُرَّة»، وعلى «حُرِّيَة السُّوق»، و«حُرّية المنافسة»، إلى آخره. لكن هذه الآلِيَات تَنْحَرِف، أو تفْشِل، إذا لم تفْرِض عليها الدولة الاشتغال في نطاق حُدُود قانونية مُعَيَّنَة. والمَأْسَاة التي تَتَكَرَّر في الرأسمالية، هي أن "فِرَق الضَّغْط" (lobbies) الرأسمالية تَنْجَحُ دائمًا، وفي آخر المطاف، في السيطرة على دَوَالِيب الدولة. بل تُسَخِّرُ "فرق الضَّغْط" الدولةَ لخدمة الأغراض الأنانية الضَيّقة لِتلك الفئات المُسْتَغِلَّة الكُبرى، وذلك على حِسَاب مصالح عامّة الشعب الكادح.

وَتُنَاهِضُ الرأسماليةُ الماركسيةَ، وتُحَارِبُ الاشتراكيةَ، بِمَنْطِق القُوَّة، وليس بِقُوَّة المَنطق. وتعتمد الرأسماليةُ على تجهيل الشعب، وعلى إخضاعه لِدِعَايَة مُكَثَّفَة. وتستعملُ الرأسماليةُ النفاقَ، والخِدَاعَ، والقمعَ، والتصفيات. ولا تلتزم الرأسماليةُ لَا بالقانون، ولَا بالأخلاق. ونتذكّر هنا العديد من المؤامرات، والاغتيالات، والحروب، والحِصَارَات، التي فَرَضَتها الإمبريالية على كل البلدان، وعلى كل الأنظمة السياسية، وعلى كلّ الحركات الثورية، التي حاولت اِتِّبَاع اخْتِيَارَات «اشتراكية». ومن بين هذه البلدان الضحايا: الاتحاد السوفياتي، وحُلَفَائِه في حِلْفِ "وَارْسُو"، والصّين، وفِيتْنَامْ، وكُورْيَا

الشَمالية، وكُوبَا، وبلدان متعدّدَة في أمريكا اللَّاتِينِيَة، وافريقيا، وآسيا، إلى آخره. وتاريخ العالم الحديث هو كلّه تاريخ قهر استعماري وإمبريالي. ويُعَدُّ إجمالي ضحايا المؤامرات والحروب الرأسمالية في العالم بمئات الملايين من البشر. وهو ما يَتَنَاسَاه دائمًا أنصار الرأسمالية.

ومنذ قرابة سنة 1945 (أي منذ نهاية «الحرب العالمية الثانية»)، وإلى حدود اليوم في سنة 2018، تَوَالَت عِدَّة حُكُومات في بلدان "العالم الثالث" (في افريقيا، وآسيا، وأمريكا اللاتينية). وكانت هذه الحكومات تُحَاوِلُ إخراج بلدانها من التخلّف، ومن التَبَعِيَة للإمبريالية، عبر اِتِّبَاع قَوَاعِد النظام الرأسمالي. ونتيجة ذلك، بعد مُحاولات دامت قرابة 70 عامًا، هي أن "بلدان العالم الثالث" مَا زَالَت تَتَخَبَّط في التخلّف المُجتمعي الشَّامل. وتُعَانِي من الفقر، والجهل، والاستبداد، والفساد، والضعف، والدُّيُون، والتَبَعِيَة للإمبريالية، إلى آخره. وعلى عكس بعض الظّنون، فَإِنّ تَكَاثُرَ العِمارات، والسيارات، والتِّلْفَزَات، والهواتف، وما شابهها، في المُدُن الكبيرة لِـ "بلدان العالم الثالث"، ليس حُجَّة على خروج هذه البلدان من التخلّف، وارتقاءها إلى مستوى التقَدُّم، أو التَحَرُّر. وإنما الخَلَاص من التخلّف يعني استرجاع سيادة الشعب الوطنية الحَقَّة، وتغيير المُجتمع، وتثويره، لكي يُصبح قادرًا، هو بنفسه، على تَلْبِيَة معظم حاجِيَاته، على مستويات البنيات التحتية، والإنتاج الفلاحي، والاقتصادي، والعِلْمِي، والتكنولوجي، والثقافي، في إطار دولة العدل، أو دولة الحقّ والقانون.

وحينما ندرس ***الأزمات*** المتنوّعة التي تتكرّر في النظام الرأسمالي، نجد أن سببها الأساسي يَكْمُنُ في ***اعتماد الرأسمالية على "مُحَرِّك الأنانية الفردية"***[84] لدى الفاعل الرأسمالي. فلا يَهْتَمُّ الفاعل الرأسمالي

(84) L'égoïsme individuel comme moteur de l'activité économique.

سوى بِجَنْيِ الرِّبْح الشخصي، ولو عبر سحق المأجورين، أو عبر الإضرار بالمُجتمع، أو تخريب البيئة. بينما كان ***ينبغي أن يؤدي الطابع المُشترك للحياة في المُجتمع إلى تفضيل، أو تَغْلِيب، الاعتماد على "مُحَرّك التضامن"***[85] ***المُجتمعي لَدَى الفاعل الاقتصادي.*** وحينما نربط ***الأزمات*** المُتكرّرة في الرأسمالية بِخُصوصيات نَمَط الإنتاج الرأسمالي، يُمكن أن نُدرك أنه لا يُوجد حل جَذْرِي، أو مَضمون، لهذه الأزمات، إلاّ عبر ***إخراج البشرية من نَمَط الإنتاج الرأسمالي.***

وحينما نَفحص الإصلاحات الكبرى التي تقترحها بعض الجهات المُسَخَّرة لخدمة الطبقات السّائدة، بُغْيَةَ تقليص بعض النتائج السلبية الموجودة في النظام الرأسمالي، نجد أنها تقترح علينا مثلًا استراتيجية توزيع الصدقات على المُعْوِزين، أو سياسة «التَكَفُّل بالفقراء والمُحْتَاجين»، أو «العناية بالبيئة» (écologie)، أو استراتيجية «التنمية المُستدامة» (développement durable)، إلى آخره. ويمكن أن نُدرك المَأزق الذي تَتخبّط فيه مثل هذه الأطروحات. لأن كلَّ واحدة من هذه الأطروحات تفكر في جانب جزئي، ومحدود، من إشكالات المجتمع. وَتَبْقَى الحلول التي تقترحها خاضعة لِمَنْطِق الرأسمالية. ولا تقدر هذه الإصلاحات على مُعالجة مشاكل المُجتمع في شُموليتها. فيكون مآلها، في آخر المَطَاف، هو الفشل.

وفي مثل هذه اللحظات من التّأمّل، يحسّ الشخص الباحث فورًا بالأهمية الحاسمة للنظرية الماركسية. لأن ***الماركسية هي بالضّبط النظرية الوحيدة التي تُحَلِّلُ المجتمعَ في شموليته*** (دون الفصل بين الإشكالات السياسية، والاقتصادية، والفكرية، والإشكالات الأخرى البيئية، أو الثقافية، أو النفسية). والماركسية هي النظرية الوحيدة التي تَتَجَرَّأُ على تَحْدِيد أصل الداء في «التناقض بين الطَّابع المُجتمعي

(85) La solidarité comme moteur de l'activité économique.

للإنتاج، والطَّابع الخُصُوصِي لِتَمَلُّك وَسَائل الإنتاج». وتُشَخِّصُ الماركسية الأسباب العميقة في ***نمط الإنتاج الرأسمالي***، وتقدِّم وَصْفَة العلاج في التخلّص منه.

فما دام هناك نظام مجتمعي مبني على أساس «استغلال الإنسان من طرف الإنسان»، وعلى أساس «التملّك الخاص لوسائل الإنتاج المُجتمعية»، وعلى أساس هيمنة «القِيم الأنانية» بدلًا من «قِيم التَضَامُن المُجتمعي»، فإن هذا النظام المجتمعي سيبقى حتمًا غير عَادل، وغَير عَقلاني، ومُخَرِّبا للبيئة. وسَيَبْقَى يُعِيدُ إِنْتَاج الفقر، والجهل، والفوارق الطبقية المُستدامة. ويمكن هنا أن نَلمس أن النظرية الماركسية، ولو بنواقصها المُفْتَرَضَة، هي الوحيدة التي تقترح تحليلا شُموليا للمجتمع، وتطرح بُنُود استراتيجية (ولو غير مُكْتَمِلَة) لِتَحرير البشرية من الاستغلال، ومن الفقر، والجهل، ومن تخريب البيئة.

فالعُنْصُر الذي فَشِلَ في حدث انهيار الاتحاد السوفياتي، ليس هو الماركسية، وإنما هو غياب الاِسْتِرْشَاد الصحيح بِالماركسية الثورية.

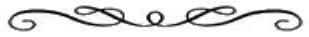

11) من هو مؤهَّل للحُكْمِ على الماركسية؟

لِنفترض أنني سَطْحِي، أو بَليد، بمعنى ضعيف الذكاء، كيف يُمكنني في هذه الحالة أن أَعِيَ أن ***النظرية الماركسية*** مُفيدة، أم ضَارَّة؟ هذا غير ممكن. وإذا كانت ثقافتي هَزِيلَة، وتكويني رَدِيء، وتعليمي ضعيف، فهل سيكون بمقدوري أن أُبَلْوِرَ موقفًا معقولًا من الماركسية؟ هذا غير ممكن. وإذا كنتُ سَاذَجًا (naïf)، وإذا كانت "اللُّوبِيَّات" (lobbys) الرأسمالية، أو "العِصَابات" المُهَيْمِنَة على المُجتمع، تتلاعب بِعَقْلِي، وبِتَكْوِيني المدرسي، والثقافي، وتُلَوِّثُ دِمَاغِي بِدِعَايات مُغْرِضَة، فَهَل سيكون بِمُسْتَطَاعي أن أفهم أن النظرية الماركسية هي سِلاح نظري ضروري، لتحقيق تَحَرُّرِي السياسي، والاقتصادي؟ هذا غير ممكن. وحتّى إذا كان ذَكَائِي جيّدًا، وتكويني التعليمي حَسَنًا، لكنني لم أبذل خلال حياتي كُلِّهَا مجهودا شخصيا كافيا لِلْاِطِّلَاع على النظرية الماركسية، ولِاكْتِشَاف مناهجها، فَكَيْفَ يمكنني أن أعرفها، أو أن أحكم عليها؟ هذا غير ممكن.

وتلك هي بالضَّبْط شُروط التَّأَهِيل للحُكم على النظرية الماركسية.

وكثير من المواطنين يَكْتَفُون بِتَرْدِيد ما يسمعونه، فَيَزْعَمُون، هم أيضًا، أن «النظرية الماركسية هي مُجرّد أوهام». ويُكَرِّرُون أن «الاشتراكية هي مُجرّد كذبة، وأنها مستحيلة التحقيق»[86]. وإذا طرحنا

(86) أنظر مقال رحمان النوضة: «نقد أنصار الرأسمالية»، وهو موجود على مُدَوَّنَتِه.

عليهم أسئلة دقيقة، نلاحظ أنهم لَا يعرفون لَا «الماركسية»، ولَا «الاشتراكية»، ولَا «الرأسمالية»، ولَا عِلْم المُجتمع (السُوسْيُولُوجِية)، ولا التاريخ، ولا الاقتصاد، ولا الفلسفة، ولا المَنطق، ولا فلسفة القانون. بل لا يعرف هؤلاء المواطنين أنهم يجهلون هذه المسائل. ورغم ذلك، تراهم يُصْدِرُون الأحكام المُسْبَقَة على مَا يَجْهَلُون، وهم وَاثقُون من أنفسهم. فَيَا لَهُ من غُرُور !

وأُسُسُ التعامل مع الماركسية اِثْنَتَان رئيسيتان: إِمَّا أن نَكُون طرفًا مُستفيدًا من النظام الرأسمالي، فَنُعادي الماركسية. وإِمَّا أن نكون ضحية لهذا النظام الرأسمالي، فنميل إلى مناصرة الاشتراكية.

12) هل الماركسية أيديولوجية ؟

خلال قرابة سنوات 1968، كُنَّا نُناضل في إطار "الحزب الشيوعي المغربي". ولمّا اشتدّ القمع والترَهِيب على هذا الحزب، من طرف الملك المُستبدّ الحسن الثاني، دخلتْ قيادة هذا الحزب في سياسات تدريجية اِسْتِسْلَامِيَة، ثم تراجُعية. فانسحبنا جماعيا من هذا الحزب. وانسحب كذلك مناضلون ثوريون من "حزب الاتحاد الوطني للقوات الشعبية". ثم أسَّسَ المنسحبون تنظيمات ثورية، سرّية، «ماركسية لينينية» (وهي "منظمة إلى الأمام"، و"منظمة 23 مارس"، و"منظمة لنخدم الشعب").

ولم نكن آنذاك نُدرك أن مَا سُمّي ب «النظرية المَارْكِسِيَة اللّيِنِينِيَة»، ليست هي الصّيغَة الأصلية الوَفِيَة لِأُطْرُوحَات كَارْل مَارْكِسْ، وافْرِيدْرِيشْ إِنْجَلزْ، وفْلَادِيمِيرْ لِينِينْ، وإنما هي آراء وتأويلَات تِيَار جُوزِيف اسْطَالِين ومُعاونيه. ولم نكن نعرف آنذاك أن مناهج وممارسات جوزِيف اسْطَالِين ومن معه، تختلف جَذْرِيًّا عن مناهج كارل ماركس.

زِيَادَةً على ذلك، كنّا نظنّ أن «الفكر الماركسي اللينيني» هو فكر سياسي نَاضِج، شامل، مُكْتَمِل، وجاهز للتطبيق النَّاجِح والأكيد. فحوّلناه بسرعة، ودون أن نعي ذلك، إلى ما يشبه "أَيْدِيُولُوجِيَة" من نوع جديد. ومن الممكن أن يكون البعض منّا مَا زال يتعامل مع «الفكر الماركسي اللينيني» كَ "أَيْدِيُولُوجِيَة" من نوع جديد. ومن بين نتائج ذلك

التصوّر، أننا لم نتجرّأ على تطوير هذا «الفكر الماركسي اللينيني»، ولم نستطع تغيير المجتمع، ولم ننجح في مشاريعنا السياسية الأَصْلِيَة.

وَبعد "انهيّأر الاتحاد السُّوفياتي"، أَذَاعَت وسائل الإعلام الرأسمالية والإمبريالية، المُهيمنة عَالَمِيًّا، أَذَاعَت هذه «الحقائقَ» الجديدة المنتصرة: «الماركسية خاطئة»، و«الاشتراكية هي مُجرّد يُوتُوبْيَا»، و «الرأسمالية هي النموذج الاجتماعي الأبدي الوحيد القابل للحياة»! و"الخُطَبَاءُ" (الذين يرفضون الاعتراف بكونهم "دُعَاة") يعلنون: «الماركسية، والاشتراكية، وكل هذه الأشياء، هي مجرد أَيْدِيُولُوجْيَا»! لكن هؤلاء "المُتَكَلِّمِين" لا يُدْرِكُون أنهم هم أنفسهم غارقون في "الأَيْدِيُولُوجْيَا". وَكَمَا أوضح لْوِيس أَلْتُوسِير(Louis Althusser) : «أولئك الذين هم في الأَيْدِيُولُوجْيَا يَظُنُّون أنهم يَتَمَوْقَعُون بِالضَّرُورة خارج الأيديولوجيا. (...) والأيديولوجيا لا تقول أبداً "أنا أَيْدِيُولُوجِي". (...) نحن نعلم جيداً أن الاتهام بالتَوَاجُد في الأَيْدِيُولُوجْيَا لا يَنْطَبِقُ أَبَدًا سِوَى على الآخرين، وليس على المُتَكَلِّم هو نفسه (ما لم يكن هذا المُتَكَلِّمُ سْبِينُوزِيًّا، أو مَارَكْسِيًا حقاً»[87].

مَا هي ***"الأَيْدِيُولُوجِيَة"***؟ يُمْكِنُ أن نُعَرِّفَ *"الأيديولوجية"* بِكَوْنِها: مَنْظُومَة من الأفكار، أو الأحكام، أو الاختيارات، التي لا تَنْطَلِق من الواقع المَحْسُوس، ولا تُسْتَخْرَج من التجارب البَشَرِيَة المَلْمُوسَة، وإنما تكون جاهزة، ومُسْبَقَة، وَمُتَوَارَثَة عبر التقَالِيد، أو المُعتقدات، أو التَّلْقِين، أو الدِّعَايَة. وتُسْتَعْمَل "الأيديولوجية" كوسيلة لمعرفة الواقع، أو لِتفْسِيره، أو لِتحليله، لكن عبر رُؤْيَة مُسْبَقَة، وغير عَقلانية، أو عَبْرَ مِصْفَاة (أو فِيلْتَرْ، filtre) غير عِلْمِية. وَمِيزَة "الأيديولوجية" هي أنها لا تُخْضِع عَلَاقَتَهَا بالواقع إلى العَقْل، وإلى النَّقْد، وإلى العِلْم. ويمكن أن

(87) Louis Althusser, “Idéologie et appareils idéologiques d’État”, Les Éditions sociales, Paris, 1976, p.50.

تُوجد "الأيديولوجية" في مجالات السياسة، أو الاقتصاد، أو الدِّين، أو القانون، أو الثقافة، إلى آخره.

وأكبر المُنْتِجِين للأيديولوجية في المُجتمع هم : السُّلطة السياسية، والهَيْئَات الدِّينِيَة، والعائلة، والمدرسة، والجامعة، ووسائل الإعلام، والقوى السياسية، والفاعلين الفَنِيِّين، إلى آخره.

فالطبقات المُسْتَغِلَّة، أو السَّائدة، هي التي تُنْتِج الأيديولوجيات، لِتَبْرِير انقسام المُجتمع إلى طبقات مُجتمعية، وَلِتخدير عُقُول المُسْتَغَلِّين، ولِتَسهيل إِخْضَاعِهم، ولِإِدَامَة طَاعَتِهم، واسْتِغْلَالِهِم. وغالبًا ما تحتاج الأنظمة السياسية المُسْتَبِدَّة، أو الدِّينية، أو الاقتصادية، أو الثقافية، إلى ترويج، وتَلْقِين، وترسيخ، "الأيديولوجيات"، بهدف تبرير هَيْمَنَتِها، أو لِتَعْلِيلِ امتيازاتها، أو لِإِضْفَاء الشرعية على أنشطتها، أو لإعطاء قِيمَة عُلْيَا لِسُلُوكِيَّاتها، أو لإخفاء استبدَادها، أو لِتَمْوِيهِ فَسَادِهَا. ***والأيديولوجية السَّائدة في المُجتمع، هي عُمُومًا أيديولوجية الطبقة السَّائِدَة.*** ودور الأيديولوجية السائدة هو أنها تُصَوِّرُ المصالحَ الأنانية للطبقة السائدة على أنها المَصَالِحَة المُشتركة لكل المجتمع.

وفي معظم الحالات، يُرَدِّد تِلْقَائِيًّا المَسُودُون، والمُسْتَغَلُّون، الأيديولوجيات السَّائدة في المُجتمع، دون أن يُدْرِكُوا مَصْدَرَها، ودون أن يَحِسُّوا أنها مُنَاقِضَة لِلعقل، ولِلْوَاقِع، ودون أن يَعُوا أنها تَضُرُّ بمصالحهم الطبقية. وتكون الأيديولوجيات منتشرة في مجمل مَوَاقِع المجتمع الطبقي، لكنها ***تبقى عُمومًا غير مَحْسُوسَة من طرف مُسْتَعْمِلِيها.***

هل ***الماركسية*** أَيْدِيُولُوجِيَة؟ البعض من بين أنصار الاشتراكية يتعاملون مع نظرية ***الماركسية كَأَيِدِيُولُوجِيَة*** (أي كَفِكْر مُحَنَّط، وغير مُتفَاعِل مع الواقع الحَي). لكن ***الماركسية*** بريئة من هذا السُّلوك غير

العِلْمِي. لأن الماركسية نَشَأت، ونَمَتْ، بالضَّبْط عبر نقْد، ومحاربة، مختلف الأيديولوجيات، في ميادين الفلسفة، والتاريخ، والاقتصاد، وعِلْم المُجتمع، والسياسة، إلى آخره. وميزة الماركسية (التي تُبعِدُها عن الأَيْدِيُولُوجِيَة)، هي بالضّبط حِرصُها المُتَوَاصِل على ***الانطلاق من الواقع*** المَادّي المَلْمُوس، وليس من المُعْتقَدات، أو من المُقَدَّسَات.

والأشخاص الذين يطلبون من النظرية ***الماركسية*** أن تكون صحيحة، وفَعَّالة، وناجحة، في جميع تفاصيلها، وبشكل مُطْلَق، وكُلِّي، ونِهَائِي، وفي جميع الميادين، لا يُدْرِكُ هؤلاء الأشخاص، أنهم هكذا، يطلبون من هذه النظرية ***الماركسية*** أن تكون بالضّبط مثل ***"الأيديولوجية"***.

وعلى خلاف ***الأيديولوجيات***، والنظريات المِثَالِيَة، لا تقول *الماركسية* إن الفكر هو الذي يسبق المَادَّة، أو يُحَدِّدها، بل على عكس ذلك، تقول *الماركسية* إن المادّة هي التي تسبق الفكر، وهي التي تُحدِّده.

وتزعم ***الأيديولوجيات*** أن تاريخ المُجتمع هو تاريخ وِئَام، وإجماع، وتآزر، ووَطَنِيَة، أو قَوْمِيَة مُتضامنة، إلى آخره. بينما تقول *الماركسية* أن ***تاريخ المُجتمع هو تاريخ صِرَاع بين طَبَقَات مُجْتَمَعِيَة***. ولا تَدَّعِي الماركسية أنها مُحَايِدَة، بَلْ تُعْلِن الماركسيةُ عَلَنِيَةً انحيازها إلى جانب المُسْتَغَلِّين، والمُضْطَهَدين.

وإذا كانت ***الأيديولوجيات*** تَتَعَالَى على الزمان التاريخي الذي نشأت فيه، وتُعْلِنُ نفْسَهَا حَقَائِقَ مُكْتَمِلَة، ومُطْلَقَة، وَأَبَدِيَة، فإن *النظريات* ***الماركسية*** (مثلها مثل النظريات العِلمية)، ***تعترف بِنِسْبِيَتِهَا، وبارتباطها بِزَمان تاريخي مُحدّد، وَتَقْبَل بأن تَخضع لِلنِّقَاش، ولِلمُرَاجَعَة، ولِلنَّقْد، ولِلتَّطْوِير، ولِلإِغْنَاء***. وإذا كانت ***الأيديولوجيات*** لا تقبل الاعتراف بإمكانية خطئها، فإن النظريات

الماركسية تعترف بإمكانية خطـإ بعض أطروحاتها. ولإِثْبَات خطإ أحد أطروحات الماركسية، يكفي تقديم الحُجَج العِلْمِيَة الكافية لكي يقبل الماركسيون هذا النقد.

وترفض ***الأيديولوجيات*** إخضاع مزاعمها للعُلوم الدَّقِيقَة. بينما تبقى ***الماركسية*** مُنْفَتِحَة على العُلوم الدَّقِيقَة، وتقبل التفَاعُلَ الخلَّاق والنَقْدِي معها.

ويَمِيلُ الماركسيون السَطْحِيُّون بسهولة إلى تحويل الماركسية إلى عَقِيدة جَامِدَة. فَنقول للماركسيين "الدُّوغْمَائِيّين" (dogmatique)، إذا اعتبرنا أن النظرية الماركسية كلّها صحيحة، ومُنْتَهِيَة، وأبدية، فهذا الموقف سيعني أننا نتعامل مع النظرية الماركسية كأنها نَصٌّ دِيني، مُنَزَّل، ومُطْلَق، ومُقدّس، وغير قابل للمراجعة، وغير خاضع للنقد، أو للتطوير. وهذا التصوّر سيكون غير جَدَلِي. بل سيكون مُنَاقِضًا للنظرية الماركسية هي نفسها. لأنه يُحول ***الماركسية***، من دون وعي، إلى ***أيديولوجية***.

13) هَل الماركسيةُ عِلمٌ دَقِيقٌ ؟

سبق لِـ طُوماس هُوكْسْلِي (Thomas Huxley) أن كَتَب : «يَكْتَسِبُ العَقْل العِلْمِي قِيمَةً أكبر مِن قِيمة مُنتجاته... وَجَوهر التَفْكِير العِلْمِي، هو مُمَارَسَة التَفْكِير النَّقْدي»[88]. وَفِيمَا يَخُصُّ المَارْكِسِية، يُمكن أن نُعِيدَ صِيَّاغَة فِكْرَة طُومَاس هُوكْسْلِي بِالعبارة التالية : "يَكْتَسِبُ الفكر الماركسي أَهَمِّيَة أكبر مِن قِيمَة مُنْتَجَاتِه... وجوهر التَفْكِير الماركسي، هو ممارسة التَفْكِير النَّقْدي". وما هو هذا الإنتاج القَيِّم الذي أَنْتَجَتْه الماركسية ؟ إنه إِنْتَاج نَقْد دَقِيق، شُمُولي وَمُفَصَّل، لِنَمَط الْإِنْتَاج الرَّأْسَمَالِي. وَلَوْ أن هذا التَحْلِيل النَّقْدي الماركسي يحتاج إلى تَحْيِينَات، واجْتِهَادَات، واقتراحات مُجَدِّدَة. وَبَعْد مُرُور أكثر مِن قَرْن على موت كارل ماركس، مَا زَال الفِكر الماركسي هو سِلَاحُنَا الأساسي لِتَحْلِيل وَنَقْد مُجتمعاتنا الرَّأْسَمَالِيَة المَأْزُومَة.

وعلى خلاف بعض الظنون، الإشكاليات التي تهمّ الماركسية، لا تُوجد في نظريات فِكْرِيَة، أو مُجَرَّدَة، وإنما توجد في ***الواقع المُجتمعي*** الحيّ، أي في الممارسة المُجتمعية للبشر. إنها إشكالية تَحَرُّر شُعوب، ليس فقط من الاستعمار، ومِن هيمنة الإمبريالية، ومن الاستغلال الرأسمالي، ومن الاستبداد السياسي، ومن التَخَلُّف المُجتمعي، ولكن

(88) Thomas Henry Huxley (1825 - 1895) avait écrit que «L'esprit scientifique a plus de valeur que ses produits; et des vérités défendues de façon irrationnelle peuvent être plus nuisibles que des erreurs raisonnées. Or l'essence de la pensée scientifique, c'est l'exercice de la pensée critique» (Cité par Wikipedia : Ouvrage collectif (article Le « scandale » du British Museum, Pierre Thuillier), La Recherche en paléontologie, Paris, Seuil, coll. « Points science », 1989 (ISBN 2020104830), p. 342.).

أيضًا من الاِسْتِلَاب (aliénation). وَلُبُّ الماركسية، ليس هو نظرية لوصف الأشياء، وإنما هو نظرية لِتَهْيِئ الثورة المُجتمعية، وإنجاحها، أي تَغْيِير وَتَثْوِير المُجتمع[89]. وقد كتب كارل ماركس هو نفسه أنه إذا أردتَ أن تُثْبِتَ صحة أفكارك، يلزمك أن تُثبتَها في الميدان، أي في المُمَارسة العَمَلِيَة، وليس في تَصَوُّرات نَظرية أو خَيالية[90].

وفي المُجتمع الرأسمالي، تسمح الطبقة السائدة للجامعات، ولمراكز البحث العلمي، وللعلماء، بأن يَدْرُسُوا كل الميادين التي تهمّهم، باستثناء ميدان واحد يبقى مَكْرُوهًا، أو مُحَرَّمًا، أو شِبْهَ ممنوع، هو ***دراسة المُجتمع بمنهج ماركسي***. بينما دراسة المُجتمع بمناهج "برجوازية"، أو "رَأْسَمَالِيَة"، تَبْقَى مُباحة. لأن الطبقة السائدة تُدْرِكُ مُسبقًا أن دراسة المُجتمع بِمَنْهَج ماركسي، ستؤدي إلى إنتاج معارف ونظريات تَفْضَحُ تَنَاقُضَات المُجتمع، وتَنْتَقِدُها، وتَحُثُّ على تَثْوِيرِ المُجتمع. وهو ما لا تسمح به الطبقة الرأسمالية السائدة. فالماركسية هي من بين المدارس الفكرية النادرة التي تُرَكِّز على دراسة المُجتمع، وَتَعْرِيَة تَنَاقُضَاته، ومَظَالِمِه، وتَدْعُو إلى عَقْلَنَتِه.

هل الماركسية عِلْم دَقِيق (science exacte)؟ ليست الماركسية علمًا دقيقا بالمعنى الكلاسيكي، مثلما هو حَالُ الفيزياء، أو الكيمياء، أو مَا شَابَهَهُمَا. لأن الماركسية لا تدرس أجسامًا جامدة (مثلما هو الحال

(89) كارل ماركس، في أطروحته رقم 11 حول فُويرْبَاخْ (Feuerbach): «لم يفعل الفلاسفة سوى تفسير العالم بِطُرُق مُختلفة، بينما المطلوب هو تغييره». (K. Marx et F. Engels, Œuvres Choisies en trois volumes, Tome 1, Editions de Progrès, Moscou, URSS, 1976, p.9).

(90) كارل ماركس، في أطروحته الثانية حول فُويرْبَاخْ: «إن مسألة ما إذا كان الفكر الإنساني يمكن أن يَصِلَ إلى حقيقة موضوعية، ليس مسألة نظرية، بل مسألة عملية. فإذا أراد الانسان أن يُثْبِتَ الحقيقة، فينبغي عليه أن يُثْبِتَهَا في المُمَارَسَة». (نفس المصدر السّابق، الصفحة 7).

في الفِيزِيَاء أو الكِيمياء)، وإنما ***تدرس الماركسية على الخصوص المُجتمعات البشرية كَأَجْسَام حَيَّة، وَمُتَنَاقِضة، ومُتَطَوّرة، تحت تأثير فَاعِلِين مُجْتَمَعِيّين مُتَعَدّدِين، يَتَغَيَّرُون هم أنفسهم، وَيَتفَاعَلُون فِيمَا بَيْنَهُم، ويَتكَامَلُون، وَيَتصَارعون، ويتناقضون.*** فَالماركسية هي عِلْم من نوع خاص. وتُشبه الماركسيةُ "عِلْمَ المُجتمع" (sociologie)، دُون أن تَتَطَابَقَ مَعه. ولا تستطيع الماركسية القيام بِتَجَارِب مُجتمعية قَابلة لِلتّكْرَار، ولِلْمُضَاعَفَة (مثلما هو مُمْكِنٌ في الفيزياء، أو الكيمياء)، لِكَيْ تَخْتَبِرَ أطروحاتها، أو لِكَيْ تَتَأَكَّدَ من صحّتها. فمثلا الثورة الفرنسية التي حدثت في سنة 1789، أو كُمُونَة باريس في سنة 1871، أو الثورة البلشفية في روسيا في سنة 1917، درسها المُنَظِّرُون الماركسيون، واستنتجوا منها دروسًا وقوانين نظرية. لكن هَاتِهِ الثورات هي ثورات فريدة من نوعها، ولا يمكن تِكْرَارُهَا بهدف التأكّد من مَدَى صحة الدُرُوس، أو القوانين، أو النظريات الماركسية، المُسْتَنْتَجَة منها. وتستفيد الماركسية من مُجمل العُلوم الدَّقيقة، ومن مُجمل التُرَاث الثقافي للبشرية (بما فيها الفلسفة، والتاريخ، والاقتصاد، وغيرها)، دون الوقوف عند الفَوَاصِل التَخَصُّصِيَة الموضوعة فيما بين هذه المَوَادّ.

وإذا اِتفَقْنَا على أن النظرية الماركسية تحتوي على ***مناهج ومضامين عِلْمِيَة***، فيجب في هذه الحالة أن نتعامل مع منتوج النظرية الماركسية، مثلما نتعامل مع منتوجات العُلوم الدَّقِيقَة. أي أنه يلزم أن ننظر إلى العناصر المكوّنة للنظرية الماركسية على أنها قابلة لِلنِّسْبِيَة، ولِلصَّوَاب، ولِلْخَطَأ، وللتَّطْوِير، مثلما تتطور مجمل نظريات العلوم الدّقيقة (في الفيزياء، والكيمياء، وغيرهما). فمن الممكن أن تظهر أُطْرُوحَة ماركسية مُعَيَّنَة سَليمة خلال فترة تاريخية؛ وفي فترة لَاحِقَة، يمكن أن نكتشف أن هذه الأطروحة الماركسية القديمة جُزْئِيَة،

أو ناقصة، أو خاطئة. فَنُعَوّضُ هذه الأطروحة الماركسية القديمة بأخرى يُفترض فيها أنها أكثر صَوَابًا. ونستمر في استعمال هذه الأطروحة الماركسية الجديدة إلى أن نكتشف نقصًا، أو خطأً مَا فيها. فَنَسْتَبْدِلُها هي أيضًا بِأطروحة ماركسية أخرى بديلة، نَفْتَرِضُ أنها أكثر صوابًا من سابقتها. وبهذه الرُّؤْيَة، سندرك أنه من غير المعقول أن نَتَعَامَل مع العناصر المكوّنة للنظرية الماركسية كأنها مُكْتَمِلَة، أو مُطْلَقَة، أو نِهَائِيَة، أو مُقدّسة. بل تَفْتَرِضُ الرُّؤية الجَدَلِيَة بأن تبقى مُكَوّنَات النظرية الماركسية خاضعة للمُراجعة، وللنقد، وللتطوير، وِلِلتَّحْسِين. لذلك يقول بعض المفكرين (مثل سمير أمين): «يجب الانطلاق من الماركسية، وليس الوقوف عندها»[91].

وكلما تَكَلَّمْنَا عن «الماركسية» إلى بعض الأشخاص، يَتَّهِمُونَنَا فَوْرًا بِكَوْنِنَا «دُوغْمَائِيّين». لكن حَقِيقة هؤلاء الأشخاص، هي أنهم لَا يرفضون فقط «الدوغمائية»، وإنما يرفضون «الماركسية» هي نَفسها، وَيُعَوّضُنها بِدِين «الرأسمالية» المُقَدَّس. وبعضهم يُنَدّدُ بِـ «الدُوغمائية»، بِهَدَف تَبْرِير التعامل بِـ «انْتِقَائِيَة» (éclectisme) مع مبادئ، أو قَواعد الماركسية. بَيْنَمَا رفض «الدُوغمائية» لا يُبرّر عدم الالتزام بِالمبادئ العِلمية الدَّقِيقَة الواردة في النظرية الماركسية. فهم يُريدون أن يأخذوا من «الماركسية» ما يُعجبهم، وأن يَرْفُضُوا مَا لَا يُعجبهم منها. وما يرفضونه في «الماركسية» هو أكبر بكثير مِمَّا يَقْبَلُونه منها. وكمثال على ذلك، لا يُعقل أن نرفض التَقَيّد بِمبدأ «الصِرَاع الطَبَقِي»، وأن نُعوّضه بِنظرية «الواقعية»، أو «البْرَاغْمَاتِيَة» (pragmatisme)، أو بِمَقُولَة «التعايش السِّلْمِي فيما بين الطبقات المُتناقضة». أو أن نَرفض

(91) دَافع سعيد السعدي عن هذه الفكرة أثناء الندوة المنظمة لِتَكْرِيم المناضل أستاذ الاقتصاد سمير أمين، في 15 نونبر 2018، بكلية العلوم القانونية والاقتصادية والاجتماعية بالرباط، المغرب.

مَبْدأ «دِكْتَاتُورِيَة البْرُولِيتَارْيَا»، وأن نُعوّضه بِـ «ديكتاتورية البرجوازية». أو أن نَرفض مبدأ «إمكانية تحوّل الشيء إلى نَقِيضِه»، وأن نُعوّضه بنظرية «الدَيْمُومَة»، أو «الأَبَدِيَة»، إلى آخره. وَلِكَي يُبرّروا «اِنْتِقَائِيَتَهم» الفكرية، يقولون: «الماركسية ليست دِين»، و «ماركس ليس نَبيّا». وهذا صحيح. لكنهم لا يقولون بِنَفس المَنْهَج عن الفيزياء، أو الرياضيات، أو الكِيميّاء، أو الطِبّ، «أنها ليست دِين، فَاتْرُكُونَا نَتَعَامَل بِحرّية، وبِانتقائية، مع هذه العُلوم». وفي الواقع، لَا تَهُمُّهُم «الدُوغمائية»، بَل هم يُعادون «الماركسية»، وهَمُّهم الأساسي هو الانتهازية، أي مصالحهم الشخصية.

14) مَن يَقْدِرُ على تَطْوِير الماركسية؟

يميل بعض "الماركسيين" (غير العَالِمِين) إلى ***تَقْدِيس*** الماركسية، أو إلى التعامل معها بطريقة ***"دُوغْمَائِيَة"*** (dogmatique). لكن الماركسية هي نفسها تَنْبُذُ ***"الدُّوغْمَائِيَة"***.

وقد تحوّل بعض المناضلين الماركسيين إلى ***«دُغْمَائِيِّين»***، لأنهم اعتقدوا أن ***الوفاء*** للمبادئ الماركسية الثورية، يقتضي بالضّرورة عدم تغيير الأفكار، أو التصوّرات الماركسية. بينما مِيزَة عدم تغيير الأفكار هي من مِيزَات الشخص الأحمق. حيث يبقى الأحمق يعيش في لحظة مَاضِيَة ومَفْصَلِيَة من حياته، ولا يقدر على تجاوز الأفكار أو الأحاسيس المتعلّقة بتلك اللحظة الماضية. ويُفترضُ في ***المناضل الثوري أنه يلتزم بأن يجتهد، وأن يتطوّر، بشكل متواصل، في أفكاره، وتصوّراته، وممارســـاته، بهدف التَكَيُّف مع حَرَكِيَة*** (*dynamique*) ***الواقع المُجتمعي ومُتطلّباته***. فيُغيّر أفكاره، دون أن يتخلّى بالضرورة عن "التوجّه العام" الثوري. مع العلم أن حتى "التوجّه العام" ينبغي أن يبقى خاضعًا للمُراجعة، وللمناقشة، وللعقل.

أكيد أننا نحتاج اليوم إلى تطوير النظرية الماركسية. ولكن ***ما هي «الماركسية»؟*** يظن البعض أن «الماركسية» هي تَرَاكُم مُصْطَنع من الأفكار الدّعَائِيَة، أو الوَصَفَات الجاهزة، لِإثَارَة تَمَرُّد ثوري عَنيف، وخَلق الفَوْضَى. وهذا تصوّر خاطئ. ***فَـ«الماركسية»، في جوهرها، هي نَقْد الرأسمالية، ونقد المُجتمع الرأسمالي، بهدف المُساهمة في تحرير***

البشرية من الاِسْتِلَاب، ومن الاستغلال، ومن الاستبداد. وعليه، فتطوير «الماركسية» هو مُراجَعَة، وتَعْميق، وتَحْيين، نقْد الرأسمالية. والنقد الثوري، لَا يقف عند وَصْف المَظَالم، أو النقَائِص، أو الأخطاء، وإنما يَتَجَرَّأُ أيضًا على اقتراح الحُلول العَقْلَانِيَة والثورية المُلائمة. وهذه الحلول المُقترحة، تكون بالضرورة مُرتبطة بزمان ومكان ظُهُورِهَا. ويستحيل أن تكون هذه الحلول المُقترحة صالحة لكل زمان ومكان.

ومن هو الشخص الذي يقدر على تطوير النظرية الماركسية؟ هل يقدر على ذلك المناضل المأجُور (salarié)، الذي يشتَغِل خلال ثمانية ساعات في كل يوم، في مؤسّسة مِهَنِيَة مُعَيَّنَة، مُقَابِل أُجْرَة. وخلال الوقت اليومي المُتَبَقّي، ينشغل هذا المناضل بشؤون عائلته، أو يجري، خلال نهاية الأسبوع، بين مَقَرَّات الحزب ومقرَّات النقابة، ولا يجد حتى الوقت الكافي لقراءة كتاب، أو مجلّة؟ مثل هذا الشخص لا يقدر حتى على الاطلاع على الثقافة القائمة في مجتمعه، فبالأحرى أن يقدر على نقدها، أو أن يقدر على تطوير النظرية الماركسية.

ونرى حاليًّا كثيرًا من أفراد قِيَادات أحزاب اليسار، الذين يَصِفُون أنفسهم بكونهم «مَاركسيّين»، و«اشتراكيين»، نَرَاهم يتحمّلون في نفس الوقت مسؤوليات مِهَنِيَة مُعْتَبَرَة، ويتظاهرون بأنهم يَسْهَرُون على تَدْبِير الحزب، ويزعمون أنهم يُساهمون في تطوير النظرية الماركسية، أو الاشتراكية، بينما هم لا يقدرون حتّى على تخصيص وقت كَافٍ للإِطِّلَاع على التُراث الثقَافِي للبَشَرِيَة، بهدف تَثقِيف أنفسهم.

والمناضلون الذين ينتظرون حتّى يحصلوا على تقَاعُدِهِم المِهَنِي لكي يمنحُوا للنضال النصيبَ الذي يستحقُّه من وقتهم، يُصبحون «مُسْتَهْلَكِين»، ومُنْهَكِين، وغير مُؤَهَّلِين لِلْقِيَّام بِمُهِمَّة تطوير الماركسية. لأن مُهِمَّة تطوير الماركسية لَا تقبل بأن تكون ثَانَوِيَة بالمقارنة مع

مَهَام مِهَنِيَة أخرى. ولأن مُهِمَّة تطوير الماركسية هي مُهِمَّة عِلْمِيَة، دَقِيقة، ومُتْعِبَة، وطويلة الأمد. وتَتَطَلَّبُ من الشخص (الرَّاغِبِ في تطوير الماركسية) وقته كاملًا. ويحتاج هذا الشخص إلى استيعاب مُعْظَم التُراث الثقافي البشري. فينبغي على من يطمح للمُساهمة في تطوير الماركسية أن يكون مناضلًا، ومُحْتَرِفًا ثَوريا، وأن يُخصِّص معظم وقته لقضايا المعرفة، والعلوم، والنضال.

ونُلاحظ أن كل المُفَكِّرين الذي ساهموا حَقًّا في إغناء الماركسية (مثل كَارْلْ مَارْكَسْ، وَافْرِيدْرِيشْ إِنْجَلْسْ، وفْلَادِيمِير لِينِين، ومَاوُو زِي دُونْغْ، إلى آخره) كانوا كُلُّهُم يَحْرُصُون دائمًا على توسيع تكوينهم العِلْمِي، لِكي يَشْمَلَ كل عُلُوم عَصْرِهم. وكانوا، في نفس الوقت، فَلَاسِفَة نَابِغِين، وعُلَمَاء مُقْتَدِرِين، ومُتحرّرِين من أي عمل مأجُور، ومستقِلّين في مواقفهم، وفي أَحْكَامِهم. ***ولا يقدر أيَّ شخص على تطوير الماركسية إِلَّا إذا كان، في نفس الوقت، فيلسوفًا مُمتازًا، وعَالما مُحَنَّكًا، في الاقتصاد السياسي، وفي عِلْمِ المُجتمع، وفي علم التاريخ، وفي علم السياسة.*** والاستيعاب الشُمُولِي والنقْدِي لمُجمل هذه العلوم، هو بالضَّبْط الذي يُسَاعِد على اكتساب رُؤْيَة ماركسية ثورية للعالم. ويُفْتَرَضُ في الشخص المُرَشَّح لهذه المهمة أن يُكَرِّسَ حياته كلّها لهذا العمل، منذ شبابه، وبدون مقابل مادي. ويلزم أن يكون هذا الشخص مُتَحَرِّرًا من أيّ عمل مأجُور، ومن الخُضوع لأيّة سُلطة، لكي يعمل بِحُرِّيَة. ويَنْبَغِي أن تَكون أكبر وأحسن مكتبات العالم في مُتَنَاوَلِه. [ويمكن للأجيال الحديثة، بفضل تقنيات الأنترنيت (Internet)، أن تصل بسهولة أكبر مِمَّا كان مُتاحًا لِجِيلنا، إلى المُعْطَيات، وإلى المَعَارف العِلْمِيَة الضرورية]. ويلزم هذا الشخص المعني أن يَتَتَبَّعَ بِعِنَايَة فائقة كل الحركات الجماهيرية النضالية أو الاحتجاجية، سواءً في بلاده، أم في باقي بِقَاع العَالَم. ويُفْتَرَضُ في هذا الشخص المُرَشَّح

(لِتَطْوِير الماركسية)، أن يكون مثل أَوْلَئِكَ الأطفال النَابِغِين، الذين يتعلّمون إتقان عَزْف مُوسِيقَى بِيتْهُوفَن، أو مُوزَارْ، على الكَمَان، أو على البِيَانُو، منذ سِنّ مُبْكِر. مثل هذا النُبُوغ يدخُل ضمنَ تَحَدّيات الماركسية. وتلك هي إكراهاته العِلْمِيَّة. فَمَنْ يقدر على رَفْع هذا التحدّي؟

عندما يكون مناضل جاهلًا، وعندما يكون هذا المناضل مُجرّد جندي قَاعِدِي، يمكن أن نَتحمّل (مُؤَقَّتًا فقط) جَهْلَهُ. ولكن إذا أصبح هذا المناضل الجاهل من بين المسؤولين الرئيسيّين في الحزب (مثلما حدث مع اسْطَالِينْ)، فإن جهله سَيَتَسَبَّبُ للحزب، وللمُجتمع، في انحرافات، وربّما في كوارث، باهظة التَكْلُفَة. لماذا ؟ لأن النِضَال هو محاولة لِتَغْيِير المُجتمع. ولأن ***تغيير المجتمع لا يَنْجَحُ إلَّا بالعِلْم***. ومن لا يتسلّح بمعرفة عِلْمِيَة شُمُولِيَة، ومُتَجَدّدَة، ونَاقِدَة، لا يقدر على التأثير في تطوّر مُجتمعه. لِذا نقول، ونُكَرّر، لِكل حزب اشتراكي، أو ثوري، أو شيوعي، أو يساري: لَا تعتمدوا على التَّكوين التِلْقَائِي (spontané) للمناضلين، بل يجب عليكم أن تُنظّمُوا أَوْرَاشـــــــاً، أو مَدَارِسَ، أو جامعات مفتوحة، تكون دَوْرِيَة، ومُتَوَاصِلَة، ومُتَوَازِيَة، وأن تَسْتَدْعُوا أحسن المُحاضِرين، أو المُفكّرين، أو العُلَمَاء، بِهدف تنظيم تَعْمِيم تكوين أعضاء الحزب، في جميع الميادين التي يحتاجها النضال، بما فيها الفلسفة، والمنطق، والاقتصاد السياسي، وتاريخ الثورات، والعلوم الدقيقة، وفلسفة القانون، والتكنولوجيات، والبيئة، وتقْنِيَات القَمْع وتَاكْتِيكَاتِه، وأشكال التنظيمات الجماهيرية، وأساليب النضال الجَمَاهِيرِي المُشْتَرَك، إلى آخره.

وتخضع «الماركسية» لِلنِّسْبِيَة. ومن وجهة نظر الشخص الرأسمالي، يعتبر أن من حقّه أن يَتَمَلَّك، وأن يَسْتَغِلَّ، وأن يَحْتَكِر، وأن يَسُود، وأن يَغْتَنِيَ، وَبِلَا حُدُود. ومن وجهة نظر العَامِل المَأْجُور، أو

البْرُولِيتَارِي المُعْدَم، يَعتبر أن تَمَلُّك وَسَائِل الإِنْتَاج هو سَرِقَة مُمَوَّهَة، أو استغلال قَسْرِي، وأن استحواذ المُشَغِّل الرأسمالي على مُجمل فائض القيمة هو ظُلْم. ويرى أن ما هو ناقص لدى الكادحين، هو بالضبط ما هو فَائِض لدى الرأسماليين. وتختار الماركسية عن وعي الاِنْحِيَازَ إلى صَفِّ الكادحين.

15) أَلَمْ يتَّضِحْ بعدَ أن الاستمرار في الرأسمالية هو انتحار جماعي بَطِيء؟

منذ نهاية "الحرب العالمية الثانية" (في سنة 1945) إلى اليوم في عام 2018، نُلَاحظ ظاهرة تتكرّر في كثير من البلدان. وهي أن مُجمل الأحزاب السياسية التي فازت في الانتخابات الرئاسية، أو البرلمانية، في الدول الرأسمالية الغربية، كانت قد ***فازت على أساس وَعْد بتَحْسِين الرأسمالية.*** وفي الانتخابات اَللَّاحِقَة (أي بَعْدَ أَجَل انتخابي، أو إِثْنَيْن)، يَرْفُضُ الناخِبُون هذه الأحزاب السياسية السَّابقة، ويُصوّتون لصالح مُنَافِسِيها، لأن هذه الأحزاب السّابقة ***فَشِلت في تحسين الرأسمالية.*** وعند كل أَجَل انتخابي، يُلَاحظ الناخبون من جديد، أن المشاكل الرئيسية في الرأسمالية (مثل البطالة، والتفْقِير، وتَدَهْوُر أوضاع المَأْجُورِين، وتَعَمُّق الفوارق الطَبَقِيَة، والظُّلْم الضَرِيبِي، والتَلَوُّث، وتدمير الطبيعة، وهَشَاشَة السِّلْم في العالم، إلى آخره)، مَا تزال قائمة، بل تَتفَاقَم من فترة إلى أخرى. ***وتِكْرَار هذا الفَشَل في محاولات تحسين الرأسمالية،*** هو الذي يقودنا اليوم إلى الاستنتاج التَالِي: إن ***الرأسمالية وَصَلَت إلى ذرْوَة إمكاناتها، وأنها غير قَابِلَة لِلتَّحْسِين، أو للإصلاح. بل إصلاح أوضاع البشرية (وَطَنِيًّا وعَالَمِيًّا) يقتضي تجاوز الرأسمالية هي نفسها.***

وَنُلاحظ منذ قرابة سنوات 2000، أن مجموعات مُتَوَالية من العُلماء أَخَذَت تَنْشُرُ بَيَانَات جماعية تَحْذِيرِيَة، تُنَبِّه فيها السياسيين،

والمواطنين، إلى أننا، نحن البشر، نُدَمِّر أو نُبِيدُ أَصْنَاف الحياة بسرعة كبيرة، وبدون إمكانية العودة إلى الأوضاع القديمة. ويُهَدِّد تَسَارُعُ هذا التَّدْمِير استمراريةَ حياة البشرية هي نفسها. حيث أدّى ***نَمَطُ عَيْشِ البشر الرأسمالي*** إلى اسْتِئْصَال وإبَادَة قرابة 60 % من الثَدْيِيَات والطُّيُور والأسماك والزَوَاحِف، خلال الـ 50 عامًا الماضية فقط. ويُدَمِّرُ البشر بِشكل أعمى نُظُمًا بِيئِيَّةً مُتَرَابِطَة. ويَتَّجِهُ هذا التَدْمِير مباشرة إلى نقَاط اللَّاعَوْدَة (points de non-retour). وَتَدْمِير هذه التوازنات الهَشَّة لكوكب الأرض، سَيَجعل حياة البشر فوقه مُتَعذِّرَة، ثم غير مُمكنة. ومجمل الدول الرأسمالية، و«المُؤَسَّسَات العالمية»، تعجز على التعامل بِجِدِّيَة مع هذه التَحْذِيرَات التي نَشَرَها العُلَمَاء. وبمنطق جَشَع الرِّبْح، تُؤَثِّر مثلًا أعداد هامّة من شركات صناعة الأدوية على الأطباء، وتحثهم على كتابة وصفات أدوية، ولو أن هذه الأدوية لَا تُدَاوِي شيءً. ولكي تستمر شركات صناعات كيماوية في جَنْيِ أرباح مُثْمِرَة، مثل شركة "مُونْسَانْتُو" الأمريكية، تُروج مواد مثل "مُبِيدَات الأعشاب" (glyphosate)، رغم أن هذه المواد تتسبّب في السرطان، وفي أمراض أخرى. بل تلجأ هذه الشركات إلى شراء ضَمَائِر بعض الحُكَّام أو السياسيين لكي لَا يمنعوا استعمال هذه المواد. أو تقوم هذه الشركات بِإرشاء بعض العلماء منعدمي الضمير، لكي ينشروا تقارير علمية مزوّرة تزعم أن "مبيدات الأعشاب" لَا تتسبّب في أيّ مرض، أو لكي يُكذِّبُوا علماء آخرين عكس ذلك[92]. وكون مُعظم شُعوب العالم غَارِقَة في الجهل، والفقر، والخُضُوع، والاِسْتِلَاب (aliénation)، يجعلها عاجزة عن إدراك خطورة مجمل هذه التطوّرات الرأسمالية، وعاجزة على الانتفاض ضِدَّهَا. ومعنى ذلك، هو أن ***الاستمرار في نمط الإنتاج***

(92) Emission de télévision "Complément d'enquête" sur le canal "France 2", le 15/02/2019, sur l'interdiction avortée du Glyphosate en France.

الرأسمالي المُعَوْلَم (*mondialisé*) ***يتحوّل بشكل مُتَسَارِع إلى انتحار جماعي بَطِيء لِمُجْمَل البشرية، الساكنة فوق كوكب الأرض.***

وجزء هام وَمُتَنَام من البشرية، يريد اليوم التَحَرُّر من النَتَائِج الكَارِثِيَة لِلرأسمالية. لكن البشرية لا تعرف بديلًا آخر عن الرأسمالية غَيْرَ الاشتراكية.

وفي سنوات 1970، كُنَّا في "تنظيمات الحركات المَارْكِسية اللِّينِينِيَة" بالمغرب، نعتقد أن موضوع "الاشتراكية" (ولو نظريًا) غير مطروح ضِمْن ***جدول مهام الوضع الرّاهن.*** لأننا كُنَّا نظن أنه لا يحق الكلام عن "الاشتراكية" في مُجتمع مُحدَّد، إلَّا إذا بلغ نُمُوُّه الرأسمالي مُسْتَوًى مُتقَدِّمًا. وكُنَّا نقول: «إن شروط بناء الاشتراكية لم تنضج بعد بما فيه الكفاية بالمغرب». أمَّا اليوم، فَأعتقد أنه يجب دراسة موضوع "الاشتراكية"، واكتساب قدر كبير، ومُرْضٍ، من الوضوح حولها. وَلَوْ أن مُجتمعنَا لم يَبْلُغ (أو بالتَّدْقِيق، لَا يقدر على بُلُوغ) مُسْتَوًى متقدّمًا من النُمُوّ الرأسمالي. وذلك لِعِدَّة اعتبارات جديدة، أبرزها ما يلي: 1) يفرض جِدَالنا وصِرَاعنا مع أنصار الرأسمالية أن يتوفَّر لدينا تصوّر متقدّم حول نمط الإنتاج البديل، أي حول مضمون الاشتراكية، وحول طُرق بنائها، وحول مُبَرِّرَاتها. 2) ***في مُعظم مناطق العالم، يحدث اليوم تَسَارُع في انْدِلَاع كَوَارِث تُؤَدي إليها الرأسمالية المُعَوْلَمَة*** (في مجالات: تخريب البِيئَة، والانقراض المُتَسَارِع للأنواع النَبَاتِيَة والحَيَوَانِيَة، وانتشار البطالة البِنْيَوِيَة والدَّائِمَة، وتعميق الفوارق الطبقية، وانتشار الفقر المُدْقِع، وتعميم الجَهْل، وتنامي الحركات اليَمِينِيَة المُتَطَرِّفَة، وتَجَدُّد حُرُوب بالوَكَالَة، تُدَمِّرُ كلّ شيء، إلى آخره)، ***الشيء الذي يَفْرِضُ علينا، منذ الآن، أن نأخذ في الحُسْبَان، احتمال حُدُوث ثورات ضد الرأسمالية قبل الآجَال التي كُنَّا نَتَخَيَّلُهَا من قَبْل. وأن إنقاذ البشرية من هذا "الانتحار الرأسمالي الجماعي البَطِيء"، سَيَفْرِض،***

في العديد من بلدان العالم، تَسْرِيعًا نِسبيًا في صَيْرُورَة التَحَرُّر من الرأسمالية. وسَيُعَجّل بالحاجة إلى الشُرُوع في بناء الاشتراكية، أو إلى استعمال مَزِيجٍ من الرأسمالية والاشتراكية، قبل التَوَارِيخ التي كُنَّا نتصوّرها سَابِقًا.

لِذَا نحتاج اليوم إلى اكتساب أكبر وضوح ممكن حول تصوّرنا ***لمشروع المجتمع البديل*** الذي نطمح إليه (هل هو الرأسمالية؟ أم هو مزيج من الرأسمالية والاشتراكية؟ أم صنف جديد من الاشتراكية؟). ويشمل هذا المشروع المجتمعي مهمة تَعْوِيض "الرأسمالية" بشيء آخر، ولو أننا لَا ندرك اليوم جَيّدًا كلّ تفَاصِيل هذا الشَّيء البديل، الذي نُسميه «الاشتراكية»، أو «الاشتراكية الانتقالية».

ومن ضِمن ***العوامل الجديدة*** التي تَجعل الدِّفَاع عن الاشتراكية أكثر صعوبةً مِمَّا كان في الماضي، أن ***الدول العربية النفطية*** (السعودية، وقطر، والإمارات، إلى آخره) تَخْلُقُ، وتُدَعِّم، سلسلة مُتَجَدِّدة من "***الحركات والميليشْيَات الإسلامية الأصولية***"؛ وأن مُجمل هذه الحركات هي مُحَافظة، أو رِجعية، أو عنيفة، أو مُمْتَثِلَة للعادات، أو مُتعاوِنَة مع الإمبرياليَّات الغربية؛ وأن هذه الحركات الإسلامية تَرْكَب على جهل غالبية الشعب وتستغلُّه؛ وأنها لَا تتوفّر على مشروع مُجتمعي وَاعٍ أو عَـقْلَاني؛ وأن البرنامج الوحيد لدى هذه "الحركات الإسلامية" هو ***الرأسمالية المتوحّشَة*** (رغم كلّ ما إِتَّضَح فيها من فظاعات مُجتمعية وبيئية). وَتَنْحُو هذه "الحركات الإسلامية الأصولية" بسهولة مُذْهِلَة نحو التَسَلُّح، والعُنف، ***والحرب الأهلية*** التي تُخرّب كل شيء، وَبِسُرْعَة فَائِقَة.

وقد عَلَّمَتْنَا تجارب التاريخ الحديث، أن مجمل القوى الإمبريالية في العالم سيتحالفون ضِدَّنَا، وضِدَّ كُل من هو اشتراكي مثلنا، وسَيَخُوضُون حربا شاملة ضِدَّنَا، بهدف منعنا من اِتِّبَاع طريق بناء

الاشتراكية داخل بلادنا. ونحن نُدْرِكُ أن كلّ الأفراد، والجماعات، والمؤسّسات، الذين يستفيدون من نَمَط الانتاج الرأسمالي، سَيَتَوَاطَؤُون فيما بينهم، وسيقولون لنا: «لا يمكن أن ينجح سوى النظام الرأسمالي وحده. وإن الاشتراكية هي وهم مستحيل التحقيق»! مثلما كان مَلَّاك العَبِيد يقولون: «إن العُبودية (esclavagisme) هي النظام الوحيد المعقول»! ومثلما كان الإِقْطَاعِيُّون يقولون: «إن التخلي عن الاقطاعية (féodalité) هو مَعْصِيَة لِلْإِلَه، وسيؤدي إلى الفوضى والخراب التَّام»!

ويَهْجُمُ كثير من أنصار الرأسمالية على الماركسية، وعلى الاشتراكية، وعلى برنامجها، وعلى طُمُوحَاتها المُجْتَمَعِيَة. ويَنْسَون أن الرأسمالية، لَا تتوفّر حتّى على نظرية مُدَقَّقَة، وواضحة، وصريحة، فبالأحرى أن تقدر الرأسمالية على مُقَارَعَة الماركسية بِحُجَج عَقْلَانية، أو عِلْمِيَة. بل الكثير من الأطروحات المُؤَسِّسَة للرأسمالية هي إمَّا خاطئة، وإمَّا كاذبة، وإمَّا ظَالِمَة. ومنها مثلًا الأطروحات الزَّائفة التي تقُول: إن «الرأسمالية تُوَفِّر وتَضْمَن حُرِّيَة المُبَادَرَة الاقتصادية»، أو إن «السُّوق هي التي تُحدِّد الأثمان»، أو إن «السوق تضمن تِلْقَائِيًّا حُرِّيَة وَنَزَاهَة المُنافسة»، أو إن «الرأسمالية تُغْنِي جميع الطبقات، وتقَلِّصُ الفوارق الطبقية»، إلى آخره)!

ومثلًا في مجال النقطة الأخيرة (المتعلّقة بِزَعْمِ تقْلِيص الفوارق الطبقية)، اِسْتَعْمَلَ مُؤَخَّرًا الاقتصادي طُومَاسْ بِيكُوتِي (Thomas Piketty)، في كتابه الحديث، الصادر في سنة 2013، تحت عنوان «الرأسمال في القرن 21»، اِستعمل الإحصائيّات الرّسمية (في الولايات المتّحدة الأمريكية، وفي أوروبّا الغربية)، وبَيَّنَ أنه يُمكن للفوارق في الثَرَوَات أن تتقلص، خلال فترات تاريخية محدّدة (مثلًا أثناء فترة «الحرب العالمية الثانية»، ثم خلال فترة «الحرب الباردة»، تحت ضغط

وتأثير المنافسة فيما بين المُعَسْكَرَين الاشتراكي والرأسمالي). لكن هذه الفوارق الطبقية سُرْعَان مَا عَادت إلى مُستواها القديم، منذ سنوات 2000 تقريبًا (بعدما توقّفت تلك المنافسة). ***وتؤدّي طبيعة الدّينَامِيَة التي تُحرّك الرأسمالية إلى تفَاقُم أو تَعْمِيق الفَوَارِق في المداخيل، وفي الثروات، وفي الأجور، وفي التعليم، وفي الثقافة، وفي المعارف، وفي العلاج الطبي، وفي حُظُوظ مُدَّة العيش، إلى آخره.*** الشيء الذي يُكَذّبُ الأطروحة التي تزعمُ أن الرأسمالية تتطوّر من حسن إلى أحسن، وأنها تقَلّصُ الفوارق بين الطبقات، وأنها تُغني جميع الطبقات.

ومنذ عُقُود، تَزْعُم أجْيَال مُتَوَالِيَة من السياسيين والاقتصاديين الرأسماليين، أن «مظاهر الفقر، والجهل، والتخلّف، والفساد، والاستبداد، الموجودة في "بلدان العالم الثالث"، هي مُجَرَّد مَظاهر عَابِرَة، أو مؤقّتة». ويدَّعِي أولَئك السياسيين الرأسماليين (وكذلك المؤسّسات البنكية العالمية المُقْرِضَة) أنه «إذا طَبَّقَت "بلدان العالم الثالث" قَوَاعِدَ الرأسمالية بِدِقّة، سَتَلْتَحِقُ في مُستقبل قريب، بِمُسْتَوَى تقَدُّمِ البلدان الغربية الأكثر تقَدُّمًا في العالم»! وهذه كذبة مُخَادِعَة، ومستحيلة الإنجاز. وقد سبق لِعُلَمَاء مرموقين في علم الاقتصاد السياسي، ومن ضمنهم الاقتصادي ***سـمِير أَمِين***، أن طَرَحُوا أن «تقدّم البلدان الغربية، وتخلّف بلدان العالم الثالث، هُمَا وَجْهَان لظاهرة واحدة. ويستحيل تغيير الجانب الثاني دون تغيير الجانب الأول». لأن المسألة هي مسألة بِنْيَوِيَة، في إطار تَبَادُل غير مُتَكَافِئ، وفي شبكة من الأنظمة الرأسمالية المُتَرَابِطة، والمُعَوْلَمَة.

ويَزْعُمُ بعض الرأسماليين النّيُولِيبِيرَالِيّين (néolibéraux)، أن «النظام الرأسمالي يصلح لِكُلّ زمان، ولكلّ مكان، وأنه هو قَدَرُ البشرية الحَتْمِي، والنِهَائِي، والأَبَدِي». ويَدَّعُون أن «أَيَّ بلد في العالم، إذا اِتَّبَعَ

قواعد الرأسمالية (التي تُرَوِّجُها مُؤَسَّسات "البنك العالمي"، و"صندوق النقد الدُّوَلِي"، و"المنظّمة العالمية للتِّجارة"، إلى آخره)، فإنه سَيَلْتَحِقُ بمستوى تقدم البلدان الأكثر تقدُّمًا في العَالَم»! وعلى خلاف هذه الأطروحات الْلَّاتَارِيخِيَة، والْلَّاجَدَلِيَة، نُلاحظ، خلال الفترة المُمْتَدَّة من نهاية «الحرب العالمية الثانية» إلى اليوم (في سنة 2018)، أن ***بلدان العالم الوحيدة التي استطاعت الخُرُوج من التخلّف*** المجتمعي الشامل صِنفَان: ***الصّنف الأول*** هو البلدان التي خاضت ***ثورة وطنية تَحَرُّرِيَة ديموقراطية***، تحت قيادة أحزاب شِيُوعية، أو اشتراكية، وطبّقت مناهج تَنْمَوِيَة اشْتِرَاكية، أو مناهج "رأسمالية دَوْلَة وَطَنِيَة شَعْبِيَة" (مثلما حدث في ***رُوسْيَا، والصّين، وفِيتْنَام، وكُوبَا، وكُورْيَا الشمالية، وبدرجة أقل الهِنْد***، إلى آخره)؛ ***والصّنف الثاني*** هو بلدان حَظِيَتْ بِدَعْم شَامِل، واستثنائي، من طرف المراكز الإمبريالية، وذلك في إطار الاستراتيجية العالمية التي تخوضها هذه المراكز الإمبريالية، لِمُحَاصَرَة، ومُحَارَبَة، كُلّ الأنظمة الشيوعية، أو الاشتراكية. ومنها مثلا: ***كُورِيَا الجنوبية، وتَايْوَان، وَسَنْغَافُورَا، [وإسرائيل]***، إلى آخره. ولو لم تُدَعِّم الإمبرياليات هذه البلدان المذكورة لَمَا وَصَلَت إلى ما هي عليه من التنمية الاقتصادية. ***والبَلَدَان الوَحِيدَان في العالم*** اللَّذَان يَقْدِرَان اليومَ على مُعارضة، أو مُقاومة، أو منافسة، المراكز الإمبريالية، هما ***الصّين وروسيا***، اللذين قَادَهُمَا حزبان شيوعيان، خلال قُرابة سَبْعِينَ عامًا، وأَخْرَجَاهُمَا من تخلّف مُجتمعي قُورُونْ وُسْطَوِي (moyenâgeux).

والمُفَارَقَة (paradoxe) العجيبة، هي أن ***خطاب الرأسمالية عن نفسها هو، في معظم الحالات، مُخَالِف، أو مُنَاقِض، لواقع هذه الرأسمالية***. ويتكلّم مثلًا بعض الرأسماليين، في إطار رأسمالية مُعَوْلَمَة، عن «التَنْمِيَة المُسْتَدَامَة». وفي الواقع، فإن هذه ***«الاستدامة» المزعومة، مستحيلة***، لأن المَوَارِد الطبيعية الموجودة على سطح

كوكب الأرض محدودة، وحاجيات البشر "الرأسمالية" تَتَزايَد باستمرار. وأكّد بعض العلماء أنه، في حالة افتراض أن جميع بلدان العالم سَتَعِيش بنفس النَمَط الرأسمالي القائم في البلدان الأكثر تقدّمًا، وبنفس المُستوى في الاستهلاك الرأسمالي، فإن البشرية ستحتاج إلى المواد الخَام الموجودة في ثَلاثة كواكب من صنف كوكب الأرض!

وأصبحت أغلبية عُلماء العالم يَتفِقُون على أن نمط الإنتاج الرأسمالي، ونمط الاستهلاك الرأسمالي، (بما فيه الإفْرَاطُ، منذ أكثر من قرن، في استعمال الهِيدْرُوكَارْبُونَات [hydrocarbures])، أَدَّيَا إلى ظاهرة ***"الاحتباس الحراري"*** (*réchauffement climatique*)، وأن ارتفاع مُعَدَّل درجة الحرارة على كوكب الأرض بِـ 2 أو 3 درجات سِيلْسْيُوسْ (Celsius)، في قرابة نهاية القرن 21، سَيُؤَدّي إلى ذَوَبَان الجَلِيد (glaces)، وإلى ذَوَبَان "الأراضي الدَّائِمَة التَجَمُّد" (permafrost). وَسَيُحْدِثُ كَوَارِثَ طبيعية مُتنوّعة، وغير مَسْبُوقَة. وأن البشرية تعجز على مُقَاوَمَة هذه الكَوَارِث. وأن نُكْرَان هذه الأطروحات العِلْمِيَة، من طرف بعض السِيَاسِيّين الجُهَّال، المُنْتَمِين للحركات الإسلامية الأصولية، أو لِلْيَمِين المُتطرّف الجديد، مثل الرئيس الأمريكي دُونَالْدْ تْرَامْبْ، سَيُعَرّضُ البشرية لِكَوَارِث قَاتِلَة. وأَدَّى نمط الإنتاج الرأسمالي المُعَمَّم، إلى كَوَارِثَ أخرى، منها تَعْمِيم استعمال مُبِيدَات الحَشَرَات في الفلاحة، واستخدام مَوَادَّ كِيمَاوية أخرى، تُحْدِثُ اضطرابات في الغُدَد الصَّمَاء (perturbateurs endocriniens)، وتَتَسَبَّب في تَضَاعُف حالات السَّرَطَان، وفي إفْقَار الأراضي الفلاحية، وفي تَعْمِيمِ إزَالة الغابات، وتَلْوِيت الهواء في المدن، وتَلْوِيث الأراضي، والأنهار، والمحيطات، بمواد كيماوية مُتعدّدة، ومُضِرَّة. ويستحيل التَخَلُّص من هذه المواد المُلَوّثَة، لَا بسرعة، ولَا بشكل كامل.

وفد ساقتنا الرأسمالية إلى إِقَامَة تَوَازُنَات الرُّعْب العالمية، وإلى صُنْع، ومُرَاكَمة، وتخزين، تَرْسَانَات هَائلة من أسلحة الدَّمَار الشَّامل، النَوَوِيَة، والهِدْرُوجِينِيَة، والكيماوية، والبيولوجية. وتكفي هذه الأسلحة المُرَاكَمَة إلى إبادة البشرية كلّها عدة مرات. ولكي تُصْبِح هذه المغامرة الحمقاء مُحتملة، يكفي أن يَصِلَ، في نفس الوقت، إلى مسؤوليات الرِّئَاسَة في بضعة بلدان غربية، أشخاص جُهَّال، ويمينيون متطرّفون، أمثال الرئيس الأمريكي الحالي دُونَالْد اتْرَامْبْ. هكذا سَتُصْبِحُ المُقَامَرَة بالسِّلم العالمي ممكنة، وسَتَغْدُو المُغَامَرَة بتجريب حرب شاملة جديدة، واردة جدًّا بين الدول القوية. ومن الممكن أن تكون هذه الحرب كافية لإبادة معظم البشرية أو كلها. وما دَامَت الرأسمالية موجودة، فإن هذا الاحتمال سيبقى وَارِدًا.

وَلِكُلّ هذه الاعتبارات، نُؤَكِّد أن ***استمرار البشرية في نَمَط الانتاج الرأسمالي، وفي نمط الاستهلاك الرأسمالي، هو انتحار جماعي بَطِيء***. ويمكن لهذا الانتحار الجماعي البَطِيء أن يتحوّل إلى إبادة شاملة وسريعة، لِجُزْء هَامّ مِن البشرية، بفعل أسلحة الدَّمَار المُرَاكَمَة والمخزُونَة. ومجمل البشرية تحتاج اليوم، وبسرعة، إلى تحصيل أكبر وضوح ممكن، حول نمط الإنتاج البديل، الذي سَنُعَوِّض به نمط الإنتاج الرأسمالي، الذي لَا يقبل الخُضُوع لَا للعقل، ولَا للشعب.

-----❊❊❊◊❊❊❊-----

واليوم، توجد مُجمل ***البشرية*** في أزمة[93] لم يسبق لها مثيل. وتَدْفَعُ أكثر فأكثر ***الرأسماليةُ المُعَوْلَمَةُ*** مجمل ***البشرية*** نحو نوع من

(93) أنظر على الأنترنيت نقدا حديثا ومُهِمًّا للرأسمالية، لِيُوهَانَسْ فُوجَلْ (Johannes Vogele): (http://www.krisis.org/2000/essai-d-une-autocritique-de-la-gauche-politique-economique-et-alternative/).

الانتحار الجماعي، الذي يُمكن أن يكون بَطِيئًا، كما يمكن أن يكون فائق السُّرْعَة. ورغم الطّابع المَفْضُوح لهذا الانتحار الرأسمالي الجماعي للبشرية، يظهر كأنه غير مَشْعُور به، أو غَيْرَ وَاعٍ، من طرف معظم شعوب العالم. والطبقات السَّائدة، أو المُسْتَغِلَّة، التي تحتكر سلطات القَرَار، تُعْمِيهَا أَنَانِيَتُهَا، فَتَتَمَادى كعادتها في تغليب مصالحها الضَّيِّقَة، أو القصيرة المَدَى، على مصالح شُعُوبها، وعلى مصالح البشرية جمعاء. وإن انْحِبَاس الكثير من الحركات المناضلة الصَّادِقَة، في الحدود الضَّيِّقَة للمطالبة بقليل من الديمقراطية هُنَا، وبقليل من حقوق الإنسان هُنَاك، دون إعادة النظر في نمط الإنتاج الرأسمالي في شُمُولِيَّته، سَيكون بِمَثَابَة ***اِنْخِدَاع*** غير مسؤول، وغير مقبول. ***والماركسية*** هي من المَدارس الفكرية النادرة جِدًّا التي تنتقد الرأسمالية، وتفْضَح آلِيَّاتِهَا المُسْتَلَبَة (aliéné)، وتَحُثُّ على التحرّر منها. فهل سَتقْبَل الشعوب فَنَائَهَا، دون مقاومة، ولَا انتفاض، ولَا ثورة شَامِلَة؟ وهل سنكون، كبشر، في مستوى رفع هذه التَحَدِّيَات، قبل فَوَات الأَوَان الحَاسِم؟

16) هَل أَغْـفَلَ ماركس بعض الـقضايا ؟

ليست الماركسية نظرية مُكْتَمِلَة، أو مُطلقة، أو نهائية، وإنما هي اجتهاد عِلمِي قابل للمُراجعة، ولِلْإِغْنَاء. وقد يحتاج عرض القضايا التي اكتشفها كارل ماركس، أو درسها، أو أوضحها، إلى أكثر من كتاب ضخم. لكننا نعرف أيضا أنه تُوجد قضايا أخرى، لم يتوقّعها كارل ماركس، أو أن كارل ماركس توقّعها، لكنه لم يجد الوقت الكافي لِـدِرَاسَتِهَا، أو لَم يُحَلِّلْهَا بِقَدْرٍ كَافٍ، أو لم ينتبه بما فيه الكفاية إلى مُضاعفاتها.

وكمثال على القضايا التي لم يَتَمَعَّن فيها ماركس، أو لم ينتبه بما فيه الكفاية إلى مُضاعفاتها، أذكر بِضعة عَناصر جُزْئِيَّة: أ) إشكالية المقارنة بين المقاولات العُمُومية والمقاولات الخُصوصية؛ ب) إشكالية ضَخّ (transfert) الدولة الرأسمالية المُتواصل للثَّرَوَات من المأجورين إلى الرأسماليين الأغنياء، (ومن بُلدان الهامش المَسُودَة إلى بُلدان المَركز السَّائدة). ت) إشكالية التساؤل حول النَّوْعِيَة الجديدة للتناقضات وللصراعات الطبقية التي ستحدث بعد نجاح الثورة البروليتارية، وكيف يلزم التعامل معها.

أ) إشكالية المُقارنة بين المُقاولات العُمُومية والمقاولات الخُصوصية:

خلال مرحلة الانتقال إلى الاشتراكية، وعلى خلاف بعض الماركسيين المُتَعَجِّلين، ينبغي أن تتواجد مقاولات عمومية، ومقاولات

خصوصية. ونلاحظ وجود بعض الفُروقات الكَيْفِيَة المُتَكَرِّرة، بين المقاولات العمومية والمقاولات الخصوصية.

حيث تتميّز غالبية ***المقاولات العُمومية*** (بالمقارنة مع المقاولات الخُصوصية) بما يلي: مُيُول التَدْبِير نحو التَرَاخِي؛ ثم نحو التَدْبِير الرَّدِيء؛ وضُعف الإنتاجية؛ وتِكرار العَجْز المُحَاسَبِي؛ وانهيار الصَّرَامَة؛ وتناقُص المُحاسبة؛ وقلّة الفعالية؛ وضَآلَةُ المَردودية؛ وضُعف القوّة التَنَافُسِيَة؛ واستغلال النفوذ؛ واللُّجوء إلى قروض يصعب إرجاعها؛ والتعطّل في استيعاب التكنولوجيات الجديدة؛ وبيع المنتوجات أو الخدمات بأثمان تقلّ عن تَكْلُفَتِهَا الحقيقية؛ إلى آخره.

ويمكن عمومًا تقليص عُيوب ***المقاولات العُمومية*** عبر: الوقاية من الزَبُونِيَة (clientélisme) في تعيين الأشخاص المسؤولين عن تدبير المقاولات العمومية، وفحص خبراتهم، للتّأكُّد من أهليتهم؛ وضبط المُراقبة والمحاسبة؛ وشَنّ "ثورة ثقافية مُعَبِّئَة" داخل المقاولات العُمومية المَعنية، وكذلك في عموم البلاد، بهدف تعميم المُراقبة المُتبادلة، وضبط المُحاسبة المُتبادلة، وَتَحْفِيز التضامن، وتشجيع الإبداع.

بينما تتميّز غالبية ***المقاولات الخُصوصية*** بِخِصَال مُخَالِفَة، أو مُعَاكِسة (لِمَا ورد في التشخيص السابق). وقد تُعْزَى هذه الفُرُوقَات (بين المقاولات العُمومية والخُصوصية) إلى اعتبارات متعدِّدة، ومتنوّعة، وبعضها يتجاوز الإدارة المُدَبِّرَة للمقاولة المعنية.

لكن الوقوف عند مُسْتَوَى التَشْخِيص المذكور سابقًا من المقارنة (بين المقاولات العمومية والمقاولات الخصوصية)، سيكون نوعًا من التَحَيُّز (أو التَحَايُل). فإذا كانت عيوب المقاولات العُمومية معروفة، ومتكرّرة، فإن معظم ***المُخَالفات التي ترتكبها المُقاولات الخُصوصية*** هي من أصناف أخرى. وتبقى عُمومًا ***سِرِّيَة، أو مُمَوَّهَة، أو مَجْهُولة، أو***

مُغَالِطَة، أو غَير مُحَاسَبَة، أو غير مُعَاقَبَة. ومن أبرز هذه العُيُوب: الحِيَل، والمُخَالفات، والغِشّ، والتزوير، والنّهب، والفساد، وخرق القوانين، وانتهاك الأخلاق المِهنية، ونَهب حقوق المأجورين، والتَحَايُل على الضرائب، والخِداع في جَودة المنتوجات، واستعمال موادَّ أو أَسَالِيب تَضُرُّ بِصحّة المواطنين، أو بِسلامة البيئة، إلى آخره. وهذه العُيُوب ليست نَادِرة، أو استثنائية، بل مُرتبطة عُضْوِيًّا بطبيعة الرأسمالية.

وَوَاقِع ***المقاولات الخُصوصية،*** في معظم البلدان الرأسمالية، يُبَيِّن أنه إذا أمكنت مُراقبة أو مُحاسبة بعض ***هذه العيوب، سَنَجِدُ أنها تَتَجَدَّد، وتتكرّر، ولا يمكن القضاء عليها، لأنها بِنْيَوِيَة، بل تَنْبَعِثُ من جوهر نمط الإنتاج الرأسمالي.***

وَغَالبًا مَا تلجأ ***الدولة الرأسمالية*** المعنية إلى السُّكُوت عن هذه المُخَالفات، وإلى رفض مُحاسبتها، وذلك بحجّة «تَلَافِي دفع المُقاولات الخُصوصية نحو الإفلاس»، أو بِدَعْوَى «صِيَانَة مَناصب الشُّغل القائمة».

وقد قال البعض أن «الاشتراكية هي الانتقال من المِلْكِيَة الخاصة لوسائل الإنتاج إلى المِلْكِيَة الجماعية لوسائل الإنتاج». لكن، هل درسنا كيف يَتَعَامَل المواطنون مع "المِلْكِيَة العُمومية"؟

وفي مجال المقارنة بين الرأسمالية والاشتراكية، تَبَيَّنَ أيضًا، في مُجمل تجارب محاولة بناء الاشتراكية، أن ***"المِلْكِيَة العُمومية" تصبح، في آخر المطاف، مُهملة من طرف مُعظم المسؤولين. فلا يَهْتَمُّ المواطنون سوى بِمَا يَمْتَلِكُون. ثم تَتَعَرَّض "المُمْتَلَكَات العمومية" للإهمال، أو للنَّهب، من طرف الكثيرين. بما فيهم أطر الدولة، وأطر الحزب الحاكم.*** فَهَلْ كان التَعَامُل المُهْمِل مع "المِلْكِية العُمومية" لوسائل الإنتاج من بين العوامل التي سَاهَمَت في انهيار الاتحاد السوفياتي؟ هل خلال المراحل الأولى لبناء الاشتراكية، كان

ينبغي المَزْج بين عِدَّة أشكال من المِلْكِيَة لوسائل الإنتاج (مثلما حدث في الصّين تحت شعار: «بلد واحد، بنظامين (اشتراكي ورأسمالي)»)؟

وإذا قارنّا بين "مؤسّسة عُمومية"، و"مؤسّسة خُصوصية" (مثلاً في مجالات الخَدمات الطبية، أو التَدريس، أو الدِّراسات، أو الإنتاج، إلى آخره)، يمكن أن نلاحظ أن القطاع الخاص (الذي تكون فيه المِلْكِية خُصوصية) يستطيع في معظم الحالات أن يحصل على نتائج أحسن، أو أكبر، بالمقارنة مع القِطَاع العُمومي (الذي تكون فيه المِلكِية عمومية). لكن عندما ندرس تفاصيل حالات مُحدّدة، نجد أن ***جزءًا هامًّا من تَفَوُّق "المُؤسّسة الخُصوصية" يأتي من الغِشّ، أو من المُغالطة.***

وعلى مستوى المظاهر، لاحظ مثلًا بعض المواطنين أن ***مِصَحَّة (طبّية) خُصُوصِيَة*** (رأسمالية) مُتواضعة تستطيع خدمة وإرضاء أعداد هَامَّة من المَرْضَى، بالمقارنة مع تلك الأعداد التي تذهب إلى مُستشفى عُمومي، رغم تواضع إمكانات المِصَحَّة الخُصوصية مُقارنةً مع إمكانات المستشفى العمومي. لكن بعض الأشخاص (الذين يعرفون هذا القطاع من الدَّاخِل) يقولون: إن سِرَّ «تفوّق» المِصَحّات الخُصوصية يأتي أساسا من ***الأثمان*** التي تعمل بها هذه المِصَحَّات، والتي يتجاوز حجمها مَا بين 5 و 20 مَرَّة الأثمان المعمول بها في المُستشفيات العمومية. ودُخُول المال الوَافِر إلى المِصحّة الخُصوصية، يُمكّنها من أداء أجور مُرتفعة ومُحَفِّزة، ويُمكّنها من شراء مُعِدَّات طبية من مستوى أعلى. ولَا تُؤدّي المِصحّة الخُصوصية كُلْفَة تكوين الأطباء والممرّضِين الذين تحتاج إليهم. كما لَا تُؤَدّي المصحّة الخصوصية كُلْفَة الأبحاث العِلمية الطبية التي تَسْتَغِلّ نتائجها. وإنما القطاع العُمومي هو وحده الذي يتحمّل كلّ هذه التكاليف. فتعمل المصحّة الخُصوصية ***كَطُفَيْلِيَة*** (parasite) على حساب المستشفيات العُمومية. ولا تقدر المِصَحّة الخُصوصية على أن

تكون هي الحل، حيث لَا يَقْدِرُ على اللّجوء إلى المِصحّة الخُصوصية سوى الأغنياء أو المَيْسُورُون.

وعلى مستوى المظاهر، تَحْصُل جُل ***المدارس الخُصوصية*** (الرأسمالية) على نتائجَ (في مجال النجاح الدراسي للتلاميذ) «تفوقُ» أحيانًا ما تحصل عليه المدارس العُمومية. وقد يكون ذلك رغم قلّة الوسائل المادية، والبشرية، المُستعملة في المدارس الخصوصية، بالمقارنة مع مثيلاتها في المدارس العُمومية. لكن بعض الأشخاص (الذين يَعْرِفون هذه المِهنة من الداخل) يَشْهَدُون أن جُزءًا هامًّا من ظاهرة «تفَوُّق» المدرسة الخُصوصية على المدرسة العُمُومِيَة مُصْطَنَع، أو مَغْشُوش. لأن المدرسة الخُصوصية تَنْهَجُ سياسة ***النَفْخ المُتَعَمَّد في النُقَط*** المُوزّعة على التلاميذ أو الطلبة. فَيَظُنُّ آباء التلاميذ أو الطلبة أن المدرسة الخُصوصية «تَفُوق» في جَودتها المدرسة العُمومية. بينما المُدَرّسون العاملون في المدرسة الخُصوصية هم ***نفس الأشخاص*** الذين يُدَرّسُون في المدرسة العُمومية. ***ومناهجهم*** لا تختلف مُرورًا من المدرسة العُمومية إلى المدرسة الخُصوصية. ونسب النجاح، مثلًا في نتائج امتحانات البَاكَالُورِيَا الموحَّدة على الصعيد الوطني، تُؤَكِّد أن المدرسة الخُصوصية لَا تتفوّق على المدرسة الخُصوصية. وتفرض المدرسة الخُصوصية ***أثْمَانًا باهضة*** على آبَاء التلاميذ. وتُشَغِّل المدرسة الخُصوصية مُدَرّسين جاهزين، مُنْتَزَعِين من المدرسة العُمومية، ودون أن تُؤَدّيَ المدرسة الخُصوصية ***كُلْفَة*** تكوين هؤلاء المُدرّسين. كما لا تُؤَدّي المدرسة الخُصوصية كُلفة المَوَاد، والبرامج، التي تُدرّسها. فَتَعِيش المدرسة الخُصوصية ***كُطُفَيْلِيَة*** على حساب المدرسة العُمومية. ولا تقدر المدرسة الخُصوصية على أن تكون هي الحَلّ، لأن العائلات المَيْسُورة هي وحدها التي تستطيع أن تلجأ إليها.

ومثل هذه الملاحظات المعروضة سابقًا، تُكَذِّبُ المظاهر الخَدَّاعَة في الرأسمالية. وتُشير إلى أن الرأسمالية لا تقدر على أن تكون هي الحلّ لِتَلْبِيَة حاجيات مُجمل الشّعب (وليس فقط حاجيّات العائلات المَيْسُورة فيه). وقد تعني أيضًا هذه الملاحظات، أن ***تحويل وسائل الإنتاج من مِلْكِية خاصة إلى مِلكية عمومية، لا يكفي وحده لتحقيق الاشتراكية.*** وقد تعني أنه، أثناء تَشْيِيد الاشتراكية، يلزم ***إحداث تغييرات مُجتمعية*** إضافية بِنْيَوِيَّة، ومن أبرز هذه التغييرات، نذكر ***تَغيير العَقليات*** التي يفكر بها مُجمل المُواطنين، لتحقيق انتقال جذري، ***من المناهج الفردانية الأنانية، إلى مناهج تَضَامُنِيَة، ومُجْتَمَعِيَة.***

ب) إشكالية حرص الدولة الرأسمالية المُتواصل على تنظيم ضَخّ (transfert) الثَرَوَات، من الكادحِين والمأجورين، إلى الرأسماليين الأغنياء:

لقد تعمّق كارل ماركس في توضيح الاستغلال الرأسمالي (عبر تفسير إنتاج «فائض القيمة»، واستحواذ الرأسمالي عليه). لكن توجد عمليات رأسمالية أخرى، ترقى إلى مُستوى المساهمة في تقوية، أو في تعميق، هذا ***الاستغلال الرأسمالي.*** ومن أبرزها، لجوء الدول الرأسمالية المُتَكَرِّر (في مُجمل البلدان الرأسمالية في العالم) إلى استخراج الضرائب المتنوّعَة، والثروات، من المأجورين والكادحين، ***وتَنقِيل*** (transfert) جزء منهَا إلى الأغنياء، وإلى الرأسماليين، عبر عمليّات مُعَقَّدَة، أو خَفِيَة، أَو مُمَوَّهَة، أو عبر تَوزيع امتيازات مختلفة، أو عَبْرَ تَمْلِيك مُفْتَرِس (appropriation prédatrice). وأكبر ظُلْم في الرأسمالية يأتِي في المرتبة الثانية من بعد الاستغلال الرأسمالي، هو ***الظُّلْمُ الضَرِيبِي.*** وتُبَرِّر الدولة الرأسمالية هذا ***التَنقِيل لِلْقِيَم*** بالأطروحة التالية: حيث تَزْعُمُ أن «هذا ***التَنقِيل*** (transfert) لِلْقِيَم، سَوف يَدفع

الرأسماليين إلى مُرَاكَمَة الرأسمال، ثمّ إلى الاِسْتِثْمَار، ثمّ إلى خَلْق مناصب الشُّغْل، ثمّ إلى إنتاج ثروات إضافية، ثمّ إلى إغناء عموم المواطنين»! لكن هذا ***التَوَقُّع*** يَفْشِلُ بشكل متكرّر، وفي مُجمل البلدان الرأسمالية. حيث لا يتحقّق، أو أنه يَحْدُث، ولكن بحجم هَزِيل (بالمقارنة مع حجم تكاليفه). إذ لا يُؤدّي إلى خلق مَنَاصِب الشُّغل بالقدر المَرْجُوّ. ولا يؤدّي إلى إنتاج ثروات إضافية أو هامَّة. ولَا يؤدّي إلى تَقْلِيص الفَوَارِق الطَبقية.

وفي البلدان الرأسمالية، مثلًا في "الاتحاد الأوروبي" (Union Européenne)، أصبحت نسبة هامّة من الحركات الشعبية الاحتجاجية، تدور بالضّبط حول فَدَاحَة حَجم هذا ***التَنْقِيل*** (transfert) للثَّرَوَات، الذي يُعَمّقُ الفوارق الطبقية بين الفقراء والأغنياء، وبدون فوائد مَشْهُودة. ولا يتوقّف هذا ***التنقيل،*** بل أصبح من ضمن ***المهام الرئيسية للدولة الرأسمالية القائمة.*** وأبرز مثال حديث على هذه الظاهرة، هو "حركة السَّتْرَات الصفراء" الشعبية الاحتجاجية، التي عَمَّت فرنسا منذ شهر نونبر 2018، وخاضت مظاهرات متوالية. وقالت حركة "السَّتْرَات الصَّفراء" أنها لم تَعُد تَتَحَمَّل أيّة زيّادة في الضرائب، ولَا تقدر على استكمال تَمْوِيل نفقاتها الضرورية خلال نهاية الشهر («boucler les fins de mois»). وطَالبت بِـ «حَذْف الزيادة الأخيرة في الضرائب على الغَازْوَال (gazoil)، وإعَادَة تَفْعِيل الضَّريبة على الثَّرْوَة (Impôt Sur la Fortune, ISF)، وَإِيقَاف ***تَنقِيل*** القِيَم من الفقراء إلى الأغنياء».

ويحدث ***تنقيل*** مُشَابِه، ومُتَوَاصِل، لِلْقِيَم، من "بلدان العالم الثالث" المَسُودة، إلى بلدان المراكز الإمبريالية السَّائدة. ومُعظم بِنْيَات المُبادلات الرأسمالية المُعَوْلَمَة تُؤَدّي إلى تعميق، أو استدامة، هذا "التَبَادُل اللَّامُتَكَافِئ". ***ويُعَمّق هذا التَنقِيل ظاهرة الاستغلال الرأسمالي.*** ويَنْعَتُه عادةً المناضلون بِمُصطلح «التَبَعِيَة» للإمبريالية.

ت) إشكالية التساؤل حول النَّوْعِيَة الجديدة للتناقضات، وللصراعات الطبقية، التي ستحدث بعد إنجاح الثورة البروليتارية، وكيف يلزم التعامل معها :

أَشَار هِنْرِي جِيتُّون (Henri Guitton) إلى أن كارل ماركس لم يلتزم حتّى النهاية بِتَصَوُّره المادّي الجَدَلِي حَوْل التاريخ، وَحَوْل صَيْرُورَة التناقضات في المُجتمع. حيث طرح ماركس أنه بعد إنجاز الثورة البْرُولِيتَارِيَة، أو بعد استكمالها، فإن الصراع الطبقي سيتوقّف في مُجتمع أُلْغِيَت فيه الطبقات. كأنّ ماركس اِعْتَقَدَ بِإمكانية تَوَقُّف صَيْرُورَة التناقضات، وبإمكانية اِنْتِهَاء التاريخ[94]. وهكذا تَنَاقَض ماركس في هذه النُّقْطَة مع نَفسه. بينما الاحتمال الأكبر، في مَا بعد نجاح الثورة البروليتارية، هو أن أنواعًا أخرى من التناقضات، ومن الصراعات الطبقية، ستظهر في المُجتمع الذي أُزِيلَت منه الطبقات الكلاسيكية (أي البرجوازية والبروليتاريا). حيث لا يكفي إقامة ديكتاتورية البروليتاريا، وإقْرَار إلغاء الطبقات المُجتمعية الكلاسيكية لِكي يُلْغَى وُجود التناقضات المُجتمعية، ولكي يتوقّف نِهائِيًّا الصِّراع فيما بين كل أنواع طبقات المُجتمع. وَبَيَّنَت التجربة، سواء في عهد لِنِين، أم في عَهد اسطالين، أم أَخْلَافِهِم، وسواء في روسيا أم في الصّين، أن أنواعًا جديدة مِن التناقضات، وأنواعًا جديدة من الصّراعات السياسية والطبقية، ستظهر، وَسَتَتَطَوّر، داخل المجتمع، بعد تَثْبِيت دكتاتورية البروليتاريا، وبعد الشُرُوع في محاولة إلغاء طبقات المُجتمع القديمة. وتَمَيَّز شارل بِيطَلْهَايْم (Charles Bettelheim) بِتَقديم دراسة دَقِيقة حول الصراع الطبقي في الاتحاد السوفياتي بين سنوات 1917 و

---

(94) أخذ هنري جِيتُون هو نفسه هذه الفكرة عن شارل رِيسْتّ (Ch. Rist)، الذي أخذها بدوره عن ج. سُورِيلْ (G. Sorel). Henri Guitton, Économie Politique, Tome premier, Édition Dalloz, 1971, p. 70.

1941 (في ثلاثة أجزاء). ورأينا كيف ضَلَّت (بمعنى اِنْحَرَفَت عن الطَرِيق الصحيح) قيادة الحزب الشيوعي في روسيا، وانْتَقَدْنَا لُجُوءَهَا إلى اِسْتِعْمَال أساليب استبدادية، وغير ثورية. وَلَمْ تَهْتَدِ قيادة الحزب الشيوعي السوفياتي إلى المُعَالَجَةَ السَّدِيدةَ لِلتناقضات الموجودة، سواءً داخل الحزب الشيوعي، أم داخل المُجتمع، وكذلك فيما بين روسيا والدول الغربية الإمبريالية. وساهم هذا الانحراف في تهيئ شروط انهيّار الاتحاد السوفياتي.

17) هَلْ يُوجَد نَـقْـصٌ مُحَدَّد فـى النَظَرِيَة المَارْكسيَة ؟

بعد تجربتي الطويلة في مجال الاشتغال بالنظرية الماركسية، أَحْسَسْتُ أنّه، مِن بين ***النّقائص المُهمّة في الماركسية، نَجد غِيّاب نظرية حول الصّراع فيما بين الأشخاص كَأَشْخَاص ذَاتِيّين.***

وَمُرَاجَعَة التجارب الملموسة، بما فيها تجارب الثورات الاشتراكية، والتجارب الحِزْبِيَة لِلْأحزاب الاشتراكية الثورية، تُعَلِّمُنَا أنّ واقع المُجتمع، لا يحتوي فقط على ***الصراع فيما بين طَبَقَات المُجْتَمَع***، وإنما يحتوي أيضًا على ***صراعات فيما بين الأشخاص كأشخاص ذَاتِيّين.*** وهذه الصراعات فيما بين الأشخاص (كأشخاص ذَاتِيّين) هي أيضًا ظَاهِرة مُجتمعية مُتَمَيِّزَة عن ظاهرة الصراع فيما بين طبقات المُجتمع.

فإذا كانت الماركسية تتوفّر على نظرية قويّة، وفعّالة، في ميدان ***الصراع فيما بين الطبقات المُكَوِّنَة لِلْمُجتمع***، فإن المناضلين الماركسيين، غالبًا ما يجدون أنفسهم فاقدين لأيّة مَهَارة عندما يُريدون مُعالجة ***الصراعات الموجودة فيما بين الأشخاص (كأشخاص ذَاتِيّين)***.

بينما ظَوَاهِر هذه ***الصراعات فيما بين الأشخاص***، مُنتشرة جدا في المُجتمع، ليس فقط فيما بين أشخاص يَنتمون إلى طبقات

مُختلفة، وإنّما أيضًا فيما بين أشخاص يَنتمون إلى نفس الطَّبقة المُجتمعية، أو أشخاص يَنْتَسِبُون إلى نفس العائلة، أو أشخاص يَنْخرِطُون في نفس الحزب السياسي، أو في نفس الجماعة، أو في نفس اللّجنة، أو في نفس الخليّة، أو في نفس الهيئة، أو في نفس المؤسّسة، الخ.

فما هي ***أسباب هذه الصراعات*** القائمة فيما بين الأشخاص (كأشخاص ذَاتِيّين) ؟ وما هي ***مَضَامِين صِرَاعَاتهم*** ؟ ***وكيف نتعامل*** مع هذه الصراعات فيما بين الأشخاص الموجودين داخل نفس الطبقة، وداخل نفس الفئة الطبقية، وداخل نفس الهيئة، وداخل نفس الجماعة، وداخل نفس الحزب السياسي، وداخل نفس التيار السياسي، الخ ؟

أ) في كلّ "فَرْد"، أو في كلّ "شخص" مُحدّد، نجدُ أنّ المركز الصُّلْب فيه، والغير قابل لِلْاِخْتِزَال، هو "ذَاتُهُ"، أي "الْأَنَا" (***l'égo, le Moi, the Self***) ***، المَوْجُود فيه.***

ونقصدُ بِمَفْهُوم "الفَرد"، أو "الشّخص"، الكَائِنَ «الْأَنَا» (le Moi). و«الْأَنَا» يكُونُ تَارَةً كَائِنًا في ذَاتِه (en soi)، وَيَكُونُ تَارَةً أُخْرَى كَائِنًا لِذَاتِه (pour soi).

[وفي اللغة العربية، «أَنَا» ضَمِير يستعمله، على السَّوَاء، المُتكلّم المُذَكَّر، والمُتكلّم المُؤنّث. ويكون ضَمِير "أَنَا" على شكل مُفْرَد، ولا يُثَنَّى. وَجَمْعُ «أَنَا» في اللّغة العربية هو "نَحْن" (ضَمِير الجَمْع المُتَكَلِّم، المُخْبِر عن نَفسه). ولا تُوجد في اللغة العربية كَلِمَة، أو صِيغَة، لِلتَّعْبِير عن جَمْع «الْأَنَا». فَلَا نعرف كيف نُسَمِّي مَجْمُوعة من «الْأَنَا» المُتَعَدِّدِين. فَأَسْتَعمل شخصيّا عبارة «أَنَات» (des Mois)، للكلام عن مجموعة من «الْأَنَا» المتعدّدين. وَلَوْ أنّ هذه الكلمة (الْأَنَات) لا تُوجد في اللغة العربية. وكلّما اِسْتَعْمَلْتُ عبارة «الْأَنَات» بدلًا من عبارة

«الأفراد»، أو «الأشخاص»، فهذا يعني أنني أُريد التركيز على ذلك المَرْكَز الصُّلب، الغير قابل للاختزال، الموجود في كلّ واحد من هؤلاء «الأفراد»، أو «الأشخاص»].

ب) كُلّ «أَنَا» له «**شَخْصِيَّةٌ**» خَاصَّة به، تُمَيِّزُه نِسْبِيًّا عن شَخْصِيَّات «أَلْأَنَات» (جَمْع أَنَا) الآخرين، المُتواجدين معه في بيئته المُجتمعية. وَلَوْ أن هذه «***الشّخصيّة***» تَبْقَى قَابِلَة لِلتَّأَثُّر، والتَطَوُّر، والتَغْيِير، والتَهْذِيب، والتَحْسِين، والتَدَهْوُر، الخ.

ومن بين ***أنواع «الشّخصيّات»*** الشَّائِعَة، نَجد مثلًا : «الشَّخْصَ» المَرِحَ، والحَزِين، والمُتَحَفِّظ، والشُّجَاع، والمُتَوَاضِع، والمُتَكَبِّر، والمُكْتَشِف، والمُغَامِر، وصاحب الحِيَل، والعامل المَاهِر، والنَّاسِخ، والمُبْتَكِر، وما إلى ذلك.

ت) كلّ «أَنَا» يَتَمَيَّز بِقَدْر مُحَدَّد من سِعَة الوَعْيِ السياسي، وبقدر مُحدّد من وُضُوح الرُّؤْيَة السياسية، وبقدر مُحدّد في درجة العَزِيمَة في تَحْقِيق الطُمُوحَات الشخصية، وبقدر مُحدّد في إرادة خِدْمَة الجَماعة والتَكَامُل معها، وبقدر مُحدّد من القَبُول بالتَضْحِيَّة بِالذَّاتِ لخدمة الجماعة، الخ.

ث) يُمكن ***تَقْسِيم «أَلْأَنَات» إلى أَصْنَاف مُتَبَايِنَة وَمُتَنَاقِضَة*** : العالم والجاهل، العَقْلَانِي والعَشْوَائِي، الوَاعِي وغير الوَاعِي (التَّائِه)، القَوِيّ الإرادة وضعيف الإرادة، المُجتهد والمُتكاسل، الأناني والاشتراكي، المُكافح والجبان، النَزِيه والغَشَّاش، الخ. وبعض «أَلْأَنَات» يُريدون أَنْ يَمْتَلِكُوا، وأن يَسْتَهْلِكُوا، أَكْثَرَ مِمَّا يَعْمَلُون. وبعض «أَلْأَنَات» يُريدون أن يَسْتَمْتِعُوا أكثر مِمَّا يُنْتِجون.

ج) كلّ «أَنَا» إلّا وهو مُتَطَوِّر، وَمُتَنَاقِض، وله تاريخ وِلَادَتِه، كما له تَاريخ مَوْتِه. كما أنّ كلّ مجموعة من «أَلْأَنَات» (جَمْع «أَنَا») تكون بالضّررة، هي أيضًا، مُتَطَوِّرَة، وَمُتَنَاقِضَة، وَمُتصارعة.

ح) «***الْأَنَا***»، وكذلك ما يَرتبط به من «أَنَانِيَة» تِلْقَائِيَة، أو عُضْوِيَة، هو العُنْصُر الذي يُعْمِي بِسُهُولَة الرُّؤْيَة، وَيُطْفِئُ العَقْلَ، وَيَخْنُقُ القُدْرَةَ على مُمَارَسَة النَقْد الذَّاتِي. كما أنه من المُمكن أن يَكون «الْأَنَا» مُحَفِّزًا على عكس مَا سبق ذِكْرُه، أي على الانتباه، والحذر، واليقظة، والنقد، الخ.

خ) هكذا نجد أن «الْأَنَا» يَمِيل بِقُوّة مُذْهِلَة إلى الدِفَاع عن نَفسه، وَلَوْ بشكل مُتَحَيِّز، وَمَفْضُوح، وَأَحْيَانًا عَبْر دَوْسِ حُقُوق «الْأَنَات» (جمع أَنَا) الآخرين المُنَافِسِين، أو المُتصارعين معه. والمُجتمعات الأكثر تَحَضُّرًا تُغَلِّب قِيمَة «الجماعة» على قيمة «الْأَنَا» الفَرْدَانِي، أو الأناني.

د) تدفعنا التجارب إلى الاعتراف، ليس فقط بوجود طبقات المُجتمع، وَبِصِراعها الطبقي، بل يَحُثُّنَا أيضًا واقع المُجتمع على الإقرار بِوُجود ***صراع فيما بين «الْأَنَات»*** (جمع «أَنَا»). ***ويوجد هذا الصراع فيما بين «الْأَنَات» في كلّ مَرَاتِب، أو مُسْتَوَيَات، مَنْظُومَة المُجتمع، من أسفلها إلى قِمَّتِها. كما يُوجد الصّرِاع فيما بين «الْأَنَات» في كلّ الميادين، وفي كلّ الْإِطَارَات، وحتّى داخل كل طبقة مُجتمعية مُحَدَّدة، وداخل كل حزب، وداخل كل جماعة، كيف ما كان نوعها.***

ذ) إذا كان «المُجتمع» يتكوّن من مَجموعة كبيرة من «الْأَنَات»، فإن «الْأَنَا» يظهر كَمُقَابِل لِـ «الجَمَاعَة»، أو كَنَقِيض لِـ «المُجتمع». ***وميزة كُلّ «أَنَا»، في كُلّ شَخص، هي قَدْرٌ مُعَيَّن من الْأَنَانِيَة، ومن الذَّاتِيَة.*** والأنانية تُؤَدّي بِسُهُولَة إلى الانتهازية. والانتهازية تَدْفَعُ نحو الوقاحة، وربّما حتّى التَحَايُل، أو الغِشّ، أو الجريمة. وتظهر الانتهازية، وكذلك الجريمة، كَتَعْبِير عن تَنَاقُض فيما بين «الْأَنَا» الفَرْد والمُجتمع. ***وميزة «الْأَنَا»*** البِدَائِيَة، أو الدَّفِينَة، هي طُمُوحه التِلْقَائِي، أو الغَرِيزِي،

إلى التَعْبِير عن نَفْسه، وإلى مُحاولة إِثْبَات ذَاتِه، أو مُحاولة فَرض أَفْضَلِيَته.

وميزة «أَلْأَنَا» هي مُيُولُه إلى الصِرَاع، وإلى المُنَافَسَة، وإلى البحث عن الْأَفْضَلِيَّة، وإلى الرّغبة في الغَلَبَة، وإلى إرادة فَرْض السَّيْطَرَة على الغَيْر. **وميزة «أَلْأَنَا»** أيضًا هي أنه لَا يَرَى سِوَى مَصَالِحَه الخُصوصية. وَغالبًا مَا يَرْفُض «أَلْأَنَا» الاعتراف بِمَشْرُوعِيَة مَصَالِح مُنَافِسِيه، أو يَنْكُر مَشْرُوعِيَة حُقُوق خُصُومِه. وعند اِخْتِيَّار مَوَاقِفه السياسية، أو عند اِخْتِيَّار اِصْطِفَافِه إلى جَانِب مُعَسْكَر هذه القُوّة السياسية أو تلك، فإن «أَلْأَنَا» يُرَاعِي مَصالحة الشخصية الضَيّقَة، ولا يُبالي كثيرا بِمَصالح الجماعة (أو المُجتمع).

ر) من صِفَات «أَلْأَنَا» أَلْأَنَانِي أنه لا يَهْتَمّ بِمصالح الجماعة (أو المُجتمع) الذي نَمَى فيه. فهو يُريد الاستفادة من الجماعة (ومن المُجتمع الذي تَرَعْرَعَ فيه). وَفي مُعظم الحالات، يُحاول «أَلْأَنَا» تَلَافِيَ إِفَادَة جماعته (أو مُجتمعه) إذا لم يَحصل (هذا أَلْأَنَا) على مُقابل مادّي وَفَوْرِي.

ز) إذا لم يتعلّم المُواطن في شبابه كَيْفِيَّة تَحَكُّمِه في «أَنَانِيَتِه» المُتَهَوّرَة، وإذا لم يَتَعَلَّم المُواطن بَاكِرًا أن السُلُوك الأكثر إِفَادَةً له هو تَغْلِيب مَصَالِح جماعته على مصالحه الشّخصية الخُصوصية، فمن المُمكن أن يتحوّل هذا المُواطن «أَلْأَنَانِي» إلى شِبْه حيوان مُفْتَرِس، يَتَمَيَّز بالأنانية، وَبِالاِنتهازية، وبالنفاق، وبالغِشّ. وفي هذه الحالة، سيكون مُسِيئًا لِمُجتمعه، وَلِنَفْسِه.

س) عَلَى ماذا تَدُور الصراعات فيما بين «أَلْأَنَات» ؟ إنها تَدُور عَادَةً، ليس فقط حول التَبَاهِي («أنا أحسن منك»)، وحول اكتساب القِيمَة الاعتبارية («أنا أفضل منك»)، بل تَدُورُ أيضًا حول اكتساب الأشياء («هذا الشَّيْء هو لِي وَحْدِي»)، وَحول تَمَلُّك الثَرَوَات («هذا في

مِلْكِيَّتِي، وَأَمْنَع عليك الْاِقْتِرَاب منه»)، وحول التَحَكُّم في الهَيْئَات («أنا المُسَيِّر الوحيد»، و«أنا مُؤَهَّل أَحْسَنَ مِنْك لِمُمَارَسَة القِيَّادَة»). وكلّ «أَنَا» يَدَّعِي أَفْضَلِيَتَه على مُنافسيه، وَلَوْ لَم يَكُنْ يَكْتَسِبُ الخِبْرَة الضرورية، أو التَأْهِيل اللّازم، المَطلوب في المَنْصِب القِيَادي المُتنازَع حوله. وَتَحْدُثُ الصِّراعات فيما بين «أَلْأَنَات» حول تَمَلُّك المَوَارِد، وحول اِحتِلَال المَنَاصِب، وَحول مُبَاشَرَة المَسْؤُولِيَّات، وحول تَحْصِيل المَدَاخِيل، وحول جَمْع الْاِمْتِيَّازَات، وحول اِكْتِسَاب الجَاه.

ش) يَمِيل كلّ «أَنَا» أَنَانِي إلى إِثْبَات ذَاتِه عَبْر نُكْرَان وُجُود «أَلْأَنَات» الآخرين المُنافسين، أو عبر تَبْخِيس قِيمَة «أَلْأَنَات» الآخرين المُنَازِعين. وَيَمِيل كلّ «أَنَا» أَنَانِي إلى الدِّفَاع عن حُقُوقه عبر إِلْغَاء حُقوق «أَلْأَنَات» الآخرين المُزَاحِمين. كما تدور الصراعات فيما بين «أَلْأَنَات» حول الزَعَامَة («أنا الزَّعِيم الأكبر»، «أنا القائد الوحيد»، و«أنت التَابِع المُنَفِّذ»، و«أنت المُخْطِئُ الضَالُّ»). وَتَدُور أيضًا النِزَاعَات فيما بين «أَلْأَنَات» حول المَقْدِرَة الفِكْرِيَة («أَنَا أَفْهَم أَكْثَرَ مِنْك»).

ص) ما دام ***الصراع بين «أَلْأَنَات»*** يَشْمَل الصِرَاع حول تَمَلُّك وَسَائِل الْإِنْتَاج، وحول تَسْيِيرِهَا، فإن الصراع فيما بين «أَلْأَنَات» ليس غَرِيبًا، أو مُستقلًّا، عن ***الصراع فيما بين الطبقات*** المُكَوِّنَة لِلمجتمع. بل هذين النَوْعَيْن من الصراعات يَلْتَقِيَّان من فترة لأخرى، وَيَتَرَابَطَان فيما بينهما، وَيَمْتَزِجَان، أو يَنْدَمِجان في بعض الحالات. وَيُغَذِّي كلّ واحد من هذين الصراعين الآخرَ منهما.

ض) ***كيف نُعالج التناقضات فيما بين «أَلْأَنَات»*** ؟ السَبِيل الثوري لِلتَعَامُل مع التناقضات فيما بين «أَلْأَنَات»، هو ***الرُجُوع، والْاِحْتِكَام، إلى جماهير الشّعب*** (le retour aux masses). وَلَوْ أنه مِن المُمكن أن تُخْطِئَ جماهير الشّعب في بعض الحالات. فيجب تَلَافِي

تَقْدِيس الشعب، بل تَنْبَغِي المُساهمة في نَقْدِه، وَفي تَثْوِيرِه. وَيُمكن أن يُنْجَزَ هذا «الرُجُوع والْاِحْتِكَام إلى جماهير الشعب» على شَكْل اِسْتِفْتَاء شَعْبِي، أو اِنْتِخَابَات عَامَّة، أو "ثَوْرَة ثَقَافِيَة"، مَصْحُوبين بِنِقَاش سِيَّاسِي جَمَاهِيرِي وَاسِع وَكَاف. وَالجانب المُهِمّ في هذا الحَلّ هو خُصُوصًا ***خَوْض النقاش السياسي الجماهيري العَلَنِي، والصراع السياسي الجماهيري، وممارسة النَقْد الثوري الجَيّد والعَلَنِي، والنَقْد الذَّاتِي النَزِيه، والعمل على تَقْيِيم التَجارب، وَتَغْلِيب المَوْضُوعِيَة الثورية، وَتَصْحِيح الأفكار، وَتَنْقِيح السُلُوكِيَّات، وَتَثْوِير «أَلْأَنَات»، وَتَقْوِيم الأشخاص، وَإِعَادَة تَرْبِيَتِهِم، وَالتَحَلِّي بِالتَوَاضُع وَالْكِيَاسَة، وَتَلَافِي الْإِهَانَة، أو التَجْرِيح، أو الظُّلْم، أو اَلْاِنْحِيَاز اَلْغَيْر مَبْدَئِي***. مَعَ عدم نِسْيَان أن المُرَبِّي يحتاج هو نفسه، وبشكل مُتواصل، إلى إعادة التَرْبِيَة. ويتطلّب الحُلّ أيضًا المُراقبة المُتَبَادَلَة، والنّقد الثوري المُتبادل، والمُحاسبة المُتبادلة، والخُضوع المُتساوي لِلقوانين والأخلاق والمبادئ المُشتركة.

ط) سَيْرُورَة تَهْيِئ، وَإِنْجَاح، وَتَثْبِيت، الثورة المُجتمعية الاشتراكية، تَتَطَلَّب تَغْيِير وَتَثْوِير أَصْنَاف «أَلْأَنَات». وكلّ ثورة مُجتمعية اِشْتِرَاكِيَة تُهْمِل تَرْبِيَة وَتَثْوِير أَصْنَاف «أَلْأَنَات» لَدَى عَامَّة المُواطنين، ستصبح مُعرّضة لِلْاِنْحِرَاف، ثمّ لِلْفَشَل. وَقُوَّة كلّ ثَوْرَة، وَقُوَّة كل سلطة سياسية، وَقُوَّة كل نظام سياسي، وقوّة كل مُجتمع، تَأْتِي من جودة أَصْنَاف «أَلْأَنَات» الموجودة لدى غَالِبِيَة المُواطِن المُنَاصِرِين لَه.

18) لماذا بعض الأحزاب "الاشتراكية" تُعادي الاشتراكية ؟

18.1) تُوجد بالمغرب خمسة ***أحزاب*** سياسية[95]، ***تَتَضَمَّن أسماؤها، أو تعاريفها، كلمة أو صِفَة «الاشتراكي»***. لكن مُعظمها يُعَارض «الشِيُوعِيَة»، أو يَسْتَنْكِرُ «اَلْاِشْتِرَاكِيَة»، أو يرفض «الماركسية»، أو يَتَبَرَّأُ من الطُمُوح إلى «الثورة المُجتمعية الاشتراكية». لأن التركيبة الطبقية لأعضائها تَعُود عُمُومًا إلى "طبقة البرجوازية الصغيرة"، وليس إلى الطبقة العاملة.

خمسة أحزاب بالمغرب تحمل أسماؤها كلمة «الاشتراكي». لكنها لا تَرفض تَعليم أعضاءها نظريات «الاشتراكية»، أو «الماركسية». فَمِن أين ستأتي معرفة «الاشتراكية»، أو «الماركسية»، إلى أعضاء هذه الأحزاب؟ هل ستنزل عليهم تِلْقَائِيًّا من السماء؟ هذا مُستحيل. وإذا لَاحَظْتَ أن حِزْبًا «اشتراكيا» مُحَدَّدًا، ***لا يُعَلِّم أعضائه النظرية الماركسية***، ولا الفلسفة، ولا الاقتصاد السياسي، بطريقة مُنَظَّمَة، ومضبوطة، ومُتَوَاصِلَة، فَكُن على يقين أن هذا الحزب يكْتفِي بِتَزْيِين

(95) الأحـزاب في المغرب الـتي تصف نـفسها بِـ «الاشـتراكية» هي: «حزب التقدّم والاشتراكية»، و«حزب الاتحاد الاشتراكي»، وهما معًا حزبان مُحافظان ويمينيَّان. وتُوجد أحزاب أخرى تقول أنها «يَسَارِيَة»، وهي: «الحزب الاشتراكي المُوَحَّد»، و«حزب الطليعة الديموقراطي الاشتراكي»، و«حزب المؤتمر الاتحادي»، و«حزب النهج الديموقراطي».

نفسه بصفة «الاشتراكية»، ولكنه في الواقع يَشُكُّ فيها، أو يرفضها، أو يحاربها. هذه هي الصراحة. وبقدر ما يجهل مناضل محدّد النظرية «الماركسية»، أو «الاشتراكية»، بقدر ما يسهل عليه تحويلها إلى أيديولوجية، أو حتى إلى نقيضها الرأسمالي المُفْتَرِس.

بعض الأحزاب تُوجد في أسمائها، أو في تعاريفها، كلمة «الاشتراكي»، لكن حُلْمَها الأقصى هو أن تُصبح مثل تلك الأحزاب «الاشتراكية الديمقراطية» الموجودة في أوروبا. وهي في عُمْقِهَا أحزاب «رأسمالية»، ولو أنها تَصِفُ نفسها بِـ «الاشتراكية». ولا يتجاوز نشاطها حدود المشاركة في انتخابات شَكْلِيَة، أو فُولْكْلُورِيَة، والاستفادة من امتيازات تَوَلِّي مناصب مسؤولية شَكْلِيَة، تفْتقِرُ إلى سُلطة فعّالة. وتلتزم هذه الأحزاب «الاشتراكية» بكل مبادئ «الرأسمالية». وتدّعي هذه الأحزاب أنها ترفَض مُبَالَغَة «الرأسماليةُ» في استغلال الكادحين، أو في افتراسها للمأجورين. لكن هذه الأحزاب تُسَايِر «الرأسماليةَ» في تطوّرها، وحتى في أَشَدّ أشكال تَطَرُّفُهَا، بما فيها النَزْعَة الوَطَنِيَة الشُوفِينِيَة (chauvinisme)، واستغلال شعوب العالم الثالث، ومساندة الصهيونية الاستعمارية، والحُروب العُدوانية.

وبعض الأشخاص، أو الجمعيات، أو الأحزاب، أو المؤسّسات، أو الدول، ***يصفون أنفسهم بِـ «الاشتراكية»***، أو يدّعون أنهم يريدون بناء «الاشتراكية». لكن تَبَنّيهم للاشتراكية لا يُتَرْجَم، بِما فيه الكفاية، إلى سُلُوكِيَّات ملموسة ومُمَيَّزَة، في تفكيرهم، أو في تنظيمهم، أو في نضالاتهم، أو في إنجازاتهم. فَلا يظهر أنهم يُساهمون في النضال من أجل تَهْيِئ الاشتراكية. فيتحول هذا التَحَلّي بِـــصِفَة «الاشتراكية» إلى صِنف من الزّينَة، مثل المَسَاحيق، أو مثل الخَاتم، أو السِلْسْلة الذهبية في العُنق. وقد يكون تَبَنّي «الاشتراكية» شكلًا من أشكال المُغالطة الذّاتية، أو من الخِداع السياسي، أو وسيلة لِاسْتقْطَاب جماهير غفيرة.

وقد يكون الحزب [أو الدولة] الذي يحمل اليومَ رسميًا صِفَة «الاشتراكي»، قد طَمَح إلى «الاشتراكية» فعلًا في ماض مُحَدَّد، لكن هذا الحزب [أو الدولة] خضع لِتَطوّرات تاريخية، وتغيّر في طبيعته العميقة، ولم يَعُد يلتزم وَلَوْ بِمبدأ واحد من بين مبادئ «الاشتراكية». بل قد يُصْبح معاديًّا لكل ما هو «اشتراكي»، دُون أن يَعِيَ ذلك. وقد يكون هذا الفرق بين «الادِّعَاء» و«الواقع»، تعبيرًا عن الإِصَابَة بِاسْتِلَاب (aliénation). وقد نجد انفِصَامًا شَاسِعًا بين ما يدّعيه الحزب [أو الدولة]، وما يمارسه في الواقع الملموس. (وذلك هو ما حدث مثلًا لِـ "حزب الاتحاد الاشتراكي"، ولِـ "حزب التقدم والاشتراكية"، كما يمكن أن يحدث لِبَعض قِوَى اليسار الأخرى، مثل "الحزب الاشتراكي المُوحّد").

18.2) لَا يمكن لأي شخص أن يكون في نفس الوقت «ثوريا»، و«مُضادًّا للماركسية». وَرُوح الثَّورية هي النظرية المَاركسية! وكلّ المناضلين القُدَامَى الذين سبق لهم أن تَخَلَّوْا عن دراسة الماركسية، أَصْبَحُوا رَأْسْمَالِيّين، أو مُحَافِظِين، أو يَمِينِيّين!

18,3) من المُسْتَبْعَد أن تلجأ جماهير كادحة إلى ***تَبَنِّي «الاشتراكية»*** نتيجةً لِحوارات فكرية وحدها. وإنما دَوَام قساوة الاستغلال الرأسمالي، أو عذاب الفقر، أو الآلَام الناتجة عن أزمات الرأسمالية، أو غِنَى التجارب النضالية، بالإضافة إلى تَنْوِير سياسي ونظري مُتَوَاصِل، هي العوامل التي قد تُسَاعد الجزء المتقدّم من الجماهير الكادحة على تَبَنِّي الاشتراكية، أو الطموح إلى تشييدها. وإذا لم يوجد استغلال، وحرمان، وفقر، واضطهاد، وصراع طبقي، فقد يبقى الطموح إلى الاشتراكية نادرا، أو غير مبرّر، أو مُنْعَدِمًا. وعليه، يستوجب طرح شعار «الاشتراكية» حدّا أدنى من التطوّر الاقتصادي الرأسمالي.

18.4) يُفترض في كل فاعل سياسي ***يطمح إلى بناء*** «***الاشتراكية***» أنه دَرَسَ عِلْمِيًّا «***الرأسمالية***»، وكذلك «الاشتراكية»، وفهم تفاصيلهما، وقوانينهما. فَهَلْ درس حقيقةً مناضلو قِوَى اليسار الرأسماليةَ في تفاصيلها؟ فَمِن نقط ضُعف قوى اليسار أن قيادات أحزاب اليسار لَا تُوفّر للمناضلين القاعديّين في الحزب ***تكوينا نظريا متواصلًا*** في مُجْمَل المَيَادين المُرتبطة بهذه الإشكاليات (مثل: تاريخ الثورات، وآليات الاستغلال الرأسمالي، وأنماط الإنتاج المتداخلة، وطبقات المُجتمع، والتشكيلة المُجتمعية، إلى آخره).

18.5) ما هي التدابير التي يَـــــــفترضها الطُمُوح إلى تهيئ تشييد الاشتراكية؟ إذا كان بناء الاشتراكية هو إحداث تغييرات جذرية في ***المجتمع***، بِمَا فيها تغيير بنياته التحتية، وبنياته الفوقية، فإن هذا التغيير للمُجتمع يتطلّب إذن ***معرفة الـقوانين العِلْمِيَة التي تَتَحَكَّمُ في تطوّر المُجتمع***. فهل المناضلون، وتِيَارات وأحزاب اليسار، الذين يطمحون إلى تشييد الاشتراكية، هل يعرفون، أو هل يدرسون، ***القوانينَ العلمية التي تَتَحَكَّمُ في تغيير المُجتمع***؟ لا أعتقد ذلك[96]. وقد كُنَّا في سنوات 1970، في "الحركات الماركسية اللّينينية" بالمغرب، نبحث عن الكتب السياسية، والوثائق النظرية، والمراجع العِلمية، وكُنَّا في غَالِبِيَة الحالات لَا نستطيع الوصول إليها. أمَّا اليوم، فقد أصبح الكثيرون من المُفَكّرين والمناضلين، في العديد من بلدان العالم، يقتسمون بالمجان، على شبكة الأنترنيت، الكتب والمَراجع الرَّقْمِيَّة التي تَتَنَاوَل هذه المواضيع. ومن المؤسف أن معظم المناضلين

(96) أُنظُر كتاب رحمان النُوضَة: "نقد أحزاب اليسار بالمغرب". أنظر أيضًا كتبه الأخرى المتعلّقة بهذا الموضوع، مثل: "Le Sociétal"، و"كيف نُسقط الاستبداد"، إلى آخـــــره. ويمكن تحميلهـــــا بالمجّـــــان من مُدَوَّنَـــــة الكـــــاتب الإلكترونية: (https://LivresChauds.Wordpress.Com).

اليساريين في البلدان الناطقة باللغة العربية لَا يهتمّون بما فيه الكفاية بالاطّلاع على مثل هذه الاجتهادات النظرية. ***فهل يمكن حقًّا تهيئ بناء الاشتراكية، دُونَ الإِطِّلَاع على التُّراث الثقافي العالمي، ودون معرفة المُجتمع معرفة علْمِيَة دقيقة؟***

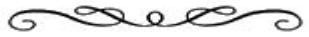

19) مُلاحظات في مَجال تَهْيِيء الاشتراكية

19.1) تحتلّ أطروحة «***العنف الثوري***» مكانة هامّة في نظرية الماركسية. وتحتاج هذه الأطروحة إلى فحص وتمحيص حسب الفترة التاريخية المعنية.

وفي سنوات 1970، وفي "الحركات الماركسية اللّيِنِينية" بالمغرب، كُنَّا نعتقد أنه يستحيل أن تنجح أية ثورة مُجتمعية إذا لم تستعمل العنف الثوري، أو الكفاح المسلّح، أو حرب التحرير الشعبية. وبعد ذلك لاحظنا أن مجمل القوى الثورية التي لجأت إلى العنف الثوري بالمغرب سَهُل على النظام القائم أن يعزلها، وأن يُطَوِّقَهَا، ثم أن يَسحقها. وكان النظام السياسي يمارس ضدّها تكتيك "التطويق والإبادة". وبعد ذلك، ظهرت بعض الثورات الجماهيرية الناجحة نسبيا، ولو أنها لم تستعمل العنف الثوري بشكل مُمَنْهَج، أو على نطاق واسع. منها مثلا : ثورة الحركةَ الخُمَيْنِيَة في إيران التي أطاحت نظام الشّاه في سنة 1979، ثم "انتفاضة" تونس، ومصر، في سنة 2011، إلى آخره. فإذا كانت القوى الثورية مَاهِرَة في فنون تَعْبِئَة الجماهير الكادحة، وتنويع أساليب نضالاتها، وإبداع أشكال تنظيماتها، وتأطير نضالاتها، فسيغدو بالإمكان إنجاح الثورة المجتمعية دون الحاجة إلى التَرْكِيز على

العنف الشَّامِل والمُمَنْهَج[97]. لكن التَحْلِيل المَلْمُوس لِلْأَوْضَاع القائمة، هو الكَفِيل بِتَحْدِيد الخَطّ الْإِسْتْرَاتِيجِي في كلّ مُجتمع.

19.2) هل يُمكن ***أن تُبْنَى الاشتراكية في بلد واحد فقط؟*** في الأصل، كان افْلَادِيمِير لِينِين، وطبعًا لِيُونْ تْرُتْسْكِي، يَتَبَنَّيَان فكرة "الثورة العالمية". وكان كارل ماركس، في كتاب «البيان الشيوعي»، قد أبرز شعاره المشهور: «يَا عُمَّال العالم إِتَحِدُوا»! بينما فَرَضَ تِيَارُ جُوزِيف اسْطَالِين فكرةَ «بناء الاشتراكية في بلد واحد». واستمرت هذه الفكرة الأخيرة (بِنَزْعَة وطنية [nationaliste]، أو قَوْمِيَة، وليس أُمَمِيَة [internationaliste]، حتى عام 1944). وبعض المفكّرين (وليس فقط أنصار أطروحة لِيُون تْرُوتْسْكِي)، يعتبرون أن تشييد الاشتراكية في بلد واحد هو حُلم طُوبَاوِي (utopique). وسيعرّض بالتَّأْكِيد هذا البلد إلى مؤامرات، أو إلى حَرْبٍ تَشُنُّهَا عليه الإِمْبِرْيَالِيَات العالمية. ويعتبر هؤلاء المفكّرين أن نجاح بناء الاشتراكية يبقى مستحيل التحقيق إذا لم نخلق سيرورة تُؤَدِّي إلى انتشار الثَوَرَات الاشتراكية إلى نسبة هامّة من بلدان العالم المُتقدّمة. وهو ما اهتدى إليه الاتحاد السوفياتي هو نفسه (بما فيه اسْطَالِين)، حيث دعّم، حسب المُستطاع، الثورة الناشئة في الصّين؛ ثم دَعَّمَت الصّين والاتحاد السوفياتي الثورة التَحَرُّرِيَة في بلدان أخرى، وعلى رأسها فِتْنَام (Vietnam) في مُقَاومته للحُرُوب الشَّامِلَة التي شَنَّتْهَا ضدّه الإِمْبِرْيَالِيَات الإنجليزية، ثم الفرنسية، ثم الأمريكية. وهزم شعب فِتْنَام البطل هذه الإمبرياليات الواحدة تِلْوَ الأخرى، وفرض عليها الهروب من فِتْنَام.

وخلال مُجمل القرن 20، بَيَّنَت التجارب أن الإمبرياليات الأمريكية والأوروبية تتدخّل باستمرار، وبِقُوَّة السِّلَاح، والاغْتِيَالَات،

(97) أنظر كتاب رَحْمَان النُوضَة: "كيف نسقط الاستبداد"، ويمكن تنزيله من مُدوّنة الكاتب.

وشَنّ حُروب أهلية بالوَكَالة، لإجهاض، وإفشال، كل محاولة لإنشاء نظام سياسي تقدّمي، أو وطني، أو تحرّري، أو "اشتراكي"، في أيّ بلد كان من بلدان أمريكا اللَّاتِينِيَة، أو افريقيا، أو آسيا.

والتطوّرات الحالية، الجارية على الصعيد العالمي، تُبيّن أن تشابك، أو تداخل، أو تفاعل، مختلف دول العالم، وشعوبه، يَتعَمَّق، وَيَتَشَعَّب، ويتضخّم بسرعة متزايدة. وأن ***مصير الشعوب أصبح أكثر فأكثر مُتداخلاً، ومُشتركا***. وذلك بسبب المبادلات الاقتصادية، والثقافية، والبشرية، والتِكْنُولُوجِيَة. زيادة على أن الصراع الحاد بين الأنظمة الرأسمالية والأنظمة الاشتراكية، لا يترك أية حظوظ لنجاح الاشتراكية، إذا كانت هذه الاشتراكية موجودة فقط في بلد واحد، أو في بِضْعَة بُلدان محدودة، أو ضعيفة.

19.3) واليوم، توجد مُجمل ***البشرية*** في أزمة[98] لم يسبق لها مثيل. وتَدْفَعُ أكثر فأكثر ***الرأسماليةُ أالمُعَوْلَمَةُ*** مجمل ***البشرية*** نحو نوع من ***الانتحار الجماعي البَطِيء***. ورغم الطّابع المَفْضُوح لهذا الانتحار الجماعي البَطِيء، فإنه يظهر كأنه غير مَحْسُوس، أو غَيْرَ وَاعٍ، من طرف معظم شعوب العالم. والطبقات السَّائدة، أو المُسْتَغِلَّة، التي تحتكر سلطة القَرَار، تَتَمَادى كعادتها في تغليب مصالحها الأنانية الضَيّقَة على مصالح شُعُوبها. وإن انْحِبَاس الكثير من الحركات المناضلة الصَّادِقَة، في الحدود الضَيّقَة للمطالبة بِـ «شيء من الديمقراطية هُنَا»، وَبِـ «شئ من حقوق الإنسان هُنَاك»، دون إعادة النظر في نمط الإنتاج الرأسمالي في شُمُولِيَّته، سَيكون بِمَثَابَة ***اِنْخِدَاع*** غير مسؤول، وغير مقبول. ***والماركسية*** هي من المدارس الفكرية

(98) أنظر على الأنترنيت نقدا حديثا للرأسمالية، لِيُوهَانَسْ فُوجَلْ (Johannes Vogele): http://www.krisis.org/2000/essai-d-une-autocritique-de-la-gauche-politique-economique-et-alternative/.

النادرة جِدًّا التي تنتقد الرأسمالية، وتفْضَح آلِيَّاتِهَا المُسْتَلَبَة (aliéné)، وتَحُثُّ على التحرّر منها. فهل سنكون، كَبَشَر، في مستوى رفع هذه التَحَدِّيَات، قبل فَوَات الأَوَان؟

20) الماركسيةُ التي حَرَّرَتْ عقلي

في مجال علاقتي الشخصية الذاتية ***بالماركسية***. أستعرض كيف اكتشفتُ الماركسية.

وُلِدتُ في عائلة فقيرة نسبيا. وكان أبي، وكذلك أب أمي، فلاحين فقيرين في جبال الأطلس، جنوب مراكش. ثم اِسْتَوْلَى الجيش الاستعماري الفرنسي بالقوّة على أبي في السوق، مع مئات آخرين من الشبان. وأعطوهم أكلة جيّدة، وبدلة. ثم حوّلتهم القوات الفرنسية إلى عسكر في جيشها. ثم استعملتهم فرنسا في "حرب الأَنْدُوشِين"، ثم في معارك تحرير إيطاليا المحتلّة من طرف الجيش الألماني النازي. وبعد الحرب أصبح أبي عاملًا في البريد، في قسم تَثْبِيت أسلاك الهاتف في إقليم "الحَوْز"، حول مدينة مراكش. وتعلّم أبي القراءة والكتابة، بالعربية وبالفرنسية. ولم يكن من عادة عائلتنا ***شراء المجلات أو الكتب***. ولم تُوجد ***مكتبات عمومية*** في مدينتنا. وعندما كان سِنّي يتراوح بين 15 و 22 سنة، كنتُ أحاول قراءة كل الوثائق التي تَسْقُطُ بين يَدَيَ. ولاحظتُ شيئًا غريبا. وهو أنه، عندما أحاول قراءة كتب أو مجلات قديمة، تدور حول مواد سَبَقَ لِي أن درستُها في المدرسة، مثل الرياضيات، أو الفيزياء، أو الكيمياء، أو العلوم الطبيعية، أو الجغرافية، كنتُ أفهمُ جُزْئِيًّا ما أقرأ. وعندما كنتُ أحاول قراءة نصوص تدور حول مواد لم ندرسها في المدرسة، مثل الفلسفة، أو الاقتصاد، أو السياسة، ***لم أكن أفهم أيَّ شيء***. ودام هذا العجز على الفَهْم عدّة سنوات.

وفي يوم مَا، وبسبب فَضُولي الفكري، قرأتُ بالصُّدفة «***البيان الشيوعي***»، في صيغته الفرنسية (المحرّر في سنة 1848، من طرف كَارْل مَارْكِس، وَفْرِيدْرِيشْ إِنْجَلْسْ). ودَفَعَنِي إعجابي بهذا الكتاب إلى إعادة قراءته عدّة مرات. وكان هذا «البيان الشيوعي» يستعمل بشكل مُكَثَّف عدّة نظريات ماركسية، مثل: الاقتصاد السياسي، والمادية الجدلية، والمادية التاريخية، والسياسة، والفلسفة، والتاريخ، إلى آخره. وحَدَثَ فجأةً ***تَحَوُّلٌ كَيْفِي*** في مَعْرِفَتِي، وفي عَقْلِي. فبدأتُ أفهم نسبيّا النصوص التي تتناول قَضَايا ***الدولة، أو المُجتمع، أو السياسة، أو الاقتصاد، أو الفلسفة.*** ولم يكُن ذلك نتيجة لِكِبَر سِنِّي، وإنما نتيجة لِلتَّأْهِيل النظري الذي منحه لِي كتاب "البيان الشيوعي". حيث بدأتُ أفهم نِسبيًا المَنْظُومَات المُجتمعية.

وتعجّبتُ مِن كون أصدقائي في الحَيّ، ثمّ في الجامعة، الذين يجهلون كتاب "البيان الشيوعي"، لم يكونوا قادرين على الوعي بالمشاكل الشمولية، وخاصة منها المشاكل المُجْتَمَعِيَة. وكلّما قَارَنْتُ نفسي بمواطنين عاديّين، غير مُطَّلِعين على الماركسية، ذَكَّرَتْني هذه المقارنة بأنه، لَوْ لَمْ أَدْرُسْ الماركسية، لَمَا كان بِمُسْتَطَاعي أن أتحرّر من الأوهام التي تُسَيْطِرُ على عُقُول عامّة أفراد مُجتمعي.

ومَا زلتُ ألاحظُ في محيطي المُجتمعي، أن الأشخاص الذين لم يدرسوا الماركسية، غالبًا مَا يبقى فَهْمُهُم لقضايا «المُجتمع»، و«السياسة»، و«الاقتصاد»، و«الفلسفة»، و«القانون»، و«التاريخ»، فَهْمًا ناقصًا، أو مُمْتَنِعًا. بل قد يكون فهمهم حتى مُنَاقِضًا للواقع.

وأصبحتُ شَغُوفا بالرَّغْبَة في قراءة كل المقالات، وكل الكتب، التي تستعمل النظرية الماركسية. ولن أنسى أبدا أن الماركسية هي التي حرّرت عَقْلِي، ونَمَّتْ حِسِّي النقدي، وخَلَّصَتْنِي من الخُرافات المُسيطرة على أفراد مُجتمعي. وبفضل الماركسية بدأتُ أفهم مَيَادِين معقّدة مثل

المُجتمع، والسياسة، والصراع الطبقي، والفلسفة، والاقتصاد، والقانون، والتاريخ، وصراع النظريات. وأصبحتُ أُمَيِّزُ بسهولة بين الثقافة المُحافظة، والثقافة التقدّمية، أو الثورية. وأعترف أنه، لولَا النظرية الماركسية، لَمَا كان بِإِمْكَاني أن أتحرّر من الكثير من الأوهام التي تُكَبِّلُ العقل، وتَسُود على معتقدات مجتمعي. ولولَا النظرية الماركسية لَبَقِيتُ، مثل كثيرين من المواطنين، أسبح في مُحِيط من المُعتقدات الجَاهِلَة، التي تُهَمِّشُ العَقْل، أو تقْتُلُه، أو تَكْبُتُ الطُمُوحات التحرّرية.

وخلال شَبَابِي في سنوات 1970، و 1980، كنتُ أُرَكِّزُ على قراءة كل ما يسقط بين يَدَيَّ من كتب كارل ماركس، وفْرِيدِيرِيش إِنْجَلْس، وفْلَادِيمِير لِينِين، ومَاوُو زِي دُونْغْ، وهُو شِي مِنْه، وأمثالهم. وفي سنة 1991، قرَّرتُ إِيقاف قراءة كتب الماركسية اللينينية، وتجريب نِسْيَان مقولاتها. وكنتُ أحاول أن أفكر بشكل تِلْقَائِي، أو مُستقل عن أية مرجعية فكرية. وبعد مرور سنوات، لاحظتُ أن المبادئ الأساسية في النظرية الماركسية بَقِيَت حَيَّة ومُشْتَغِلَة في مجمل تفكيري. ولاحظتُ أنه لا يمكنني الاستغناء عن مناهج الماركسية. لأن الماركسية التي تعلَّمتُها، هي مثل المناهج العلمية. حيث أصبحتْ جزء لا يتجزَّأ من المَنطق الذي أفكِّر به، ومن المعارف العِلْمِيَة التي أستعملها. فمثلًا الشخص الذي فَهِمَ قانون الجاذبية، أو الذي فَهِمَ أن نمط الإنتاج الرأسمالي يعتمد على استخراج «فائض القيمة»، عبر عملية استغلال العامل المأجور من طرف مُشَغِّلِه، لَنْ يقدر بعد ذلك على نُكْرَان هذه المعلومة، أو مَحْوِهَا من عقله. مثلما أنه لن يستطيع أن يمحُوَ "قانون الجاذبِيَة"، أو مَا شابهه، من معارفه.

وَلِتَنْوِير عُقُولِنَا، وَلِإِنَارة سَبِيلِنَا، لِنَدْرُس مُجمل كتابات وإِسْهَامَات كلّ المناضلين الماركسيّين والثوريّين، أينما كانوا في العالم !

رَحْمَان النُوضَة (الصِيغَة 17).

(بدأ تَحْرِير هذه الدراسة في منتصف شهر يونيو 2015، بالدار البيضاء. حيثُ طلبت "جمعية البناء الثقافي بمدينة الخُمِيسَاتْ" بالمغرب، من رحمان النوضة، أن يُشَارك في ندوة سَتُعْقَدُ في مقر "جمعية المحامين الشباب"، في مدينة الخُمِيسَاتْ، في يوم الخميس 2 يوليوز 2015. وطلبت الجمعية من رحمان النوضة أن يُلْقِيَ عرضًا تحت عنوان: «أي مستقبل للاشتراكية في المغرب؟». وقدم رحمان النوضة مُلخّص الصيغة الأولى لهذه الدراسة في الندوة. وشارك أيضا كَمُحَاضِر في هذه الندوة عبد الغني القبّاج، وعلي أفقير. ثم طَوَّرَ الكاتب رحمان النوضة، كعادته، دراسته هته خلال مَرَّات مُتَوَالِيَة. ثم نُشِرَ جزء هام من هذه الدراسة في مجلة "النهضة" ، العدد المزدوج رقم 17 – 18، صيف سنة 2019، الرباط، المغرب).

(nouda.abderrahman@gmail.com)